آداب النفوس

تصنيف الإمام

أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي

٢٤٣ هـ

ويليه

كتاب التوهم

دراسة وتحقيق

عبد القادر أحمد عطا

مؤسسة الكتب الثقافية

ملتزم الطبع والنشر والتوزيع
مؤسسة الكتب الثقافية فقط

الطبعة الثانية

١٤١١هـ - ١٩٩١م

الصنائع - بناية الإتحاد الوطني - الطابق السابع شقة ٧٨
هاتف المكتب : ٣٤١٣٣٤
ص.ب ٥١١٥/١١٤ - برقياً : الكتبكو -
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

فقه أعمال القلوب

في عصر الرسول ﷺ:

بعث الرسول ﷺ وكان الإنسان قد أخلد إلى الأرض بكل همته ومشاعره ومواهبه التي كرمه الله من أجلها، فعبد ما في الأرض، وعمل لزينة الأرض، واستعبد لما في الأرض وما على الأرض. وكانت الرسالة التي حققها الرسول ﷺ هي: «رفع همة الإنسان من التسفل إلى التسامي، أو من الزيف إلى الحقيقة». فعلم الناس أن يتوجهوا بعباداتهم إلى الله، وأن يعملوا في عمران الأرض وأمور المعاش يبتغون بذلك وجهاً من وجوه رضوان الله، فتوحد تحت لواء الإسلام كل الإنسان المسلم في الباطن الذي يقوده القلب، وإن كان في ظاهره منقسماً إلى ظاهر وباطن، ولكنه في الحقيقة كان يعتصم بحركات القلب في عمل العقيدة والعبادة القلبي، وعمل الجوارح في مظاهر العبادة وعمران الحياة على السواء.

ولقد حفل القرآن الكريم بالحث على ربط العمل بالقلب في جميع الأعمال وتخليص القلب من كل النوايا إلا نية العمل لله دون طلب جزاء ولا شكر من أحد. وكانت عناية القرآن بهذا الأصل مرتبطة بتصفية العقيدة من شوائب الشرك الجلي والخفي، فقال تعالى: ﴿... **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً**﴾. ويروي الحاكم النيسابوري أن هذه الآية نزلت حينما سأل رجل رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله إني أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يرى موطني، يعني: يريد الله بجهاده، وفي الوقت نفسه يريد أن يعرف الناس شجاعته وشدة بلائه في الحرب.

ومن هنا تقرر في الإسلام أن تحديد الإرادة من العمل يجب أن يرتبط بالعمل. فيرتبط القلب بالجوارح في العمل، وينقضي عمل الجوارح. ولكن عمل القلب يبقى حارساً أميناً على عقيدة المسلم أن تزيغ فيبطل العمل بعد انقضائه على وجه من وجوه

الصحة الشرعية. أي أن تحديد إرادة القلب بالعمل يجب أن ينطلق من الإيمان بالوحدانية التي هي صميم الإسلام وصلبه وعموده، وأن الثنائية في الإرادة كما ظهرت من استفتاء الرجل لرسول الله ﷺ هي صورة الشرك الثيرة، يتعدى خطرها إلى نفس العقيدة، فما الشرك إلا الوجه الصريح للرياء، وما الرياء إلا هدم لأصل الإيمان بالله الواحد الأحد.

ولقد أدرك رسول الله ﷺ أن علة الرياء في القلب ودوافعه إنما هي طلب عزة المال والجاه في الدنيا، فقرر أن التمكين في الأرض، ورفعة الشأن والعزة، أمور مضمونة لهذه الأمة، ومضمون دوامها إذا انطلقت أعمالها من نبع الوحدانية في العقيدة وفي مقاصد الأعمال، ويروي في هذا الصدد أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قوله: «بشر هذه الأمة بالثناء والرفعة في الدين. والتمكين في الأرض، والنصر، فمن عمل عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب». ويؤكد هذا المعنى قول الله تعالى: **﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾**. وما الإرادة إلا عمل قلبي خالص يمكن أن يواكب عمل الجوارح يوجهه نحو الحق أو نحو الضلال.

وقد أكد رسول الله ﷺ صفة الدوام لعمل القلب في رواية أبي داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: «إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً، وإن قاتلت مرائياً مكاثراً بعثك الله مرائياً مكاثراً».

فالشرك إذن لا يقتصر على عبادة الوثن أو البشر مع الله، وإنما ذاك شرك الظواهر، وهناك شرك السرائر الذي أشار إليه رسول الله ﷺ في رواية محمود بن لبيد رواها عنه ابن خزيمة وابن ماجه والبيهقي بألفاظ متقاربة إذ قال: «أيها الناس.. إياكم وشرك السرائر. قالوا: يا رسول الله، وما شرك السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلي، فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر».

ورغم ما قال بعض العلماء: من أن شرك الرياء في العمل لا في العقيدة، فإننا نرى أن شرك الرياء ينتهي إلى العجب بالأعمال، والعجب يدمر العقيدة من أساسها إذ يرى المعجب بعمله المنة منه في العمل، واستقلاله به عن عون الله تعالى مما يجعل شرك الرياء ذريعة مباشرة لشرك العقيدة، ألا ترى أن المرائي الممعن في الرياء يصل إلى حال تنعدم فيها عنده مشاعر العقيدة ووازعها، فلا يخضع إلا لهوى نفسه؟ وعابد الهوى أحط من الحيوان الأعجم كما قال تعالى: **﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾**.

ولم يغفل رسول الله ﷺ الصورة المثلى للمؤمن المخلص البريء من النفاق والرياء

فقال فيما أخرجه ابن ماجه والبيهقي والحاكم عن عمر: «اليسير من الرياء شرك. . . إن اللّٰه يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة». والغبراء المظلمة: الفتنة العمياء.

هكذا كان الرسول ﷺ على مستوى مسئوليته العظمى في تبليغ الرسالة، وفي بيان مقاصد القرآن، من فقه أعمال القلوب إلى جانب فقه أعمال الجوارح، فكما أن لأعمال الجوارح شروطاً للصحة والقبول فكذلك أعمال القلوب لها نفس الشروط في الصحة والقبول، وكان ﷺ في قمة المستويات الفكرية العالمية حين صور مستقبل العالم الإسلامي حينما يسيطر الرياء القلبي على أعمال الناس الظاهرة بالجوارح، فقال فيما أخرج الترمذي عن أبي هريرة: «يخرج في آخر الزمان رجال يختلون (يسرقون) الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول اللّٰه عز وجل: أبي يغترون أم عليّ يجترئون؟ فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم حيراناً».

وهذه الصورة ذات دلالة واضحة على أن هناك مشقة في الحفاظ على القلوب من طوارق الرياء والنفاق، وإن تسلل الرياء إليها أمر محتم إذا لم تكن هناك مذاكرة دائمة، ومراقبة صارمة، وتفتيش دقيق في كل خفقة يخفقها القلب وفي كل خاطر يساوره.

ولقد كان الصحابة رضوان اللّٰه عليهم والجيل الأول من التابعين، لا يفترون عن التذكر والتدبر، ومحاسبة النفس، وتفتيش القلب، والرقابة عليه، حتى بلغ من أمر حنظلة الأسدي أن شك في أيمانه حينما لاحظ أنه يكون في مجلس الرسول ﷺ حاضر القلب، حديد البصيرة، فإذا انقلب إلى أهله، ومارس حياته الخاصة نسي ما كان يحس به ويعانيه، فشاور أبا بكر في هذا الأمر، فأخبره أبو بكر أنه يجد مثل ما يجد، وعليهما أن يستفتيا رسول اللّٰه ﷺ، ولما ذهبا إليه طمأنهما إلى أنهما بريئان من النفاق، ولكن «ساعة وساعة»: يعني: لا بد من ترويح النفس بالمباح، حتى لا تقعد بصاحبها عن العمل.

لم يكن هناك انفصال إذن بين فقه أعمال القلوب وفقه أعمال الجوارح، بل كانت الرابطة وثيقة بينهما، والعناية بليغة بهما، ولم يكن هناك فصام في شخصية الإنسان المسلم بحيث يكون قلبه في واد وجوارحه في واد آخر، ولهذا لم تكن بالمسلمين حاجة إلى مزيد من الدراسات والتفاصيل حول أعمال القلوب، لا سيما وأن الحياة لم تكن قد أصيبت بزحام

المظاهر، وظواهر الترف، وتشابك المصالح وتعقدها، وخفاء أعمال القلوب تبعاً لهذا التعقيد في وسائل العيش.

أي إنه لم تكن هناك أمية في فقه أعمال القلوب ولا في أعمال الجوارح في عهد رسول اللَّه ﷺ، حتى يحتاج الأمر إلى ظهور طائفة تنفرد بدرس أعمال القلوب، وطائفة بدرس أعمال الجوارح، بل كان العلم فيهما مجتمعاً وصحيحاً ودقيقاً، لا يحتاج إلى مزيد. والمتتبع للسنة النبوية يستطيع أن بعد الحالات التي عرضت على رسول اللَّه ﷺ للاستفتاء في أعمال القلوب، وأغلبها كانت في خوالج تساور قلوب الغزاة والمجاهدين إذ هو الموقف الذي أبيح فيه ما لا يباح في غيره، كالتبختر بين الصفوف مثلاً.

وإلى جانب هذه الدقة البالغة في تحديد مشاعر القلوب عند العمل حتى تتفق مع مقصد الشريعة من العمل، كانت هناك دقة بالغة كذلك في الجانب الشكلي للشريعة، ورأسها قوة التمسك بالسنة، وكراهة البدعة، حتى لقد قبض عمر بن الخطاب على رافع عقب الصلاة، وذهب به إلى رسول اللَّه ﷺ، لأنه سمعه يقرأ سورة الفرقان على حرف لم يعرفه عمر عن رسول اللَّه ﷺ، وخشية أن تكون البدعة قد أطلت برأسها، لا سيما وأن الرسول ﷺ كان يحذر من البدعة وهو في حال من الإشفاق لا ينساها أحد من أهل عصره رآها أو بلغته، حتى بلغتنا فيما أخرجه مسلم عن جابر أنه كان يعلو صوته، وتحمر عيناه، ويشتد غضبه، كأنه منذر جيش وهو يقول: «أما بعد. . . فإن خير الحديث كتاب اللَّه، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، أنا أولى بكل مؤمن».

ونظراً لارتباط البدعة بعبادة الهوى، وارتباط عبادة الهوى بالنفس ثم بالقلب، فقد ارتبطت البدعة بفساد العقيدة في قوله ﷺ: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد أعظم عند اللَّه من هوى متبع». وما ذاك إلا لأن كل بدعة إنما هي داء يقضي على سنة من السنن، حتى لا تبقى إلا البدع التي أطلق العلماء على أصحابها اسم (أهل الأهواء).

بعد عصر الرسول ﷺ:

ومن دلائل نبوة رسول اللَّه ﷺ. ودلائل عظمة الأمية في شخصه: أنه كان شامل النظرة، بعيد مدى الرؤية للأحداث، صادق التقدير، حينما بدأ بما ستكون عليه الأمة من بعده، وقد مرت بنا صورة المجتمع المرائي بعد عصره كما صورها، وصدق فيها، والآن نراه يصور مجتمع المبتدعين الذين يقودهم الهوى الباطن من بعده فقال فيما أخرجه أبو داود وأحمد عن معاوية: «ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة،

وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون منها في النار، وواحدة في الجنة، وهي ما عليه الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله».

ولم يحدث في عصر الرسول ﷺ خطأ في تطبيق السنة، أو جنوح نحو البدعة إلا في حالات نادرة كانت عن حسن نية أهمها: ما أراد عثمان بن مظعون أن ينتهجه هو وعدد من أصحابه إذ عزموا على أن يجبوا مذاكيرهم، وينقطعوا للعبادة، ولكن الرسول ﷺ تداركهم، وبين لهم أنه ينام ويقوم، ويصوم ويفطر، ويتزوج النساء، وختم بيانه بقوله: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»، ومنها ما حدث من عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص من ترجيح جانب العبادة وتغليبها على شئون الحياة، حتى عدل الرسول ﷺ سلوكه، وكبح جموحه بعد نقاش بين المعلم الأعظم والتلميذ الصالح.

أما بعد الرسول ﷺ فقد عاد الناس إلى الرغبة في الانقطاع للعبادة، وابتدعوا طرائق ووسائل للأذكار الجماعية في المساجد عقب الصلوات وقد شهد الحالتين عبد اللّٰه بن مسعود، وقام على الطائفة الأولى قائلاً: «فمن للجهاد، ومن للثغور، وما أنا ببارح حتى تخرجوا»، وقال للآخرين: «إن فعلتم فقد سبقتم سبقاً بعيداً، أو فقتم أصحاب محمد علماً». وقضى على بذور الفتنة قضاء مبرماً.

ولكن قوة الأهواء كانت تابعة لقوة أهواء الحكام في الخروج عن السمت النبوي في طريقة الحكم، ومعاملة الشعوب، حتى لقد جاروا على الأحكام الشرعية الثابتة، فقد أخذ الحجاج الجزية من مسلمي خراسان بعد إسلامهم، ولم يرفعها إلا عمر بن عبد العزيز، وحدث انحراف تمثل في بيع الفضة بالفضة بيعاً متفاضلاً في عهد معاوية، وأرسل عبد الملك بن مروان إلى غضيف الثمالي فقال له: يا أبا سليمان إنا قد جمعنا الناس على أمرين؛ فقال: وما هما؟ قال: رفع الأيدي على المنابر، والقصص بعد الصبح والعصر، فقال غضيف: أما واللّٰه إنها أمثل بدعتكم عندي، ولست بمجيبكم إلى شيء منها. قال: لم؟ قال: لأني سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول: «ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة». فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة.

وإذا تتبعنا جهاد المعمرين من الصحابة كان عمر، وجابر، وسعد بن أبي وقاص، وأنس بن مالك، وغيرهم ضد البدع في كتب التراق، كالنفاق للفريابي، والزهد لابن حنبل، والزهد لأبي سعيد بن الأعرابي، والزهد لابن المبارك وغيرها مما جاء في المراجع متناثراً، لتبين لنا كيف انطمست حقائق المصطلحات الإسلامية من معانيها الحقيقية إلى معان سلبية وخطيرة على الإسلام ومسار دعوته.

الفصام في عصر المحاسبي:

وكان الصراع على الحكم، وشيوع الأهواء، والتلويح بالذهب، والشهوات الأخرى في عصر بني العباس سبباً رئيسياً في جذب الكثير من العلماء نحو الأضواء، وفي ظهور الطامعين في حكم دولة الإسلام من الحاقدين وتحكم هؤلاء الطامعون في الخليفة، وأجبروه على إذكاء نيران فتنة القول بخلق القرآن، وامتحان العلماء فيها، وجلد إمام أهل السنة أحمد بن حنبل، وأعلنت المحرمات، وعطلت الحدود إلا في الحالات التي تخدم السلطة الحاكمة وأصبحت أعمال الآخرة تقصد للدنيا، حتى لقد وضع بعض العلماء أحاديث مكذوبة على الرسول ﷺ خدمة لهوى السلطان.

وكان العصر عصر استكشاف لأبعاد الشريعة وأعماقها في صورة اجتهاد من أهل الاجتهاد لتقنين الشريعة حسب تطور الحياة، ولوضع الأصول الفقهية الني تصبح أساساً للأحكام المستقبلية التي تواجه الحياة في مراحل تطورها، واجتذاب هذا العمل الضخم طائفة من كبار العلماء العاملين السائرين على محجة الرسول ﷺ؛ والجامعين لصحة العمل في القلب والجوارح على السواء، وأخصهم أبو حنيفة والشافعي ومالك وأحمد وتلاميذهم وسفيان الثوري وعبد الله بن المبارك وأمثالهما.. ولهذا لم يكن هناك متسع أمام هؤلاء العلماء ليدونوا فقه أعمال القلوب إلى جانب فقه أعمال الجوارح.

وكان هذا الفراغ في الدراسة، والذي لم يدوّن من علمه إلا شذرات من الحكم الجامعة نطق بها الزهاد الأوائل مثل داود الطائي، والفضيل بن عياض، ووكيع بن الجراح، وأبي إسحاق الفزاري، وأمثالهم من أهل التقى والورع، كان هذا الفراغ إلى جانب الشهوات المبذولة سبباً في تدهور وعي القلوب، حتى شاع الجهل بأعمال القلوب، لولا ظهور طوائف من الزهاد اتخذوا لأنفسهم مدارس لنشر وعي القلوب، ولكنهم تكلموا في المقامات، وتشددوا في الزهد في مواجهة الترف، حتى خلف من بعدهم خلف بذلوا جهدهم في أعمال القلوب، وأهملوا أعمال الجوارح، وعالج الخلف هذا الإهمال بمخالفات صريحة للإسلام تركزت حول أداء هؤلاء الفرائض في الكعبة وهم يقيمون في بغداد، أو أن مخاطبة الملائكة والمكاشفات السرية بين العلماء وبين الله تشغلهم عما تعارف عليه العامة من عمل الجوارح، أو من التدقيق في استيفائها من الناحية الشكلية.

وباختصار: غلب على الناس الكذب في العمل والقول الأمر الذي دفع المحاسبي إلى وضع الحق في نصابه في أعمال القلوب وأعمال الجوارح على السواء لأول مرة في تاريخ الفكر الإسلامي الفسيح. فكان مدرسة متميزة تعني باستكشاف النفس الإنسانية ودراسة حركاتها، ووصف أمراضها وتحديد عناصر علاجها إلى جانب نشاطه في الفقه

الإسلامي والحديث وعلم الكلام، والرد على المعتزلة وغيرهم من الفرق في عصره من حيث كانت المدرسة الثانية للسنة بزعامة الإمام أحمد بن حنبل لا تعني بتدوين الدراسات النفسية، بل عنيت بالفقه والحديث والسلوك العملي دون زيادة على ذلك.

وإلى جانب الحركة الفقهية والحركة السلوكية، كان هناك جمع من العلماء يبحثون الأحكام الشرعية التي تحفظ المسلم من أكل الحرام بعد أن قارف المحرمات الأخرى، وقد جمع المحاسبي من هذه الآراء مجموعة تلقى ضوءاً قوياً على اضطراب العصر، وحاجته إلى تدوين قواعد السلوك الصحيح، ويقول المحاسبي في هذا الصدد: «وقد تكلم طوائف من الفرق بمذاهب في المجانبة، وصفاء المطعم والملبس، يختلفون ويتقاربون، فمنهم من اختار العزلة عن الأئمة والسلطان وأعوانهم بأعيانهم، وفرقة جانبت كل من اتصل بهم، وهذه الطائفة ركبت الغلو في الدين، وقال الحسن البصري، إن المكاسب قد فسدت، خذوا منها القوت، وقال أبو وائل: إن أهل بيت بالكوفة على مائدتهم رغيف حلال لأهل بيت غرباء، وطائفة اختارت المباح من الجبال والأودية والرمال من ورق الأثل، ولقط البذر، والحشائش التي لها ثمن إذا ادخرت، فجمعوا منها لصيفهم في شتائهم، وطائفة اختارت ما ألقته الرياح، وما ظهر من الحشيش والكلأ على وجه الأرض من كلأ الصحراء إذا اشتد بهم الجوع، وطائفة اختارت المسألة لأخذ القوت منها كما سأل موسى عند الحاجة، وطائفة بالثغر والشام اختارت أن تجمع اللقاط من وراء الحصادين، وطائفة اختارت كد اليد أو ضرب السيف (وعلى رأسهم إبراهيم بن أدهم)، وطائفة اختارت الرباط، وهم مجمعون على القتال مع كل أمير بر أو فاجر». . (المكاسب ٢١١).

وكان المحاسبي واسع الأفق. شامل النظرة، لأنه كا يربط بين منهجه في الإصلاح النفسي والشرعي القائم على الكتاب والسنة وبين استعادة دولة الإسلام مجدها الحق، فقال في صدد كلامه عن سلوك الصحابة: «قد جمعت لهم الطاعة مراداتهم فيها، على قدر الإقبال عليها، وأوضحت لهم سبل الرشاد فيها، فلم يريدوا بما أدركت أيدي الظفر منهم بدلاً. . وأصبحوا في ذلك توفيقاً من سيدهم، ومعونة قائمة بالكفاية لهم، وخفي لطيف غير منقطع عنهم، فدام لهم الحال، وزكت الأعمال، ولم يجدوا عند ذلك هوى غالباً، ولا عدواً مطالباً، أمات العلم بالله أهواءهم، وغلب لهم أعداءهم، وجمع شملهم، وأحكم أمرهم، وكان التوفيق لهم مصاحباً، وخفي اللطف من الله دائما، والتأييد من سيدهم مرشداً».

كان الخطر الوافد على صميم الإسلام في أعمال القلوب وأعمال الجوارح أقوى من جهود المدارس السلوكية التي ظهرت في مختلف الأقطار، ولهذا دون المحاسبي آراءه في

كتب، وكأنه كان يدرك أن التيار سوف يجترف العالم الإسلامي فيفرقه بين موجات الضلال الوافد.

كان يدرك أن العالم الإسلامي سوف يحتاج إلى كتب مدونة في أعمال القلوب، ولن تجديه المناقشات الشفوية، ولا الأقوال المتناثرة، وهو يقول في ذلك: «فجميع الخلق في فنون الطاعات، وتحذير الباطل في مذاهبه إذا جمع وألف كان أنشط لحفظه وتفهمه. لمن كان لا ينشط لأن يطلب علمه حتى يجمعه. وليس من تفرد بكتاب يقرؤه وحده متثبتاً فيه، لا يشغله عنه سبب يقطعه كمن نازع غيره. لأنه يعترض في المناظرة آفات كبيرة من العجب بالرأي».

لقد اشتغلت جماعات الصوفية من بعد المحاسبي في طريق امتدادها بالقول في المقامات والمواجيد والكرامات. ثم تطور الحال إلى ظهور أهل الفتوة واختلطوا بالشطار والعيارين. ثم ظهور «القلندرية» التي تطورت عن الملامستية، وأقدم من عرف من شيوخها قطب الدين حيدر التوني المتوفى عام ٦١٨ هـ. ويقال: أنه أباح لأتباعه تناول الحشيش، وأطلق عليه «مدامة حيدر». وصار ذلك من تقاليد طريقته مع تقاليد أخرى منها حلق الشعر من الوجه كله وعدم التقيد بالآداب الاجتماعية المعروفة وإهمال الواجبات الشرعية، ولبس جلود الضأن مما جعل التصوف ينزع نحو شكليات غامضة لمجرد جذب النفوس.

ثم كان تسلط التصوف النظري الذي كان هدفه في الحقيقة هو احتواء الفلسفات الأجنبية في نطاق الفكر الإسلامي، ولكن سطوة القول في الحقائق لا سيما الحقيقة المحمدية كانت هي الأخرى مصدراً لمتاعب فكرية هائلة إذ احتقر الصوفية من هذا النوع علماء الشريعة. وسموهم «علماء الأوراق» أو «علماء السطور»، وأطلقوا على أنفسهم «علماء الأذواق» أو «علماء الصدور». الأمر الذي نشأت من أجله عداوة بين الفريق، ورمى كل فريق صاحبه بالعظائم، ومضى كل في طريقه، حتى ظهر الغزالي، فحاول الربط بين فقه أعمال القلوب وفقه أعمال الجوارح في كتابه «إحياء علوم الدين» الذي يعتبر امتداداً لمؤلفات المحاسبي، وإحياء لها بعد توسيع مفاهيمها وتعميقها.

ومضى العالم الإسلامي في تجربته المريرة بعد تدهور سلطان دولته، وتغير الكثير من المفاهيم والمصطلحات الإسلامية، وراح الكثيرون من المسلمين يتلمسون علاج نفوسهم الممزقة في ظلال علم النفس المستورد، ونسوا أن تراث المحاسبي يشكل مدرسة هائلة للتحليل النفسي الناجح والدقيق لا نجد منهجها في أي مدرسة من مدارس علم النفس الحديث. الأمر الذي يجعل هذا التراث ضرورة للعالم الإسلامي في بعثه الجديد. ويقظته التي شملت أقطار العالم في العصر الحديث.

عبد القادر أحمد عطا

مقدمة الطبعة الأولى

الإمام المحاسبي ومدرسته

نشأته وعصره:

أما العصر الذي عاش فيه المحاسبي فهو إبان الدولة العباسية العربية إسماً، والفارسية أو التركية فعلاً، وأما المكان فهو ما بين البصرة وبغداد، وأما خليفة المسلمين فكان الأمين ثم المأمون، ثم المتوكل فالواثق. وأما مولده فكان بالبصرة في النصف الثامن من القرن الأول الهجري.

وكانت البصرة والكوفة ـ كما هو معلوم ـ مركزين متنافسين في العلم وشتى مجالات الفكر الأخرى، ولكل منهما مذهب تدافع عنه، وتشتهر به، حتى في مسائل الزهد والورع كما أثبته المحاسبي في كتابه «المكاسب».

وكانت حضارة الإسلام في خلافة بني العباس قد تطورت إلى «مدنية» تعني بالمظاهر الشكلية للتقدم وأسلوب الحياة المترف، ويسير فيها الانحلال الأخلاقي جنباً إلى جنب مع النهضة الثقافية، وحركة الترجمة، ومدارس العلم، وجهود المؤلفين الجبارة، وإن كان الالتزام العملي بالعلم قد أصبح قاصراً على فئة قليلة من العلماء والتلاميذ، حيث اجترفت المدينة الساحرة جمهور الباقين منهم، ممن أطلق عليهم المحاسبي اسم «علماء السوء».

لقد بلغ الانحلال الخلقي، والاستهانة بالكرامة الإنسانية مداه المتسفل في هذا العصر، حتى لقد اتخذت أم جعفر البرمكي للأمين بن الرشيد الجواري الحسان، وألبستهن ملابس الغلمان، وبعثت بهن إليه، فأبرزهن للناس من الخاصة والعامة، وأطلق عليهن اسم «الغلاميات» كما يقول المسعودي في كتابه «مروج الذهب».

ويقول الشابشتي في كتابه «الديارات»: إن «عريبا» المغنية كانت وصيفة للأمين، وكانت تلبس ملابس الغلمان، وتقف على رأسه، وتسقيه الخمر.

وكان الفسق يتطور تطوراً خطيراً حتى انتهى الأمر بالمحتسب في اللاذقية، وهو والي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن يجمع القحاب والغرباء من الفساق في حلقة كما

يقول القفطي في أخبار الحكماء، وينادي على كل واحدة منهن، ويتزايد الفسقة فيهن لليلة الواحدة ثم يؤخذن إلى الفنادق التي يسكنها الغرباء، بعد أن تأخذ كل منهن خاتماً يسمى «خاتم المطران» ليكون حجة بيدها من تعقب الوالي لها، وإذا وجد خاطىء مع خاطئة دون «خاتم المطران» عوقب.

ويذكر الجاحظ في كتاب «المعلمين» أن الأمويين كانوا يسمحون بخروج النساء مع الجند، ولكن الخراسانيين وعلى رأسهم أبو مسلم منع هذه العادة، وخرج الأجناد مع الغلمان، فتولدت عادة اللواط بين العرب لا سيما في الجيوش.

ولقد بلغت الأحوال السياسية مبلغاً مؤسفاً في ذلك العهد، إذ أن الخليفة العربي - على الرغم من مظاهر الأبهة والجلال المحيطة به - كان في حقيقة أمره أداة في يد الفرس الذين جاءوا بالعباسيين بعد انقلاب قام به أبو مسلم الخراساني. وعلى الرغم من المذبحة التي وجهها الرشيد نحو أعيان الفرس المتسلطين فقد بقي نفوذهم قوياً، وإن كان قد اتخذ طريقاً آخر ضد عقيدة الإسلام ذاتها، حيث تسلطت فلسفاتهم الإلحادية، وأرغموا المأمون على استفتاء العلماء على القول بخلق القرآن، ولكنه كان استفتاء قهرياً يراد به تقرير القول بخلق القرآن ومن ثم ينطلق المخطط نحو هدم قدسية القرآن، وإخضاعه للمشيئة الإنسانية شأنه شأن كل شيء خلق من أجل الإنسان.

لقد اشتدت هجمة الفرس على عقيدة الإسلام بقيادة قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد، وأرغموا الخليفة المتوكل بعد المأمون على ضرب المعارضين من العلماء للقول بخلق القرآن، وكان ضرب الإمام أحمد بن حنبل في الحقيقة انتصاراً معجزاً للإسلام الشامخ العتيد من جهتين:

أولاهما: أن السلاح الفكري الذي احتج به الفرس لخلق القرآن واهياً لا يثبت أمام النقاش والفحص، ولذلك كان الضرب في مجال الفكر دون الحجة والبرهان إفلاساً واضحاً وهزيمة فكرية ظاهرة.

ثانيهما: أن صمود الإمام أحمد أمام المحنة لم يكن صمود أحمد بن حنبل، بل كان صمود الإسلام الذي تغلغل في كيان أحمد بن حنبل فتكلم بلسانه، أو منحه من القوة ما يصمد به أمام الجلد والتعذيب فكان صمود الإسلام باسم أحمد بن حنبل وهزيمته لجبابرة السلطان موازياً في المسيرة لصمود الإسلام وهزيمته لمعاول الهدم الساحرة التي تعمل في ضراوة لإسقاط أصلب عقيدة عرفها التاريخ الديني والسياسي جميعاً، ولكن الهزيمة الثانية كانت لقوى الإلحاد في العالم كله وعلى المستوى الشعبي لدولة بني العباس بصفة خاصة، بقيادة كبار العلماء وأطهرهم سجية وسريرة.

وكـان الهجوم على المستـوى الشعبي ممثلاً كمـا يروي حنبـل بن إسحاق في كتـابه المخطوط «محنة أبي عبد الله بن حنبل» في أن أحمد بن أبي دؤاد بعد هزيمته أمام العلماء لجأ إلى وسيلة شيطانية يؤسس بها عقيدة خلق القرآن من جيل آخر من المسلمين، فأصدر منشوراً يلزم معلمي القرآن في «الكتاتيب» أن يقرروا على الصبيان حفظ عقيدة القول بخلق القرآن إلى جانب حفظ آيات القرآن.

ولكن صف أهل السنة كان قوياً لا تقوى عليه هذه الأوهام الوافدة على صورة ثقافات ومـذاهب ومترجمـات وبـدع وأهـواء تلقن مشـافهـة، أو تملى على طـامـع من القـراصنـة المحترفين.

وزاد من قوة أهل السنَّة انحياز المدرسة الجديدة التي تمزج بين نص السنة وروحه في أعمق مراتبها وهم العلماء الزهاد الأوائل الأبـرياء من كـل دخيل من النـظريات أو الأقـوال الموهمة المتشابهة. وكان رأس هذه المدرسة الحقيقي هو الحارث بن أسد المحاسبي الذي سبق الغزالي بمزج الفقه الإسلامي مع عنصره الروحاني والنفسي، فجاء أستاذاً فريداً في بابه، سابقاً في منهجه لم نعرف له نظيراً سبق عليه، ولا لحق بـه في مضماره كمنهـج عميق من التحليل النفسي لأول مرة في التاريخ، واستخدام هذا التحليـل النفسي في خدمـة شريعـة الإسلام لأول مرة في الفكر الديني على الإطلاق.

نشأ الحارث في بيت علم وثراء. فأبوه كان واسع الثراء، وكان معنياً بالفكر الديني، إلَّا أنه كان قدري المذهب، ولم يكن سنياً مستقيم الطريقة. ولكن الحارث على أي حـال فتح عينيه على الحياة فرأى أباه من رجال الفكر، مما كان له بالتأكيد أثره على اتجاه الحارث نحو الفكر هو الآخر، ولكن لا على وجـه التقليد الأعمى، وإنمـا كان اتجـاهه يكشف عن شخصية مستقلة، وعقل يأبى إلَّا العمل والدوران في أفلاكه حتى يرسم معالم طريقه بنفسه، ولا يرسمه له الآباء ولا العشائر.

وانتقل الأب بأسرته وفيهم الحارث إلى بغداد، وبين مدارسها، ولفظها الجدلي، ودار حكمتها، وحركتها الثقافية التي لا تهدأ، والتي كانت مداً قوياً لفتوة الإسـلام في الحقيقة، وفجأة تبدأ أول البوادر الفريدة في شخصية الحارث المحاسبي الفريد هو الآخر. فلقد اختار الولد طريق السنة معارضاً قوياً لابيه، وظهرت تلك المعارضة علانية عند «باب الـطاق» في بغداد، إذ أمسك الحارث بأبيه هناك، وجمع حوله الناس، وقال له على مسمع منهم: طلق أمي، فإنك على دين وهي على دين غيره. وذلك أن الرجل كان قدرياً، وأن ابنه كان يؤكد كفر القدرية.

لم تمنعه حشمة الأبوه عن إعلان رأيه، وإنذار أبيه، ما دام الأمر يتصل بالإسلام الذي بدأ يسري في أوصال الحارث، ليجعل منه هو الآخر صورة متحركة مجاهدة قويمة قوية الحركة والكلمة، صادقة صدق الإسلام، ونقية نقاءه، ومنصورة بنصر الله القاهر.

ملامح شخصيته:

حينما حدد الحارث الفتى اتجاهه السني الإسلامي، كان يمكن أن يكون سنياً تقليدياً كغيره من أهل السنة من العلماء: يعني بالرواية والدراية في الحديث، وينسلك في إطار مذهب من المذاهب الأربعة، وغاية ما يصل إليه أن تكون له اجتهادات مقيدة بمذهبه، أي اجتهادات في الترجيح، وليست مطلقة لا تتقيد بأفكار إمام بعينه. وكان يمكن أن يلجأ إلى حلقات بغداد فيحدد الفرع الذي يتخصص في دراسته بتوسع من بين فروع العلم السني المعروف، من الحديث أو التفسير أو الأصول أو غيرها، ثم لا شيء وراء ذلك.

ولكن الفتى الذي لم يقلد أباه، والفتى الذي أعلن كفر أبيه كما يرى دون أن يتقيد بخلاف العلماء في كفر القدرية فيلتمس لأبيه وجهاً من وجوه الإسلام على أساسه، هذا الفتى ليس هو الذي يندفع مع صف الطلاب حتى يختار مكانه من الصف دون بحث ولا فحص ولا تدقيق.

لقد خلا المحاسبي إلى نفسه زماناً طويلاً يفكر، ويقلب أمره على وجوهه، ويحاول أن يجد مكانه في صف أهل السنّة بشروط محدودة هي:

١ ـ أن يكون متفقاً تمام الاتفاق مع أفاعيل الصحابة ومسالكهم.

٢ ـ أن يكون بعيداً عن الخلاف، لأن الأمة في حاجة إلى اتفاق، وليست في حاجة إلى الخلاف.

٣ ـ أن ترتبط تعاليمه ودراساته وسلوكه بعالم الآخرة، فلا تنفصل البداية عن النهاية.

وبحث طويلاً، وانتهى به البحث إلى أن حلقات الحديث يسيطر على أهلها الإعجاب وحب الشهرة. وأن علماء الفقه يعيشون بين دوامة الخلاف، وحب الانتصار للرأي، وأن علماء الآخرة من أهل السلوك ليسوا كما يريد: من الأخفياء الأتقياء الذين يرجحون الآخرة على الأولى.

هو إذن يريد بيئة علمية ملتزمة بسلوك الصحابة، بعيدة عن الخلاف، تؤثر التواضع والخفاء، ولا تميل إلى الشهرة، وتعنى بالجوانب الروحية عنايتها بالجوانب الشرعية. وكان مطلباً عزيز المنال، طال به الزمان في البحث عنه، حتى أصيب بما يشبه أن يكون أزمة

«اكتئاب نفسي» حددها في مقدمة كتابه «الوصايا» حيث ردد قوله: «فعظم همي وغمي لفقد الأدلاء، وانطويت على نفسي».

وبعد بحث طويل اهتدى إلى من يريده مرشداً له في طريق الآخرة ممن يؤثر الخفاء، والدار الآخرة على الدار الأولى. ولكنه لم يحدد لنا اسمه، كما لم يحدد لنا شيوخه في علوم الشريعة الأخرى، اللهم إلاَّ شيوخه في الحديث حيث ذكرهم لنا في إسناد، لما رواه من الأحاديث.

ويبدو أنه درس كل العلوم التي لا تحتاج إلى السند بنفسه، دون أن ينتسب إلى شيخ معين، ولم يلجأ إلى الشيخ إلاَّ في طريق الآخرة. وهنا تتحدد شخصيته المستقلة في:

١ ـ أنه كما يقول أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود طيب الله ثراه: كان مجتهداً مطلقاً في الشريعة، لأن الوضوء كما حدد، في كتابه «فهم الصلاة» لا يتفق مع الوضوء كما حدده مذهب من المذاهب الأربعة، بل إنه تتبع أسلوب الوضوء عند الرسول ﷺ وعند أصحابه، وسجل من مجموع ذلك صورة متكاملة لا شأن لها بالصور التي حددها الأئمة الأربعة المجتهدون.

٢ ـ أنه عني بتدوين (فقه ما لم يدونه الفقهاء) في أبواب من كتبه، مثل: من أم قوماً فألزم قلبه الحذر في القراءة، وباب الشهرة، والاحتساب في سرور المسلم، ومذاهب السلف عند غلبة الحرام على المطاعم، ومذاهب الورع، وأغاليط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك من الأبواب التي أغفلها الفقهاء، ولا يدونها إلاَّ مجتهد مطلق مستقل بعلمه ومذهبه.

٣ ـ أنه نقد بشدة نفس المدرسة التي آثرها وهي المدرسة الروحية في كثير من آرائهم، ورماهم بالغلظة والجهل بالأخبار فيما يتصل بالمكاسب وبالورع، وسجل ذلك كله في كتاب المكاسب[1]، مما يؤكد أنه كان مستقلاً، لم تفن شخصيته في شخصية المدرسة التي انتسب إليها كما هو شأن الغالبية العظمى من العلماء.

٤ ـ أنه لا يعتمد على عموميات مشهورة في إصدار أحكامه، وإنما يعتمد على المشاهدة الشخصية، ومن أجل هذا عنى المحاسبي بدراسة أحوال مجتمعة بنفسه، كما يبدو ذلك واضحاً من حديثه عن الغزاة والتجار والقراء والصوفية في كتابه هذا الذي نقدمه للقراء، إذ أنه لم يصدر حكماً إلاَّ بعد مشاهدة وسماع شخصي، وهو سبق لم نعهده في الفقهاء ولا في علماء السلوك إلاَّ نادراً من بعده.

---

(١) سبق لنا نشره.

٥ ـ أن ذاته الداخلية كانت من القوة والمتانة بحيث لم يحتج إلى أن يضفي على ظاهره ما يقوي شخصيته، فلم يحفل بالشهرة لا هو ولا مدرسته بين علماء بغداد ومدارسها، وذلك على الرغم من أن اجتماع تلاميذه به في حلقة درسه كان على صورة لم تعهدها مدارس العلم، إذ كان الوقت المختار له ولهم هو: ما بعد العشاء الآخرة حتى صلاة الفجر. وهذا عمل كان يمكن استغلاله في الدعاية والشهرة، ولكنه لم يفعل لغناء ذاته الداخلية عن كل شيء إلاّ الإيمان والحب والنصح وغيرها من مقومات الشخصية السوية المستقيمة.

٦ ـ لم يكن كغيره من العلماء يحاول الانتصار لنفسه بما يشبه الحق من البراهين الملتوية، لا سيما إذا ورد عليه النقد ممن هو أنزل منه علماً أو قدراً.

قال الحارث: عملت كتاباً في المعرفة،فأعجبني، فدخل علي شاب عليه ثياب رثة،وأنا أنظر في الكتاب مستحسناً إياه،فقال لي: يا أبا عبد الله المعرفة حق للخلق على الحق، أو حق للحق على الخلق؟ قلت: حق للخلق على الحق. قال: هو أولى أن يبذلها لمستحقيها. قلت: بل حق للحق على الخلق. قال: هو أعدل من أن يظلمهم. فأخذت الكتاب وحرقته، وقلت: لا أعود أتكلم في المعرفة أبداً.

فلو أن عالماً من المحدثين حدث له ذلك لملأ الدنيا صراخاً وعويلاً لينتصر لنفسه بالباطل فضلاً عن الحق، في الوقت الذي كان فيه للحارث وجه للدفاع عن نفسه وعن كتابه، لأنه يتحدث عن المعرفة من حيث التربية والشريعة والأمر والنهي، أما الشاب فيقصد المعرفة من حيث القسمة الإلٰهية الأزلية، وهي الحقيقة، فاختلف الوجهان، وكلاهما مصيب، ولكن الحارث كما قلنا قوي في ذاته الداخلية، وليس في حاجة إلى لجاجة ولا جدال ليثبت هذه القوة، أو ليضفي على نفسه قوة زائفة من الغرور والإعجاب.

٧ ـ لم يكن عالماً متخصصاً يغلق فكره على فرع معين من فروع المعرفة، وإنما كان رجلاً متعدد المواهب، مجيداً في كل ما اقتحمه من ميادين المعرفة، فهو فقيه، محدث، أصولي، متكلم، عالم بالتحليل النفسي، خبير بالمجتمع وتحركاته الظاهرة والخفية، متطلع إلى مذاهب غيره من الفقهاء والمفكرين في أرجاء الإسلام، ناقد بصير لا سيما في قضايا الصوفية التي بدأت تختلط في عصره، ويسود أهلها في بعض أحوالهم جهل بالحديث والأخبار، وغلظة في إصدار الأحكام.

٨ ـ كان ملتزماً بكل ما يقول أو يكتب. . . فلم يكتب حرفاً إلاّ التزم به سلوكاً، ومن هنا آثر الورع يوم مات أبوه، وهو في حاجة إلى دانق كما يقول الجنيد البغدادي، فرفض ميراث

من أبيه، لأنه كان يرى كفر القدرية، وليس بين أهل ملَّتين توارث. ورغم الخلاف في كفر القدرية، ورغم عدم مسئوليته عما شاب مال أبيه من الحرام، فإنه آثر الورع، وفضَّل الجوع على أن يقبل مالاً فيه شبهة.

* * *

والغريب في أمر المحاسبي، والذي لم أستطع له تفسيراً يقوم على سند مكتوب ومأثور هو أنه نجا من محنة القول بخلق القرآن، وكان معاصراً لها، وكان رأساً من رؤوس العلم، وصاحب مدرسة كبرى يمكن أن يفيد منها القاضي أحمد بن أبي دؤاد في نحلته التي انبرى لنصرتها.

كان المحاسبي يهاجم المعتزلة وغيرها من الفرق، وكان هجومه على المعتزلة وغيرهم من أسباب الخلاف بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل، حيث كان يرى أحمد إهمال هؤلاء المارقين، ويرى الإمام المحاسبي الهجوم عليهم، وتفنيد أفكارهم، وتعريتها أمام الجمهور.

ونحلة القول بخلق القرآن كانت نحلة اعتزالية في أصلها وفرعها، وهذا عدو من أعدائها، فلماذا لم يحمل مع من حمل للمحنة، ولماذا لم يتعرض للتعذيب كما تعرض غيره من العلماء؟

ولكي نجيب على هذا التساؤل يجب أن ندرك أن غير المحاسبي من ذوي الشأن في ذلك العصر لم يتعرضوا هم الآخرون لأذى السلطان في شأن خلق القرآن، من أمثال: بشر بن الحارث الحافي، والسري السقطي وغيرهما من أصحاب مدارس التصوف. ولكن الفرق ثابت بين هؤلاء وبين المحاسبي، فلا السري ولا الحافي ولا غيرهما من رجال التصوف كانوا يهاجمون المعتزلة ويكتبون في تجريحهم الكتب، ويعقدون حلقات العلم. بل كان نشاطهم مقصوراً على السلوك، وعلى بعض روايات السنَّة... فالقول بأن المحاسبي كغيره من هؤلاء لم يكونوا موضع اهتمام السلطان في شأن المحنة قول غير مستقيم، من جهة أن المحاسبي إمام مجتهد محدث متكلم له باع طويل في تسفيه المعتزلة أفزع الإمام أحمد نفسه.

والذي نستطيع أن نقرره الآن: أنه ربما اعتمدت السلطة على النزاع الذي كان قد ثار بين أحمد وبين المحاسبي فظنت أنه لا خطر من المحاسبي... أو أنهم عرفوه بما اشتهر عنه من الصلاح، وحب الخفاء والنفور من اجتماع الناس حوله، فلم يروا في رأيه مغنماً لهم، ولا تأثيراً في الناس، ما دام الناس لا يشكلون اهتماماً للمحاسبي في حياته وهو الذي يقول: «والله لو أن نصف الخلق قد بعدوا عني ما استوحشت لبعدهم، ولو أن النصف الآخر اقترب مني ما أنست بقربهم».

كان المحاسبي معنياً بإصلاح البواطن، وكان أحمد بن حنبل معنياً بظاهر الشريعة، ومن هنا كانت فتنة خلق القرآن ألصق بظاهر العلم منها بباطنه وخفاياه، فكان أحمد مقصوداً بها، وكان المحاسبي بعيداً عنها هو وأمثاله رغم أنه رجل حديث وفقه وكلام وهجوم على كل من انحرف عن خط أهل السنة. ولكن جمهور الرواية والدراسات الفقهية جمهور عريض لا يتهيأ مثله في اتساع قاعدته للدراسات السلوكية والنفسية بأي حال من الأحوال.

محاولات لتشويه المحاسبي:

إنه داء قديم في البشر، هو أن يستظهر الإنسان برأي كبير من العلماء ليهدم عالماً آخر. . . ولكن الله تعالى إذا أراد إبطال حجة هذا الهادم المخرب أجرى على لسانه وقلمه دليل خطئه.

قال الإمام الذهبي في كتابه[1]:

«قال الحسين بن عبد الله الخرقي: سأل المروذي عما أنكر أبو عبد الله على المحاسبي فقال: قلت لأبي عبد الله: قد خرج المحاسبي إلى الكوفة وكتب الحديث فقال أنا أتوب مما أنكر علي أبو عبد الله. فقال ليس لحارث توبة، يشهدون عليه بالشيء ويجحد، إنما التوبة لمن اعترف، ثم قال: حذروا عن حارث.

«وقال أبو بكر بن حماد: إن الحارث مر به ومعه أبو حفص الخصاف. قال: فقلت له: يا أبا عبد الله تقول: إن كلام الله بصوت؟ فقال لأبي حفص: أجبه. قال أبو حفص: متى قلت: بصوت، احتجت أن تقول: بكذا، وكذا. فقال للحارث. فماذا تقول أنت؟ قال: قد أجابك أبو حفص. قال أبو عبد الله بن حنبل: أنا من ذلك اليوم أحذر عن حارث».

والعجب هنا من أمور منها:

١ ـ أن المروذي نفسه هو الذي روى في مسائله عن الإمام أحمد أنه كان يتوقف طويلاً بحكم ما ركب فيه من سليقة الورع في تجريح راوٍ من الرواة العام والعامين احتياطاً لدينه. فكيف يتوقف في تجريح راوٍ من الرواة ثم يسارع إلى إغلاق باب التوبة على مسلم قبل أن يغرغر مخالفاً بذلك رسول الله ﷺ وإجماع الأمة على أن التوبة صحيحة من أي مسلم ما دامت روحه لم تبلغ حلقومه. . . هذا مستحيل تماماً في حق الإمام أحمد ونكاد نقطع بأن هذا الخبر مكذوب عليه، لأنه يخالف ما تواتر عنه من الدين والورع والخوف

(١) انظر تاريخ الاسلام جـ ١٣ (مخطوط رقم ١٣ تاريخ بدار الكتب المصرية ورقة ٤٥ وما بعدها).

والتوقف والعلم والدراية بالسنة من جميع وجوهها.

٢ - قول الرواية عن الإمام: إن التوبة لمن أعترف قول غريب عن مسلكه وعن علمه وعن إحاطته بأحكام الشريعة والعقيدة. فالتوبة أمر بين العبد وبين ربه، ولم يشترط أحد أن تكون التوبة بعد اعتراف علني للناس بالدين، فتلك هي الفضيحة التي نهى عنها الإسلام أشد النهي، ولا نعلم شيئاً اسمه الاعتراف إلَّا في النصرانية المتأخرة. بل هو في الإسلام اعتراف العبد لربه بالذات سراً فيما بينه وبينه ثم التوبة. ومن هنا فإن هذه الرواية هي الأخرى تلحق بأختها في البطلان والتزييف على الإمام أحمد.

والعجيب أن الذهبي نفسه شك في رواية أوردها هو في تذكرته وأوردها الخطيب في تاريخ بغداد، خلاصتها أن الإمام استمع إلى المحاسبي من حيث لا يراه في بيت إسماعيل السراج أحد تلاميذه، ثم قال: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل هذا الرجل، ومع ما وصفت لك فلا أرى لك صحبتهم... وعلق عليها الذهبي بقوله: وهذه القصة صحيحة السند لا تقع على قلبي.

وإنما نفر قلبه مما فيها من تناقض لا يليق بعقل كبير مثل عقل الإمام أحمد... ومن ثم فإن قصة الاعتراف، وقصة إغلاق باب التوبة أدخل في نطاق إنكار الذهبي نفسه من هذه القصة... فإذا تناقضت الروايات على هذه الصورة تساقطت وبقي جوهرها، وهو: أن المحاسبي وأحمد بن حنبل أخوان على طريق السنّة، لا سيما وأن المحاسبي كان شديد الإنكار على أوهام الصوفية ودعاواهم أن بعضهم يصلي في أماكن متعددة، أو يخاطب الملائكة وأرواح الصالحين، إلى غير ذلك من الأوهام التي بدأت تطل برأسها في عصرهما.

مقامه في العلم والمعرفة:

وصفه أبو نعيم الأصفهاني في الحلية فقال: المشاهد المراقبي، والمساعد المصاحبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، كان لألوان الحقائق شاهداً ومراقباً، ولآثار الرسول ﷺ مساعداً ومصاحباً، وتصانيفه مدونة مسطورة، وأقواله مبوبة مشهورة، وأحواله مصححة مشهورة، كان في علم الأصول راسخاً وراجحاً، ومن الخوض في الفصول جافياً وجانحاً، وللمخالفين الزائفين قامعاً وناطحاً، للمريدين والمنيبين قابلاً وناصحاً.

«وقد كان متكلماً فقيهاً محدثاً، حدث عن يزيد بن هارون وطبقته، وروى عنه أبو العباس بن مسروق والطوسي وطبقته».

وقال عنه الخطيب البغدادي: «أدر من اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن، وله كتب كثيرة في الزهد، وفي أصول الديانات، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرهم. وكتابه في الدماء هو الذي عول عليه من بعده في شأن الدماء التي جرت بين الصحابة».

ومنزلة المحاسبي لا تقتصر على أنه كان جامعاً للعلم حافظاً له، عاملاً به فحسب، ولكنه في الحقيقة كان صاحب مدرسة متميزة يمكن وصفها بأنها مدرسة الكشف عن الدقيق عن علة الأمة الإسلامية التي كانت قد أصابتها ففرقت كلمتها، ودفعت بها بعيداً عن فطرة الإسلام التي جاد بها رسول الله ﷺ.

كان الإمام أحمد بن حنبل يجاهد في ميدان السنة وتنقيتها من الدخيل والموضوع ومن التدليس والكذب الذي انبنى عليه بعض الأحكام المغرضة.. كانت هناك أكداس... من الأحاديث الموضوعة التي وضعت تأييداً لمذاهب سياسية أو عدائية للإسلام. ويقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ٢ - ١٣٤: «أصل الكذب في أحاديث الفضائل جاء من جهة الروافض». ويقرر شريك القاضي أن الرافضة كانوا يضعون الحديث ويتخذونه ديناً. ووضعوا الأحاديث في ذم معاوية، ووضع أتباع معاوية الأحاديث في مدحه، ومن وراء أولئك الزنادقة يضعون الحديث تأصيلاً لزندقتهم، فيروون أن الله ينزل عشية عرفة يصافح الركبان، ويعانق المشاة، وأقر عبد الكريم بن أبي العوجاء بأنه وضع أربعة آلاف حديث يحل فيها الحرام ويحرم الحلال. إلى غير ذلك مما لا يسعه مقامنا هذا.

كان الإمام أحمد زعيم المدرسة السنية التي تكلفت بوضع الضوابط وفحص الأسانيد والمتون لتنقية السنة من هذا الركام المكذوب والخطير على شريعة الإسلام.

وكان المحاسبي زعيم المدرسة التي تكشف العلة التي أصابت النفس المسلمة فحولتها إلى نفس ضعيفة لا مكان فيها للوم ولا للرضا والطمأنينة وإن كان ظاهرها مطمئناً وراضياً... كان الورع في عصره نادراً، وكانت المعرفة بالأصول الإسلامية عزيزة، وكان الجهل بعلل النفوس فاشياً، وقد كشف المحاسبي عن كل ذلك في مقدمة كتابه «الوصايا» فقال:

«قد انتهى البيان إلى أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية، والله أعلم بسائرها. فلم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة، وألتمس المنهاج الواضح، والسبيل القادر وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء، وعقلت كثيراً من كلام الله عز

وجل بتأويل الفقهاء. . . ورأيت اختلافهم بحراً عميقاً غرق فيه ناس، وسلم منه عصابة قليلة. . . ورأيت كل صنف يزعم أن النجاة لمن تبعهم، وأن المهالك لمن خالفهم.

ثم رأيت الناس أصنافاً، فمنهم العالم بأمر الآخرة، لقاؤه عسير، ووجوده عزيز، ومنهم الجاهل، فالبعد منه غنيمة، ومنهم المتشبه بالعلماء، مشغوف بدنياه، مؤثر لها، ومنهم حامل علم، منسوب إلى الدين، ملتمس بعلمه التعظيم والعلو، ينال بالدين من عرض الدنيا، ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل، ومنهم متشبه بالنساك، متحرٍّ للخير، لا غناء عنده، ولا نفاد لعلمه، ولا معتمد على رأيه، ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء، مفقود الورع والتقى، ومنهم متوادون، على الهواء واقفون، وللدنيا يذلون، ورياستها يطلبون، ومنهم شياطين الإنس عن الآخرة يصدون وعلى الدنيا يتكالبون، وإلى جمعها يهرعون، وفي الاستكثار منها يرغبون، فهم في الدنيا أحياء، وفي العرف موتى، بل العرف عندهم منكر، والاستواء بين الحي والميت معروف».

«فتفقدت في الأصناف نفسي، وضقت بذلك ذرعاً، فقصدت إلى هدي المهتدين بطلب السداد والهدى، واسترشدت العلم، وأعملت الفكر، وأطلت النظر، فتبين لي من كتاب الله، وسنة نبيه وإجماع الأمة: أن اتباع الهوى يعمي عن الرشد، ويضل عن الحق، ويطيل المكث في العمى، فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي، ووقفت عند اختلاف الأمة، مرتاداً لطلب الفرقة الناجية، حذراً من الأهواء المردية؛ متحرزاً من الاقتحام قبل البيان، والتمس سبيل النجاة لمهجة نفسي».

«ثم وجدت أن سبيل النجاة في التمسك بتقوى الله، وأداء فرائضه، والورع في حلاله وحرامه، وجميع حدوده، والإخلاص لله تعالى بطاعته، والتأسي برسول الله ﷺ».

«فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء بالآثار، فرأيت اجتماعاً واختلافاً، ووجدت جميعهم متفقين على أن علم الفرائض والسنن عند العلماء بالله وأمره، الفقهاء عن الله، العاملين برضوانه، الورعين عن محارمه، المتأسين برسوله ﷺ، والمؤثرين الآخرة على الدنيا، فالتمست من بين هذه الأمة الصنف المجتمع عليهم، واقتبست من علمهم، فرأيتهم أقل من القليل، ورأيت علمهم مندرساً كما قال ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً، كما بدأ، فطوبى للغرباء». وهم المتفردون بدينهم».

«فعظمت مصيبتي لفقد الأتقياء، وخشيت بغتة الموت أن يفجأني على اضطراب من عمري، لاختلاف الأمة، وانكمشت في طلب عالم لم أجد لي من معرفته بداً، ولم أقصر في الاحتياط، ولا في النصح، فقيض لي الرؤوف الرحيم بعباده قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع، وإيثار الآخرة على الأولى».

«ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى، مجتمعين على نصح الأمة، لا يرجون أبداً في معصية، ولا يقنطون من رحمة، يرضون أبداً بالصبر على البأساء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، يحببون الله تعالى إلى العبيد بذكر أياديه وإحسانه، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى علماً بعظمة الله تعالى، علماء بعظيم قدرته، وعلماء بكتابه وسنته، فقهاء في دينه، علماء بما يحب ويكره، ورعين عن البدع والأهواء تاركين للتعمق والإغلاء، مبغضين للجدال والمراء، متورعين عن الاغتياب والظلم، مخالفين لأهوائهم، محاسبين لأنفسهم، مالكين لجوارحهم، ورعين في مطاعمهم وملابسهم وجميع أحوالهم، متقللين من المباح، زاهدين في الحلال، مشفقين من الحساب، وجلين من المداد، مزرين على أنفسهم من دون غيرهم: لكل امرىء منهم شأن يغنيه، علماء بأمر الآخرة، وأقاويل القيامة، وجزيل الثواب، وأليم العقاب، وذلك أورثهم الحزن الدائم، والهم المقيم، فشغلوا عن نعيم الدنيا ونديمها».

«ولقد وصفوا من آداب الدين صفات، وحدَّدوا للورع حدوداً ضاق لها صدري، وعلمت أن آداب الدين، وصدق الورع بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهي، ولا يقوم بحدود مثلي، فتبين إلي فضلهم، واتضح لي نصحهم، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة، والمتأسون بالمرسلين، فأصبحت راغباً في مذهبهم، مقتبساً من فوائدهم، محباً لطاعتهم. لا أعدل بهم سبباً، ولا اؤثر عليهم أحداً».

* * *

في هذه الوثيقة الخطيرة يؤرخ المحاسبي للحركة الدينية في عصره على غير ما أرخ لها المؤرخون التقليديون الذين يمكن أن نسميهم بمؤرخي الحكومات. أولئك المؤرخون الذين يثبتون في سجلات التاريخ ما يشرح صدور الحكام وإن كان يشيع القتام في سماء الإسلام.

فعلى الرغم من أن التاريخ التقليدي يشيد بالنهضة العلمية في عصر المحاسبي فإن المحاسبي يتتبع أصناف علماء الإسلام بالفحص والنقد، حتى يصل إلى أن العلماء الذين يصلون الحياة الدنيا بالدار الآخرة، ويوقنون بكل غيب غير مدرك بالحواس يقيناً يضع ذلك الغيب موضع المشاهدة المنظور القريب، ويحول القلوب إلى نبض من الخوف والرجاء والالتزام بالقلوب والجوارح لا إلتزاماً حرفياً خالياً من روح الحياة التي يبثها القلب في الحركات والأعمال وهذا النوع من العلماء كان أقل من القليل في عصر المحاسبي، فما بالنا وفيما بعد عصره.

كان العلماء يتزاحمون على أبواب السلاطين، ولكن القليل منهم هم الذين كانوا

ينأون عنهم، ويحذرون من مجالسهم . . . فالإمام أحمد أغلق باباً كان بينه وبين ابنه صالح، لأنه قبل عطاء من السلطان، وعلى فراش الموت لا يجد ما يكمل به كفارة يمين فيتقاضاها من أجر قليل لعقار كان يعيش منه. والمحاسبي يصيبه الضر من الجوع ويرفض ميراثه من أبيه ورعاً لأنه كان قدري المذهب. . . ولكن أمثالها لم يكونوا كثرة تتوازن مع أعداد العلماء في ذلك العصر، بل كانوا قلة بحث عنها المحاسبي جهده، ووصفهم بوصف يأباه الكثير من العلماء وهو أنهم كانوا من أهل خمول الذكر، وأهل الخفاء. أي من الذين يكرهون الشهرة والأضواء، ويعشقون العمل في خفاء وكتمان.

كانت الرءوس قد فسدت ففسد الشعب، وكان على العلماء أن يشخصوا المرض ويصفوا العلاج وكان تشخيص المرض يحتاج إلى خبرة نفسية هائلة، لأن الناس كانوا قد أصيبوا بحالة من «الأرق الفكري». أي إن هناك السمت الإسلامي، والعمل غير الإسلامي. وهناك اللسان اللهج المجادل المناقش في قضايا الإسلام، والخواطر الشيطانية المعارضة لنقاء الإسلام. . . وكان المحاسبي فيما يبدو لنا هاويا للتحليل النفسي، والكشف عن العقد وحلها على ضوء الإسلام النقي القائم على الكتاب والسنّة وسير الخلفاء الراشدين.

يروي الجنيد البغدادي أن المحاسبي كان يخرجه من بيته إلى الصحراء ثم يقول له: سلني عما لقيت من نفسك، فيسأله والحارث يجيب، ثم يمضي الحارث إلى بيته فيسجل تلك المناقشات، ويصنع منها كتباً.

فهو يكشف عن حاجات النفوس من واقع مطالبها، ولا يفرض على المجتمع رأياً ولا فكراً بعيداً عن حاجاته. . . والذي صنعه مع الجنيد البغدادي صنعه مع غيره، بل إن المصادر تروي أنه كان يجتمع بتلاميذه ليلاً بعد صلاة العشاء، فلا يبدأهم بحديث حتى يسألوه فيرد على أسئلتهم إلى صلاة الفجر. . . ومن هنا فقد وفى المحاسبي بحاجات عصره، على العكس من كتابنا ومفكرينا اليوم الذين ملأوا الدنيا كتباً وما زال الشباب حائراً لا يدري من طريقه درباً من حفرة، وما ذاك إلّا لأنه فكر مفروض، لم يتحر فيه كاتبوه أن يكون صورة واقعية لمصادر الحيرة في عقول الناس.

والمحاسبي يعود إلى الإسلام الأول الذي كان عليه الصحابة، ذلك السلوك الذي كان نابعاً من ربط الحياة الدنيا بالآخرة ربطاً وثيقاً، باعتبار الآخرة حافزاً أساسيا على الالتزام قلباً وقالباً بأخلاق الإسلام. أما أن تنفصل الآخرة عن الدنيا فهذا هو أصل الداء الذي عانى منه مجتمع الإسلام منذ عصر المحاسبي، حيث كانت الدنيا وحدها هي الحافز على غيرها لدى

السواد الأعظم من الناس الذين لا يجدون مرشداً ولا راعياً أميناً يردهم عن الشتات إلى مجتمع الجسد الواحد.

كان هذا الداء قد أعضل حتى لم تُجد في علاجه حلقات الفقه ولا مجالس الحديث ومصطلحاته: لأن هذا الداء في الحقيقة كان قد انتشر على صورة وبائية لا تفرق بين عالم وجاهل، ولكن إصابة العلماء به كانت خطراً ما بعده من خطر. ولنستمع إلى المحاسبي يقرر الواقع في مجتمعه فيقول عن العلماء:

«... فإن علا في الناس أمرهم، واضطرب الصوت بهم، وحمد بعض شأنهم، ووصلت النفوس إلى أمنيتها من اضطراب الصوت، وعلو الذكر، وكادت النفوس تستصغر من ليس من شأنهم، وتستجهل من جهل علمهم، وتزدري بمثل من لم يكن في أحوالهم، فقد دُهُوا وما يشعرون».

«وبعد، فإن قديم الحيل تستقبل لهم ما قد دهاهم به، فيجد لهم مكائد موبقات، وعساه يأتي الكبير منهم كهيئة الناصح له، فيخطر بقلبه: أنك قد أوتيت حظاً من العلم، فما لك والشهرة، والتعرض للفتنة، شأنك والعمل بما قد علمت. ويحه، لقد دهاه وعرضه للهلاك وما يشعر».

«فعند ذلك ينفرد بعصابة من أكابرهم اتبعوه من أصاغرهم، واعتزل إعجاباً بما وصل إليه من العلم والعبادة، وما يشعر بإعجابه، ولا يشك أن الصواب في اعتزاله[1] في قوله وفعله، ولا يعلم ما قد دهي به، فحينئذ يخالف الشيطان بين أهوائهم، ويفرق شملهم، ويشتت جمعهم ويجعلهم أحزاباً، ويزين عند كل صنف منهم شأنه، ويعيب عندهم أحوال من يخالفهم، فأغوى بعضهم ببعض، ودل بعضهم على عثرات بعض، ولقن بعضهم حججاً على بعض كهيئة الناصح لهم، فيكيد جمعهم بمكائده وما يشعرون».

«وعسى القوم يبدون ما في النفوس، ويطلبون العثرات، ويظهرون العيوب، ويتفكهون بالغيبة، ويقولون الزور، ويترامون بالبهتان، ويشهد بعضهم على بعض بالعظائم، وينسبه إلى الكفر والضلال، أعاذنا الله وإياكم مما حل بهم».

وأفاض المحاسبي طويلاً في أسرار هذا الصدع الذي أصاب مجتمع الإسلام في شخص علمائه، معرضاً بالمعتزلة الذين ينطبق نقده عليهم تمام الانطباق. فهم الذين انشقوا إعجاباً بأنفسهم، وهم الذين كفر بعضهم بعضاً، حتى ألف: المرداد، والجبائي، وجعفر بن حرب، من رؤساء الاعتزال كتاباً في تكفير أبي الهذيل العلاف، وكشف فضائحه التي تعتبر بحق ثلماً في حصن الإسلام المنيع.

---

(١) لعله يعرض بما فعله واصل بن عطاء زعيم المعتزلة. فقد كان المؤلف شديد الإنكار عليهم.

ومن أعجب العجيب أن دعاة التحرر الفكري المشبوه من رجال العلم الرسميين في العصر الحاضر ما زالوا يشيدون بفضل المعتزلة على الفكر الإسلامي - بزعمهم - ويحثون الطلاّب على توجيه بحوثهم الجامعية نحو تلك الفرقة الضالة، وكأنهم لم يقرأوا - لا نقول كتاباً مخطوطا بعيداً عن متناول الأيدي - بل لم يقرأوا كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي، الذي سرد من فضائحهم ما كان يجب أن يكون إنذاراً لهؤلاء الذين يدعون إلى الحرية الفكرية بمعناها الأوروبي والشيوعي الذي لا ينطلق إلا على درب التخريب ولا يلوي على شيء.

لا أدري ماذا يقول المشرفون على الرسائل الجامعية عن أبي إسحاق النظام - وهو الذي كتبت فيه الرسائل المتعددة - وهم يطالعون فضائحه إن كانوا طالعوها، وهو من رؤوس الاعتزال. كان هذا الخبيث يقول: إن أبا هريرة أكذب الناس، وإن عمر شك في دينه يوم الحديبية، وضرب فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وابتدع صلاة التراويح، وسفه علي بن أبي طالب لأنه قال في مسألة برأيه، وعاب ابن مسعود، وكذبه في حديث انشقاق القمر، ورؤية الجن ليلة الجن، إلى آخر تلك الفضائح الموبقات التي ألمح إليها المحاسبي في إيجاز وورع كان يقتضيه عصره.

ونعود إلى شيخنا المحاسبي فنقول: إنه كشف أصل الداء، ووصل إلى أن الهوى هو نبعه ومصدره، وأن الهوى قد استحكم حتى أصبح أصلاً للكثير من أمراض النفس كالرياء والعجب، والوقوف عند الدنيا، وفصل شطر الحياة وهو الدار الآخرة عن أولها وهو الدنيا، وفساد النوايا، والجهل بالسنن، وهي المواضيع التي لم يُعن بها لا رجال الحديث ولا رجال الفقه ولا رجال التفسير والأخبار، لسبب نعتقد أنه الصواب إن شاء الله، وهو: أن المخلصين منهم كانوا ينؤون تحت حمل ثقيل من فحص أسانيد الحديث، ووضع قواعد مصطلحه، وجمع رواياته، ووضع أصول الفقه، وتسجيل مسائله، وهي تبعات لا تدع وقتاً لبحث المسائل النفسية التي جدت في المجتمع. أما غير المخلصين منهم فهم في عداد العامة المحتاجين إلى العلاج، الهائمين بما يموج في العصر من الفتن وطرق الانحلال.

كان المحاسبي بداية الإرشاد القائم على التحليل النفسي الدقيق، والوصول إلى العقدة وكشفها، وهو قصارى ما وصل إليه الطب النفسي الحديث، مما يجعلنا نقرر بحق أن المحاسبي هو رائد علم النفس الإسلامي الذي يغني عن علم النفس المستورد عند من له أدنى قدر من صحة تركيب العقل.

كان المحاسبي ميزاناً دقيقاً كل الدقة لقلب المؤمن، فلا يقصر به حتى يصل الهوى

إلى سويدائه، ولا ينطلق به انطلاق المتصوفين النظريين والموهومين، فهذا وذاك تطرف ليس من الوسط الذي قامت عليه أمة الإسلام.

ولعل هذا الموقف المتزن هو الذي دعا هذه الصوفية إلى هجران تراث المحاسبي في الوقت الذي كان يجب عليهم فيه أن يلتفوا حوله في صدق وإخلاص، حتى يعودوا إلى الوسط إن كانوا صادقين حقاً في أنهم من دعاة الإسلام... ولكن المحاسبي حين عنف بشدة من يدعون أنهم يكونون في مكان ويُصلُّون في غيره، وأنهم يخاطبون الأرواح، ويرون الملائكة، ويدعون إلى الإنقطاع عن الحياة في الخلوات، حين فعل ذلك لم تتجه إليه أهواء رجال التصوف المتأخرين، ولم يعنَ به رجال الطب النفسي المحدثين، وآثروا عليه «سيجمون فرويد» اليهودي المخرب الذي يعلي من شأن الغريزة فيجعلها أساساً لكل تفوق إنساني على الإطلاق.

المحاسبي بين البداية والنهاية:

والمحاسبي تختلف بدايته عن نهايته. ففي مطلع شبابه كتب «الوصايا» وكان فيه متشدداً غاية الشدة، حتى كاد يكره حيازة المال على أي صورة من الصور... واحتج احتجاجات طويلة ضد من يبيحون حيازة الأموال، وفرق بينهم وبين الصحابة ممن كانوا يملكون الأموال بحقها. وأفاض في هذا القول حتى كاد أن يكون صورة مطابقة لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه. ولعل الظروف المتشابهة في بيئة المحاسبي وبيئة أبي ذر هي التي دفعته إلى سلوك هذا المنهج.

ولكنه بعد أن استقر به الحال عاد يقول: إن الزهد ليس في إهدار الملكية الفردية، ولكنه عمل قلبي تصدقه اليد. فكم من فقير حريص، وكم من غني زاهد.

وفي باب المدح والذم وقبول الإنسان للمدح، ونفرته من الذم نجده في الوصايا يشقق القول حتى لا يرى إنسان أنه ناج من الخلل، ولكنه في نهاياته وضع الضوابط الدقيقة، وفرق بين قلب يأنس بالمدح وينفر من الذم، وبين قلب يستوي عنده هذا أو ذاك.

وهكذا في جميع فروع السلوك التي تعرض لها المحاسبي نجد اندفاع الشباب في البداية، واتزان الشيوخ في النهاية، فجزاه الله عن الإسلام خير الجزاء.

كتاب آداب النفوس

هذا الكتاب من مخطوطات مكتبة جار الله بتركيا، وهو مصور منها، وتوجد منه صورة في مكتبة جامعة القاهرة رقم (٢٦٠٤٨). وصورة مثلها مأخوذة منها بـالمكتبة الأزهـرية. ومنـه نسخـة أخرى من المكتبـة الأهلية ببـاريس، ومنهـا صـورة في دار الكتب المصـريـة، رقم (٤٠٦٤) تصوف.

والنسخة الأم في هذه المطبوعة هي نسخة جامعة القـاهرة وأختهـا نسخة الأزهـرية. وهي من خمسين لوحة، كل لوحة صحيفتان. . . ومكتوبة بخط نسخي جيد، وكل صحيفة تتكون من خمسة وعشرين سطراً.

وهو ضمن مجموعة من تراث المحاسبي قد أخرجنا الكثير منها بعنوان «أعمال القلوب والجوارح» وعلى وجه الأولى ختم كتب عليه «وقف على أبي عبد الله ولي الدين جار الله سنة ١١٣٩ هـ». وفي أعلى الصفحـة كتب «من كتب رستم أحمـد محمـود الشـرواني». وفي أسفلها قريباً من وسطها مكتوب «علي بن رستم الشرواني رحمه الله». وقد نسخت النسخة في القرن السادس الهجري كما هو ثابت في نهايته وليس عليها اسم الناسخ.

أهمية الكتاب:

في هذا العصر الـذي نعيش فيه ينشط الشبـاب من الجنسين نحو الإسـلام نشـاطاً محموداً مباركـاً إن شاء الله، ويتـزايد المقبلون على الإسـلام في صورة تـدعو إلى البهجـة والارتياح والتفاؤل والشباب بطبيعته في حاجة إلى الرعاية والإرشاد، فلا يستطيع إنسـان أن يقول: إن ابن العشرين إلى الثلاثين مثلاً قد نضجت ثقافته الإسلامية على جادتها الصحيحة إلَّا إن كان قد استحكم به هواه فسوَّغ له أنه كذلك.

ولم يجـد الشباب بين العلمـاء من يفتح لـه صدره وبيتـه، ولا من يسعى إليـه منهم احتساباً لوجه الله والحق بل وجد في الكثير من العلماء الرسميين صدوداً وكبراً واستعلاء كان

له رد فعل عكسي في نفوس الشباب، وكانت هناك فجوة بين الشباب وحملة العلم الذين تباينت أهواؤهم هم الآخرون، وكل حزب منهم يريد أن يفرض أفكاره على هذا النبات الجديد، وإلَّا فهو شباب ضال، حتى تناول المثقفون الرسميون بناتنا الفضيلات بصفات هن بريئات منها، إلى التهكم اللئيم بالحجاب الإسلامي الذي زان البنات ووضعهن موضع التقدير والهيبة حتى في عيون الفاسقين بعدما كن نهباً للعيون والخيال المريض.

وكانت الحيرة التي يشكو منها العلماء تلف الشباب بآلامها وضراوتها، وكان عجز العلماء عن إرشادهم نابعاً من فقدان وسيلة الإرشاد الصحيح في الغالب. . . وعادت صورة المحاسبي في شبابه في ملايين الشباب: حيرة، واضطراب، وندرة في المرشدين الأبرياء من الهوى.

واتجه بعض الشباب إلى كتابات المحدثين يتخذونها منهجاً، ولكن الكثيرين منهم اتجه إلى تراث السلف الصالح في نهم وشوق، وكانت تلك بادرة خير وجهت شبابنا نحو النبع الأول.

كانت هذه الظاهرة بادرة خير وبركة، وكانت المصادر التي ينهل منها شبابنا ـ لحسن الطالع ـ متجهة في أغلبها نحو العقيدة، والعقيدة هي الأساس الذي يقوم عليه البناء، ولكنهم ما زالوا بحاجة ملحة إلى شطر الإسلام وهو: الإحسان. ذلك الشطر الذي ما زال في زوايا النسيان، مع أنه في الحقيقة قوام القبول عند الله. فالأعمال لها صورة شرعية هي إتقان حركاتها على الصورة التي أهدتنا إليها السنة، ولها حقيقة شرعية هي الإحسان. وخلاصته «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». أي مراقبة الله تعالى وذكره بالقلب عند كل عمل وكل حركة وكل سكنة. والشطر الأول به تصح الأعمال، والشطر الثاني به تقبل الأعمال، فإن لم يكن مستوفياً لشرط القبول وهو الإحسان فهو مهدر الفائدة والجزاء، ولك أن تتصور عملاً بلا جزاء ولا ثمرة.

والذي يفسد الإحسان هو النفس وهواها وخداعها وهوايتها في السيطرة على القلب ومتى سيطرت النفس بهواها على القلب فسد العمل، وأهدرت ثمرته، وأصبح صورة بلا روح، وشجرة بلا ثمر.

وليست الرقابة على النفس والقلب أمراً سهلاً يدعيه كل إنسان، وإنما هو عمل دقيق من أعمال القلوب يحتاج إلى درس وتأمل وتجربة طويلة حتى يصبح ملكة من الملكات لا يجد المؤمن فيه عناء ولا مشقة كما لا يجد عناء في التنفس.

هذا هو المراد من المسلم. . . وهذا هو منهج الرسول ﷺ مع أصحابه، وما الخوف

المزعج الذي كان يسيطر على الصحابة، وما الورع الشديد الذي كانوا يدينون به، وما مسارعتهم إلى الشهادة والسنّة.

والمؤمن غير المحسن في الحقيقة لا يجني ثمرات الإيمان. . . . وعامة شُعب الإيمان من باب الإحسان هذا، وثمرات الإحسان كما هو معروف هي عون الله الشامل للمحسنين، وحمايتهم من كل شر، وقد جاء القرآن بذلك حين قرر أن العشرين يغلبوا مائتين، وهو نصر لا يقاس بالمقاييس النفسية الحديثة على أي مستوى من مستويات العسكرية العالمية إلّا إن كانت هناك عناية الله التي لا يمكن أن تكون إلّا مع الإحسان (إن الله يحب المحسنين).

كان أسيد بن حضير رضي الله عنه يقرأ القرآن فيرى في السماء مثل الظلة فيها أمثال المصابيح وكانت فرسه تجول حين تراها حتى خشي أن تطأ ولده يحيى، فلما قص حاله على رسول الله ﷺ قال له: «اقرأ أسيد، تلك الملائكة دنت لقراءتك، ولو قرأت لأصبحت تراها في الطرقات».

ورأى رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقرأ في صلاته فوقف عنده وقال: «سل تعطه».

والذين قرأوا فاتحة الكتاب على من لدغته الحية فبرأ من السم وأقرهم الرسول ﷺ على ما أخذوا من هديه.

كل ذلك وأمثاله من آثار الإحسان. فكم من قارىء للقرآن لا يرى ولا يسمع شيئاً إلّا صوت نفسه وجودة قراءته وخوفه من أن يقال: إنه غير مجيد كما يقول المحاسبي. ولم ير أسيد بن حضير ظلة الملائكة إلّا لأن هناك شعاعاً وصل من قلبه إلى ما وراء عالم المادة فاستنزل أطهر الأرواح لتسمع قراءته، وهذه قمة الإحسان. وما استحقاق ابن مسعود لإجابة الدعوة إلّا لأنه انخلع في صلاته عن كثافة البشرية إلى لطافة الروحية الخالصة، وما قراءة الصحابة الفاتحة على اللديغ مثل قراءتنا لها، وإن شئتم فهاتوا مائة يقرأون الفاتحة على مسموم وانظروا ماذا يكون.

الإحسان ومناهجه هو ما في هذا الكتاب. فقد تعرض المحاسبي فيه لقضايا خافية على العلماء وعلى الطلاب جميعاً ومنها:

١ ـ علاج المشكلات من أصولها، لأن الأصل يأتي على الفروع، أما علاجها من فروعها، فإن الغصن كلما جف أخلف بدله غصناً آخر.

٢ ـ وجوب تطهير النفس من خلائق السوء قبل عمل البر من النوافل، لأن الخير إذا

خالط الشر أصبح شراً كله، والإنسان مطالب بترك الشر كله، وليس مطالباً بفعل الخير كله.

٣ ـ وجوب الفرق بين العدل والفضل. أي بين الفرض والنافلة، واتباع الأولى في كل حال.

٤ ـ أكثر ما في الحياة بلاء واختبار للإنسان، وليس ترفاً ومرحاً يلهو به الإنسان ولا بد من الاعتبار والنظر الدقيق عند النعم حتى يمكن القيام بحق الشكر.

٥ ـ الكشف عن عقد النفس وقوامها حب الدنيا وعشقها واتخاذها غاية، والفصل بين الآخرة والدنيا.

٦ ـ جماع الإيمان كله في ذكر الآخرة والمعاد والموت وما بعده، فهذه سنة الرسول ﷺ ومنهج القرآن. وهو علاج للكثير من أمراض النفس والقلب.

٧ ـ اختصار الكتاب ووفاؤه بكل ما يحتاج إليه المسلم يغني عن المطولات التي يتوه فيها الإنسان فلا يحصل على ما يريد إلّا بعد عناء طويل.

منهج التحقيق:

١ ـ بعد نسخ الكتاب قابلناه على نسخة المكتبة الأهلية بباريس، ورمزنا لنسخة جامعة القاهرة بحرف «أ» وللنسخة الأخرى بحرف «ب». وأثبتنا الفروق أسفل الصحيفة في الهامش، وما رجحناه أبقيناه في صلب الكتاب.

٢ ـ تفادياً للاضطراب الذي حدث من الناسخ أضفنا بعض الكلمات لتوضيح المعنى وجعلناها بين علامتين هكذا [ ].

٣ ـ ساق المؤلف كتابه نسقاً واحداً دون عناوين، ففصلنا بين كل موضوع وموضوع بعنوان، وجعلنا في بعض المواضيع عناوين جانبية. فجميع العناوين التي في هذا الكتاب ليست من أصله.

٤ ـ خرَّجنا آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية وعرَّفنا بالأعلام.

٥ ـ شرحنا بعض العبارات التي قد تخفى على بعض القراء، كما أشرنا إلى نظائر الآراء من تراث المحاسبي نفسه أو من تراث غيره ممن يتفق مع مذهبه.

٦ ـ قدمنا للكتاب بدراسة عن حياة المحاسبي وأهمية الكتاب، وأهمية هذا الفرع من المعارف الإسلامية التي لا يستغني عنها مسلم.

والله ولي التوفيق، والهادي إلى أقوم طريق.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

عبد القادر أحمد عطا

معاملة الله

دلائل معرفة الله:

روي عن بعض الحكماء أنه قال:

أوصيك ونفسي، ومن سمع كلامي، بتقوى الله الذي خلق العباد، وإليه المعاد، وبه السداد والرشاد.

فاتقه يا أخي تقْوى من قد عرف قرب الله منه، وقدرته عليه.

وآمِنْ به إيمان مَنْ قد أقرَّ له بالوحدانية والفردانية والأزلية، لما ظهر من مشاهدة ملكوته، وشواهد سلطانه، وكثرة الدلائل عليه، والآيات التي تدل على ربوبيته، ونفاذ مشيئته، وإحكام صنعته، وبيان قدرته على جميع خلقه، وحسن تدبيره. ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

وثق به يا أخي ثقة من قد حَسُن ظنه به، وقلَّت تُهمته له، وصدَّق بوعده، ووثق بضمانه، وسكن قلبه ـ عن الاضطراب ـ إلى وعده[1]، وعظم وعيده في قلبه.

واشكرهِ يا أخي شكر من قد عرف فضله، وكَثُرَت أياديه عنده، وبِرُّه به.

وتعرَّف نِعَمه الظاهرة والباطنة، الخاصة منها والعامة، وأخلصْ له إخلاص من قد عرف أنه لا يَقْبَل له عملاً إلاّ بعد تخليصه من الآفات، وإخلاصه لله لا شريك له، ولا يشرك في عمله أحداً سواه.

واعلم يا أخي، أن إشراك المخلوقين في العمل: أن يتزيَّن لهم العبد في مواطن الامتحان[2]، فيكذب في عمله، أو يرائي لِيُكرمَ، ويُعظم لجميل قوله، ومحاسن ما يظهر من عمله، وهو يعرف ذلك من نفسه، أو يجهله منها.

ولا يسلم يا أخي من شره إلاَّ من هرب من مواطنه[3]، وعمل وهو لا يحب أن يطلع له مخلوق على عمل، وإن اطلع له مخلوق على عمل وهو لا يحب اطلاعه، فمن صدقه: ألا

---

(١) الوعد يكون في الثواب، والوعيد يكون في العقاب.

(٢) مواطن الامتحان. . . هي: امتحان العبد بالاخلاص في العمل لله وحده. فإن تزين العبد للمخلوقين في هذه المواطن فقد اشرك مع الله غيره في العمل. وسيتكرر الكلام في هذه القضية في هذا الكتاب.

(٣) يعني: هرب من المواطن التي يمكن أن يطلع الناس فيها على عمله، وهرب من وسواس نفسه الذي يوسوس له بالاعجاب بالعمل، أو بذكره أمام الناس بعد ما تم على الإخلاص، قارن بما في الوصايا ص ٦٩ وما بعدها.

يجب أن يحمده ذلك المخلوق على ما اطلع عليه من عمله. وإن حمده (أحد)[1] وهو لا يحب حمده فلا يسرّ بحمده[2] له على عمله، فإن سره فلا يسرَّن لمعنى الدنيا بسبب من الأسباب.

ثم أصدق يا أخي في قولك وفعلك، صدق من قد عرف أن الله مطلع على دخيلة أمره، وسره وعلانيته، وما طوى عليه ضميره.

وتوكل عليه يا أخي توكل من قد وثق بوعده، واطمأن إلى ضمانه، ثقة منه بوفائه، ورضا منه بقضائه، واستسلاماً منه لأمره، وإيماناً بقدره[3]، ويقيناً صادقاً منه بجنته وناره.

وخَفْه يا أخي خوف من قد عرف سطوته، وشدة نقمته، وأليم عذابه، ومُثْلَته[4] وآثاره ووقائعه لمن خالف أمره وعصاه.

وتعرف يا أخي: أنه لا تمسُّك[5] لأحد خذله، ولا صنيعة على أحد وفّقه وسدده، وحاطه وحفظه، وأنه لا صبر لأحد على عقوبته ونكاله، وتغير نِعَمه.

وارْجُه يا أخي رجاء من قد صدَّق بوعده، وعاين ثوابه.

واشكره يا أخي شكر من قد قَبِل منه محاسنه، وأصلح عمله، وحباه من مزيد أياديه، وأناله من مزيد كراماته ما لم يستأهله بعمله.

واسْتَحْيِهِ يا أخي حياء من قد تعرَّف كثرة تفضّله، وجزيل مواهبه، وعرف من نفسه التقصيرَ في شكره، وقلة الوفاء منه بعهده، والعجزَ عن القيام بأداء (ما)[6] لزمه من حقه، ثم لا يتعرفُ من خالقه إلاَّ جميل سَتْره، وعظيم العافية، وتتابع النعم، ودوام الإحسان إليه، وعظيم الحلم والصفح عنه.

ثم إعلم يا أخي أن الله جل ذكره قد افترض فرائض ظاهرة وباطنة[7]، وشرع لك شرائع، دلك عليها، وأمرك بها، ووعدك على حسن أدائها جزيل الثواب، وأوعدك على

(١) سقطت من ا.

(٢) في الأصول (ولا يسر بحمده). وما أثبتناه أوضح.

(٣) صلة التوكل بالقضاء والقدر واضحة، خلاصتها: إن مالك لا يخطئك، وما ليس لك لن يصيبك.

(٤) المثلة: هتك حرمة الجسد من العذاب. وآثاره ووقائعه هي: بقايا الأمم التي بادت بالعذاب مثل مساكن ثمود «مدائن صالح» بالحجر. والباقية الى الآن.

(٥) لا تمسك لأحد خذله. أي: لا مهرب له ولا عون من قهر الله.

(٦) سقطت من ب.

(٧) الفرائض الظاهرة معروفة. والفرائض الباطنة: مثل إرادة الله بالعمل. والإيمان بالقدر. وبالوحدانية لله. ابتداء من توحيد الصفات، الى توحيد الأفعال، الى توحيدالذات. .وأشباه ذلك.

تضييعها أليم العقاب، رحمة لك، وحذرك نفسه شفقة منه عليك.

فقُم يا أخي بفرائضه، والزَمْ شرائعه، ووافِقْ سنة نبيه ﷺ، واتّبع آثار أصحاب نبيه، والزَمْ سيرتهم، وتأدَّب بآدابهم، واسلُك طريقهم، واهْتَدِ بهُداهم، وتوسّلْ إلى الله بحبهم، وحب من أحبهم، فهم الذين أنابوا إليه، وقصدوا قصده، واختارهم لصحبة نبيه، فجعلهم له أحباباً وأخداناً.

* * *

حقيقة التوسل بحب الصالحين[1]:

واعلم يا أخي: أن علامة حبك إياهم: لزومك محَجَّتهم[2]، مع استقامة قلبك، وصحة عملك، وصدق لسانك، وحسن سريرتك لأمر دنياك وآخرتك، كما كان القوم في هذه الأحوال. فهذا يحقّق منك صدق دعواك لحبهم، والتمسك بسُنّتهم.

فإذا صحت فيك ومنك هذه الخلال كصحتها منهم وفيهم، كنت صادقاً في حب القوم، وحسن الاتباع لهم.

وإن كنت مدعياً لحبهم، وأنت مخالف لأفاعيلهم، عادل عن سبيل الاستقامة لطريق المحجة التي كانوا عليها، فأنت مائل إلى موافقة هواك، عادل عن مسيرتهم، ولست بصادق في دعواك.

فلا تجمعنّ على نفسك الخلاف لمحجتهم[3]، والدعوى أنك على سبيلهم، فمتى فعلت ذلك صح منك جهل وكذب، وتعرضت للمقت من اللطيف الخبير.

ولكن إقراراً واستغفاراً، فذلك أولى بمن كانت هذه صفته.

وليكن لك يا أخي في الحق نصيب. فإنه قد قيل: ليأتين على الناس زمان يكون المقرّ فيه بالحق ناجياً[4].

---

(١) سيأتي توضيح لمعنى التوسل بحب الصالحين يختلف بالكلية عن المعنى الشائع بين العامة، ويتفق مع أصول الدين.

(٢) المحجة: الطريقة والسنة.

(٣) أما الجهل فهو: السير على خلاف محجتهم وطريقتهم. وأما الكذب فادعاؤك أنك متبع لهم. وقد تطور هذا الجهل في عصرنا إلى اعتبار الحب وحده منجياً للعبد يوم القيامة، واستناداً إلى حديث: «من معنى الحب. فقول الرسول ﷺ لسائله حين سأله: ادع الله لي أن يدخلني الجنة: «ماذا أعددت لها» يعني من أعمال البر من النوافل. فقال: «لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله». فلم يثبت أن السائل كان مخالفاً لسنة الرسول، ولا منهج الإسلام كما عليه حال جهلاء اليوم.

(٤) المقر بالحق ربما ينجو لأنه حل عقدة الاصرار على الخطأ، والذي يحل عقدة الاصرار على الباطل معد قلبه قريب من التوبة، قريب من العقد الإلّهي.. لأن الاصرار أساس كل الجرائم.. قال تعالى: ﴿**ولم يصروا على ما فعلوا**﴾.

سياسة النفس

فإذا أنت عرفت الحق، فأقررْت به، ودلَّك الحق على أن لله عليك مع الفرائض الظاهرة فرضاً باطناً، هو: تصحيح السرائر، واستقامة الإرادة، وصدق النية، ومفاتشة الهمة، ونقاء الضمير، من كل ما يكره الله، وعقد الندم على جميع ما مضى من التّوائب بالقلب والجوارح على ما نهى الله عنه.

وهذا أمر جعله الله مهيمناً على أعمال الجوارح. فما كان من أعمال العبد من عمل ظاهر قوبل به من الباطن، فما صح ووافق باطنه صلح، وقبل ظاهره، وما خالف وفسد باطنه، ردت عليه أعمال ظاهرة وإن كثرت، وخسر ظاهرها لفساد باطنها.

ويحقق ذلك كله قول الله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَه إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾[1].

وقول النبي ﷺ: «إنما العمل بالنية، وإنما لامرىء ما نوى»[2].

وقوله: في ابن آدم مضغة إذا صلحت صلح سائر جسده، وإذا فسدت فسد سائر جسده» يريد عمله. «ألا وهي القلب»[3].

وقوله: «إن المَلَكَ لَيُكثِّر أعمال العبد بعد وفاته عند الله تعالى، فيقول: عبدك لم أزل معه حتى توفيته» ثم يذكر محاسن عمله، فيكثرها ويطيبها، ويحسن الثناء عليه. فيقول الله تعالى: «أنت كنت حفيظاً على عمل عبدي، وأنا كنت رقيباً على قلبه، وإن عمله الذي كَثَّرتَه وطَيَّبتَه لم يكن لي خالصاً، ولست أقبل من عبدي إلاَّ ما كان لي خالصاً»[4].

فاعرف يا أخي نفسك، وتفقد أحوالها، وابحث عن عقد ضميرها، بعناية منك وشفقة

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢٠. والآية دليل على مؤاخذة العبد بالآثام القلبية... كما يؤاخذ بآثام الجوارح. وقد تكون العقوبة بإبطال ثواب العمل، كما في حالة الرياء... وقد تكون العقوبة قائمة بذاتها كما في الحسد، والنفاق، والاصرار على الذنب.

(٢) حديث: «إنما العمل بالنية»، أخرجه البخاري في الإيمان ٢١/٣، والنسائي في الطهارة ٥٨/١، ٥٩، ومالك في الامارة ١٥٥٢ ـ وتمامه: «... فمن كانت هجرته الى الله عز وجل فهجرته الى ما هاجر اليه، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر إليه».

(٣) حديث: «في ابن آدم مضغة»، أخرجه البخاري في الإيمان ٢٦/١، ومسلم في الايمان ٨٩/١ والبيهقي ٣١٤/١.

(٤) حديث: «إن الملك ليكثر عمل العبد»، أخرجه احمد في الزهد ٦٤، من الترتيب، والهيثمي في المجمع ٣١٤/١٠، وعزاه للطبراني

منك عليها، مخافة تلفها، فليس لك نفس غيرها، فإن هلكت فهي الطامة الكبرى، والداهية العظمى.

فأحِدَّ النظر إليها يا أخي بعين نافذة البصر، حديدة النظر، حتى تعرف آفات عملها، وفساد ضميرها، وتعرف ما يتحرك به لسانها، ثم خُذْ بعنان هواها، فاكبحها بحكمة الخوف، وصدق الخلاف عليها، ورُدَّها بجميل الرفق إلى مراجعة الإخلاص في عملها، وتصحيح الإرادة في ضميرها، وصدق المنطق في لفظها، واستقامة النية في قلبها، وغض البصر عما كره مولاها، مع ترك فضول النظر إلى ما قد أبيح النظر إليه، مما يجلب على القلب اعتقاد حب الدنيا.

وخذها بالصمم عن استماع شيء مما كره مولاها، من الهوى والخنا[1]، وفي تناولها، وقبضها، وبسطها، وفي فرحها وحزنها.

وخذها بتصحيح ما يصل إلى بطنها من غذائها، وما تستر به عورتها.

وخذها بجميع همها كلها.

وامنع فَرجَها عن جميع ما كره مولاها.

وليكن (مع)[2] ذلك منك تيقُّظ وإزالة للغفلات عن قلبك، عند كل حركة تكون منك وسكون، وعند الصمت والمنطق، والمدخل والمخرج، والمنشط، والحب والبغض، والضحك والبكاء.

فتعاهدها يا أخي في ذلك كله، فإن لها في كل نوع ذكرناه من ذلك كله سبب لهواها، وسبب لطاعتها، وسبب لمعصيتها.

فإن غفلت ووافقت هواها، وغفلت عن مفاتشة هممها، كان جميع ما ذكرت لك من ذلك كله معاصي منها. وإن أنت سقطت بالغفلة[3]، ثم رجعت بالتيقظ[4] إلى خلاف هواها، فكان معك الندم على غفلتك وسَقَطَتكَ، رجع ذلك كله إحساناً وطاعات لك[5].

فتفقدها يا أخي بالعناية المتحركة[6] منك لها، مخافة تلفها، فإنك تقطع عن إبليس طريق المعاصي، وتفتح على نفسك باب الخيرات، وما التوفيق إلاَّ بالله العلي العظيم.

---

(١) الخنا: الفاحشة.

(٢) سقطت من أ.

(٣) يعني: أن أنت أخطأت بسبب الغفلة.

(٤) في ب (رجعت). وما في ب أوضح.

(٥) معنى هذا كما هو منهج المؤلف: أن ترك الأثم يوقع في عمل الخير. فترك الكذب صدق، وترك حب الدنيا زهد فيها، وترك الزنا عفة، وترك الحسد نصح للمسلمين.. وكلها طاعات.

(٦) العناية المتحركة: يعني الدائمة والمتجهة في جميع الاتجاهات التي حددها المؤلف في الفصل وغيره.

بين اللسان والقلب

خطر اللسان:

اتهم يا أخي نفسك على نفسك، أنشد من تهمتك أعدى عدو لك.

وخف يا أخي من لسانك أشد من خوفك من السبع الضاري، القريب المتمكن من أخذك، فإن قتيل السبع من أهل الإيمان ثوابه الجنة، وقتيل اللسان عقوبته النار، إلَّا أن يعفو الله.

فإياك يا أخي والغفلة عن اللسان، فأنه سبع ضار، وأول فريسته صاحبه.

فأغلق باب الكلام من نفسك بغلق وثيق، ثم لا تفتحه إلَّا فيما لا بُدَّ لك منه، فإذا فتحته فاحذر، وخذ من الكلام حاجتك التي لا بد لك منها، وأغلق الباب.

وإياك والغفلة عن ذلك، والتمادي في الحديث، وأن يستمد بك الكلام فتهلك نفسك، فأنه يروى عن النبي ﷺ أنه قال لمعاذ:

«وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلّا حصائد ألسنتهم»[1]؟

وسأله رجل فقال: ما أتقي؟ فقال: «هذا». يعني: لسانك[2].

وقال له رجل: ما أخوف ما تخاف علي؟ فقال: «هذا» وأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه[3].

وقال له آخر: ما النجاة؟ فقال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئَتك»[4].

وقال ﷺ: «من صمت نجا»[5].

وقال: «من سره أن يسلم فليلزم الصمت»[6].

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجة عن معاذ بن جبل في الأدب ٢/٦٤٠ ومسلم في الزهد ٦/١٠٤، والنسائي ٢/١٢٤.

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/١٣٠

(٣)) أخرجه البيهقي في السنن ٢/١٥٣، والترمذي في الأدب ٤٨٥.

(٤) اخرجه البخاري في الفتن ٧/٦٣، وأبو داود في السنة ٢/١٠٦، وابن ماجة في الزهد ٢/٢٥٣.

(٥) الطبراني عن عبد الله بن عمرو بن العاص بسند جيد، والترمذي بسند ضعيف.

(٦) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/١٣١.

وورد عمر بن الخطاب على أبي بكر رضي الله عنهما، وهو آخذ بطرف لسانه يبصبصه، فقال: ما تصنع؟ فقال: هذا أوردني الموارد» (١)

وقال عبد الله بن مسعود: «ليس شيء أحق بطول سجن من لسان»(٢).

إلى أخبار كثيرة في اللسان.

فإياك يا أخي والغفلة عنه، فإنه أعظم جوارحك عليك جناية، وأكثر ما تجد في صحيفة أعمالك يوم القيامة من الشر ما أملاه عليك لسانك، وأكثر ما تجده في صحيفتك من الخير ما اكتسبه قلبك(٣).

فضل عمل القلب على عمل اللسان:

وذلك: أن اكتساب قلوب الحكماء، وأهل البصائر للخير أعمال خفية، تخفى على إبليس، وعلى الحفظة، فهي أعمال نقية من الفساد، زاكية، قد حصلت مع خفة مؤنة على أهلها، جزيلة الثواب، مخلصَات من عوارض العدو، ومن هوى النفس.

وذلك لأنها أعمال مستورة، عن أعين العباد خاملة، لأن العبد يصل إليها قائماً وقاعداً ومضطجعاً، فأولئك هم أولو الألباب، ﴿الَّذينَ يَذكُرونَ اللهَ قِياماً وَقُعوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ﴾(٤)، وأكثر ذكرهم التفكر، قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٤).

فهم أهل الإخمال(٥) من المؤمنين الذين عبدوا الله عبادة لم تظهر منهم.

* * *

(١) يبصبصه: يحركه. والحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت. والبيهقي، وأحمد في الزهد ٣٩٨ من الترتيب.

(٢) أخرجه محمد بن الحسن في الآثار ٤٠٨، وأبو يوسف في الآثار ٥٠٤.

(٣) أنظر كتاب تأديب المريد. من الرعاية لحقوق الله ص ٦٠٧ وما بعدها. وفيه يخبرنا كيف يكون عمل القلب ثقيلاً في ميزانك. يقول: «فإن خرجت الى سوقك نويت ان مررت ببعض المجالس أن تسلم لله. وإن رأيت مظلوماً أن تنصره. وإن رأيت منكراً فاستطعت ان تغيره غيرته. وإلا أنكرته بقلبك. وإن مررت بأذى ان تميطه عن الطريق.
بمعنى المؤلف يستقصي جميع النوايا الخيرة.. ثم يقول: فكلما نويت أكثر كان لك الأجر أكثر، فإن خرجت فإن كل ما قررت عليه مما يمكّن من النية، فإن فعلته أجرت على نيتك وعلى فعلك، وإن لم تفعل ذلك أجرت على نيتك».

(٤) سورة: آل عمران، الآية: ١٩١.

(٥) أهل الإخمال ليسوا هم الخاملون عن العمل.. بل هم الذين يؤثرون خمول الذكر، وانكار الذات، ويعملون من أجل المجموع، ويزهدون في الشهرة، وفي الاعلان عن أعمالهم.. انظر (الوصايا ص ١٦٣).

سياسة القلب

تصفية القلب عن الحرص على الدنيا:

وتعاهد يا أخي قلبك بأسباب الآخرة، وعرّضْهُ لذلك، وصُنْهُ من أسباب الدنيا، ومن ذكر يجر إلى الحرص والرغبة.

ولا تأذن لقلبك في استصحاب ما يعسر طلبه، وينطفىء نور القلب من أجله[1]، وكن في تأليف ما بينه وبين محمود العواقب حريصاً، وخوّف نفسك عقوبة ما في يديه من الدنيا، وقلة أدائك لما يجب عليك فيه من الشكر.

واستكثر ما في يديك، لما تعلم من ضعف شكرك، فتشتغل النفس بما في يديها عن الفكر في أمر الدنيا، والمحبة للزيادة منها.

فإذا أجممتها[2] من ذكر الزيادة من الدنيا، وحملتها على درجة الخوف مما في يديها، قنعت ورضيت، وعفّت عن طلب الدنيا بالحرص والرغبة، ورجعت إلى الآخرة، بالحرص عليها، والرغبة فيها، فإن النفس مبنية على أساس الطمع.

أخطار الطمع على القلب:

ومخرج الحرص والرغبة من الطمع، وبناء الأنفس (قائم) على قواعد الطمع، أما الطمع في الدنيا فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من الدنيا، وأما الطمع في الآخرة فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من أعمال الآخرة بالحرص عليها، والرغبة فيها.

قيل لحكيم: فما آلة الطمع، وجماع آفاته؟

قال: الشَّرَهُ والحِرْص، وهيجان الرغبة، فعلى أيها أوقَعَت (النفس) طمعها أحضَرَتْ أداتها، وجمعت آلتها، وجَدَّت في طلبها.

---

(١) يجب ملاحظة مذهب السلف كما يوضحه المؤلف، وهو: إن طلب الدنيا في ذاته ليس مذموماً إلا بسبب ما يصاحبه من الحرص والرغبة، والتي يسميها المؤلف «عقد القلب على حب الدنيا». ومن هنا ينطفىء نور القلب كما يقول، بسبب اشتغاله بتحصيل ما يعسر طلبه. فليست فكرة المؤلف دعوة الى السلبية في الدنيا.

(٢) أجممتها: أرحتها.

فإذا قهرت صاحبها[1] على موافقة هواها[2] اسْتَعْبَدَته، فأذْهَلَتْه وأذَلَّتْهُ، وأدهشته وأتعبته، وطَيَّشَتْ عقله، ودنَّست عرضه، وأخلقت مروءته[3]، وفَتَنَتْهُ عن دينه، وإن كان عالماً لبيباً عاقلاً كَيّساً فطيناً فصيحاً حكيماً فقيهاً لَوَّثَتْه، وأسقطته، وفضحته، فاحتمل لها ذلك كله، وهو الأريب العالم الأديب، فصيّرته بعد العلم جاهلاً سفيهاً، أحمقاً خفيفاً.

وذلك: أنها سقَتْهُ من موافقة هواها كأساً سُمّا صرفاً، فاستمالته، فمال بعلمه وعقله وفهمه، ونفاذ حكمته وبصره، فأجراه مجرى هوى نفسه[4] فعجّلَت له الفضيحة في عاجل الدنيا، عند حكمائها وعلائها، وأسقطته من نعيم الله، وأعين عباده من أهل البصائر[5]، وأخرت له آجل الندامة الطويلة عند مفارقة الدنيا، وفي عرصات القيامة.

* * *

قهر النفس على طلب الآخرة:

فإذا قطع عليها العبد الطمع من أسباب الدنيا، وغلب بعقله هواها، رجعت بطمعها إلى أسباب الآخرة لا محالة، لأنها بنيت على الطمع[6].

فإذت تجردت من أسباب الدنيا، وأقلبت على نفسها بالإياس من المخلوقين[7] رجعت برغبتها وطمعها إلى أسباب الآخرة، فجدت في طلبها واجتهدت، وعزفت عن الدنيا، وباينت الهوى، وخالفت العدو، وتبعت العلم، وكانت مطية للعقل، صابرة على مر ما يدل عليه الحق، فنجت وأنجت.

* * *

---

(١) في الأصول (قهرت صاحبها العبد). وقد حذفنا كلمة (العبد) لعدم الحاجة اليها. ويظهر انها مدرجة من الناسخ تفسيراً لكلمة (صاحبها).

(٢) الهوس إذن هو آلة الطمع الدنيوي في النفس، وهو نفسه: الشره وهيجان الرغبة.

(٣) أخلقت مروءته: أبلتها وضيعتها.

(٤) ومن ذلك مّا نراه كثيراً من كبر بعض العلماء عن الاعتراف بالخطأ، فيلجأون الى التأويل الفاسد للنصوص حتى تتفق مع أهوائهم في الاستكثار من الدنيا، ومن الترف، ومن إباحة الحرام.. وهذا مشهور لا يحتاج الى فضيحة.

(٥) أما العامة ومن هم على شاكلة هؤلاء العلماء فيرددون أباطيلهم، ويدعون الى نحلتهم.

(٦) هذا ضرب من ضروب العلاج النفسي الإسلامي.. وهو: أن يعمل الداعية على تحويل الطبائع الجبلية في الإنسان الى الاستعداد للآخرة.. كما يتحول الطمع هنا من الدنيا الى الآخرة.

(٧) اليأس من المخلوقين هو الذي يجب على الدعاة أن يؤصلوه في نفوس المسلمين، ومن هنا يتحول طمعهم من الدنيا الى الطمع في الآخرة. **من الطمع المرذول الى الطمع المحمود.**

الخوف والحزن

وسيلة تحصيل الخوف والحزن:

وتعاهد يا أخي قلبك عند هِمَمه، وألزمه الفكرة في أمر المعاد، فلا تفارق قلبك، وتوهّم بقلبك هول المطلع عند مفارقة الدنيا، وترك ما قد بذل أهلُها في مُهَجَ نفوسهم، وتدنيس أعراضهم، وإخلاق مروءاتهم، وانتقاص أديانهم، ثم تركوا ذلك كله، وقدموا على الله فرادى آحاد، مع ما قد وردوا عليه من وحشة القبر، وسؤال منكر ونكير، وأهوال القيامة، والوقوف بين يدي الله، والمساءلة عن جميع ما كان منهم[1] من قول أو فعل، من مثل مَثاقيل الذَّرِّ، وموازين الخردل.

وسؤاله عن الشباب فيم أبلى شبابه؟ وعن العمر فيمَ أفنى عمره؟ وعن المال من أين اكتسب، وعمن منع[2]؟ وفيم أنفق؟ وعن العلم ماذا عمل فيه؟ وعن جميع الأعمال التي صدقوا فيها، والتي كذبوا فيها.

فإنك يا أخي إن شغلت قلبك بذلك، وأسكنته إياه، وكان فيك شيء من صحة تركيب العقل، فإنه سَيَكِلّ منك[3] لسانك، ولا يعدمك الخوف اللازم، مع الحزن الدائم، والشغل المحيط بقلبك.

إبليس يهوى القلوب الخربة:

وإن إبليس إنما يُسَوِّرُ عليك في الآثام من وسوسة نفسك، وخراب قلبك.

وخرابه إنما يكون إذا كان فارغاً من الخوف اللازم، والحزن الدائم، فحينئذ ينفث فيه بالوسوسة لآمال الدنيا، والجمع لها، مخافة فقرها، مع لزوم طول الأمل لقلبك، وإعراضه عن الله تعالى، وانقطاع مواد عظمة الله منه، وفراغه من الهيبة والحياء منه.

فإذا وجد القلب عامراً خَنَس، ونفرَ منه، ولم يجد فيه مساغاً، ولا من جوانبه مدخلاً، لأن القلب عامر بالخوف والأحزان والفكر، فهو منير مضيء.

---

(١) في الأصول (منه) والسياق يقتضي ما أثبتناه.

(٢) في الأصول (وعما منع) وما أثبتناه أليق بأسلوب العربية.

(٣) يعني: أنك إن اشتغلت بمحاسبة نفسك على عمرك ومالك وعلمك حساباً دقيقاً، فستحول اهتمامك من الثرثرة الى الخرس، استجابة للخوف والحزن الثائر في قلبك.

يرى العبد بنور قلبه مداخل إبليس، فيرميه بالإنكار لما يدعو إليه، ويعتصم بما أيَّده الله به من نور قلبه، فيدْحَره[1] عنه، فولّى الخبيث إلى قلب قد فقد الخوف، فخرب وأظلم، فلا نور فيه.

فلا شيء أثقل على الخبيث من النور، فإذا وجده خنس[2]، ونفر منه، فلا يقدر عليه ألّا من قبل الغفلة من العبد.

ونور القلب إنما هو من يتّعظه وحياته، فإذا غفل مات وأظلم، وطفىء نوره، فيلتبس على العبد ما يدخله عليه العدو، أو يكدر عليه، فاختلس إبليس من العبد، واستدام القلب بالغفلة، فتسوَّرَ عليه بالآثام، فإذا أصر على الإقامة عليها، ورضي بها علاه الرَّين[3] فأظلمه، واستقر إبليس فيه، ثم سلك به سبيل الآثام، إلى أن يوصله ويوقعه في الكبائر.

ولا شيء أعجب إلى إبليس من ظلمة القلب وسواده، وانطفاء نوره، وتراكب الرَّين عليه، ولا شيء أثقل على الخبيث من النور والبياض والنقاء والصفاء، وإنما مأواه الظلمة، وإلّا فلا مأوى له ولا قرار في النور والبياض.

ولقد بلغني أن النبي ﷺ كان يكره أن يدخل البيت المظلم حتى يضاء له فيه بمصباح.،

* * *

(١) يدحره عنه: يهزمه ويذله.

(٢) في ب (لا سيما إذا وجده عامراً خنسى) وما أثبتناه من أ أوضح. ودليل نفور ابليس من النور ما جاء في الحديث من أن الشيطان إذا سمع ذكر الله أدبر وله حصاص. وحديث أبي هريرة عن البخاري حين قبض على الجني يسرق من تمر الصدقة، فطلب منه الجني ان يتركه على أن يعلمه كلمات لا يجتمع معها جني أبداً، وهي آية الكرسي.. وآية الكرسي ما هي إلا ذكر الله. وأمر الله للمؤمنين أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم حين قراءة القرآن. والله نور السموات والأرض.. فالشيطان إذن يفر من النور بمعنى الذكر حقاً.

(٣) الرين: الظلمة المتراكمة على القلب من آثار الآثار. وهناك أحاديث تصور هذه الظلمة.

مراقبة الله تعالى

ما يعني على المراقبة:

يروى عن بعض الحكماء أنه قال: إن من أشرف المقامات وأفضلها: المراقبة لله.

ومن أحسن المراقبة: أن يكون العبد مراقباً بالشكر على النعم، والاعتراف بالإساءة، والتعرّض للعفو عن الإساءة، فيكون قلبه لازماً لهذا المقام في كل أعماله، فمتى ما غفل رده إلى هذا بإذن الله.

ومما يعني على هذا: ترك الذنوب، والتفرغ من الأشغال والعناية بالمراجعة.

ومن أعمال القلب التي يزكو بها، ولا يستغني عنها: الإخلاص، والثقة، والشكر، والتواضع، والاستسلام، والنصيحة، والحب في الله تعالى، والبغض فيه.

وقال: أقل النصح: الذي يُحْرجك تركه، ولا يسَعُك إلّا العمل به، فمتى قصرت عنه كنت مصرّاً على معصية الله تعالى في ترك النصيحة لعباده. فأقل ذلك: ألا تحبّ لأحد من الناس شيئاً مما يكره الله عز وجل، ولا تكرَه لهم ما أحب الله عز وجل.

فهذه الحال التي وصفنا واجبة على الخلق، لا يسع تركها طرفة عين، بضمير ولا بفعل جوارح.

وحال أخرى فوق هذه، وهي فضيلة للعبد: أن يكره لهم ما كره الله، وأن يحب لهم ما أحب الله تعالى.

قال: وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك[1]، فقال له: أوصني. فقال: «راقب الله» فقال الرجل: وما مراقبة الله؟ فقال: «أن يستحيي من الله».

* * *

المراقبة والمناجاة من اليقين:

قال: فالمناجاة والمراقبة من حيث تضع قلبك، وهو: أن تضعه دون العرش، فتناجي مِنْ هناك[2].

---

(١) عبد الله بن المبارك: عالم خراسان بلا منازع، وله قدم راسخ في العلم والورع. روى عن حميد الطويل، وإبراهيم التيمي، وشعبة، ومالك، والثوري، والفزاري، وابن عيينة وغيرهم. وروى عن معمر، وابن مهدي، وابن معين وغيرهم. قال ابن معين: ثقة مستثبت صحيح الحديث. مات عام ١٨١ هـ (تذكرة الحفاظ ١/٢٧٤ وتهذيب التهذيب ٥/٣٨٢ ـ ٣٨٧، وحلية الأولياء ٧/٣٦٥).

(٢) هذا المشهد يقوم على الخيال.. وهو أن تفرغ نفسك وقلبك من الخواطر، ثم تتمثل قلبك تحت عرش

وفي رد القلب إلى المراقبة مراجعتان:

أولاهما: مراقبة النظر، مع تذكر العلم، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ**﴾[2].

ثم تذكر العظمة لوجود الحلاوة.

والقول الآخر: يروى أن الله سبحانه أوصى إلى إبراهيم عليه السلام: «يا إبراهيم، أو تدري لِمَ اتخذتك خليلاً؟ قال: لا يا رب. قال: لطول قيامك بين يدي». قال: فقيل: إنما كان قيامه بالقلب، وليس بالصلاة.

وهذا يوافق القرآن. قال تعالى: ﴿**إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ**﴾[3].

وحديث النبي ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه»[4].

وحديث حارثة وقوله: «كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً»[5].

* * *

من آداب المراقبة:

وقال: أعلا الأعمال في الدرجات: أن تعبد الله على السرور بمولاك، ثم على التعظيم له، ثم على الشكر، ثم على الخوف، وآخر الأعمال التي تكون بالصبر[6].

والصبر على وجوه: تصبر، وصبر جميل[7]. ثم تخرج إلى الخوف، والشكر، ثم إلى

= الله محوطاً بسلطانه وعلمه، ثم تناجيه بعيداً عن الدنيا بفكرك وضميرك.

(١) سورة: هود، الآية: ٥.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٥.

(٣) سورة: صّ، الآية: ٤٦.

(٤) من حديث طويل، عن عمر أخرجه البخاري في الإيمان ١/١٩، ومسلم في الإيمان ١/٣٨، وأبو داود في السنة ٢/١٧٥، وابن ماجة في المقدمة ١/٢٤، والترمذي في الإيمان ٧/٣٤٣، والنسائي في الإيمان ٨/٩٧.

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان ١/٢٥، ومسلم في الإيمان ١/٤٦، وأبو داود في السنة ٢/١٦٥، والنسائي من الإيمان ٨/١٠٠.

(٦) لأن العمل المقترن بالصبر فيه معاناة ومكابدة لجزع النفس من شدة العمل عليها، ولهذا كان متأخراً في الرتبة عن العمل المقترن بالسرور أو الشكر أو التعظيم، حيث لا معاناة ولا مكابدة بينها. وانظر مكابدة الهوى من (أعمال القلوب والجوارح).

(٧) التصبر: محاولة السكون مع جزع النفس وقلقها. والصبر الجميل هو: السكون: تحت مجاري الأقدار دون جزع ولا حرج فيها.

التعظيم، ثم السرور[1].

ومن أراد الزهد فليكن الكثير مما في أيدي الناس عنده قليلاً، وليكن القليل عنده من دنياه كثيراً، وليكن العظيم منهم إليه من الأذى صغيراً، وليكن الصغير منه إليهم عنده عظيماً.

وقال: إذا دعتك نفسك إلى ما تنقطع به عند حظك، فاجعل بينك وبينها حكماً من الحياء من الله تعالى.

وقال: إن الأكياس إذا دعتهم النفوس إلى أن تقطعهم بخدائعها عن سبيل نجاتهم، حاكموها إلى الحياء من الله تعالى، فأذلَّها حُكْمُ الحياء.

وقال: مَخْرَجُ الاغترار من حسن ظن القلب، ومخرج حسن ظن القلب من القيام لله على ما يكره، ثم من كذب النفس.

وقال: من النصح أن تحب أن يكون الناس كلهم خيراً منك.

وقال: ذكر عند ابن المبارك عابد تعبد بلا فقه فقال، «ليت بيني وبينه بحراً»[2].

وقال: من انقطع إلى الله لم يصبر على الناس، ومن انقطع إلى غير الله لم يصبر عن الناس.

وقال: «من قرأ القرآن ما له ولكلام الناس».

وقال: إنما هي أيام قلائل، فما على الإنسان لو وهب نفسه لله؟

وقال: التواضع لله: ذل القلب.

وقال: أول النعم معرفة العلم الذي به تؤدى فرائض الله، ثم الصحة، والغنى، ثم العقل.

وقال: ليس للعبد أن يرد على مولاه شيئاً من أحكامه، وعليه أن يرضى بما ورد عليه من حكم مولاه، ويجب عليه أن يصبر. فللعبد حالان. حال يوافق منه رضا على ما يحب، وحال يوافق منه صبراً على ما يكره[3].

---

(١) هنا سلوك صعودي.. وهناك سلوك نزولي من ناحية حلول النفس في مراتب المعرفة لله أثناء العمل.. وهو ما سمي بعد ذلك بالمقامات.

(٢) إنما تبرأ من المتعبد بلا فقه لأن البدعة اليه أسرع.. والغرور الى قلبه أسبق.. والدعوى على لسانه شائعة..

(٣) الفرق بين الرضا والصبر الجميل: أن الرضا: اعتقاد أن الله تعالى لا يفعل بالعبد إلا ما فيه مصلحة وإن لم تكن ظاهرة، والتفويض اليه من كل أمره.

أما الصبر الجميل: فهو سكون القلب والجوارح عند البلية، وإن لم يكن يعرف حقيقة المصلحة التي فيها.

العدل والفضل

شرائع العدل وشرائع الفضل:

بسم الله الرحمن الرحيم.. يروى عن بعض الحكماء أنه قال: طريق الآخرة واحد، والناس فيه صنفان: فصنف أهل العدل، وصنف أهل الفضل.

والعدل عَدْلان: عدل ظاهر فيما بينك وبين الناس، وعدل باطن فيما بينك وبين الله.

وطريق العدل طريق الاستقامة. وطريق الفضل طريق طلب الزيادة.

والذي على الناس لزوم العمل به: طريق الاستقامة. وليس عليهم لزوم طريق الفضل.

والصبر والورع[1] مع العدل، وهما واجبان. والزهد[2] والرضى مع الفضل، وليسا بواجبين. والإنصاف مع العدل، والإحسان مع الفضل.

ومن شغله العدل عن الفضل فمعذور، ومن شغله الفضل عن العدل فهو مخدوع، متّبع لهوى نفسه[3]. وعلى الإنسان معرفة العدل، وليس عليه معرفة الفضل إلاَّ تبرّعاً.

وهكذا كل عمل لا يجب على العبد فعله، لا يجب عليه علمه.

* * *

---

(١) الورع: المجانبة لكل ما كره ان من مقال أو فعل بقلب أو جارحة والحذر من تضييع ما فرض ان بقلب أو جارحة. ويكون بشيئين: ترك الشبهات خوف موافقة الحرام، وترك بعض الحلال الذي يخاف أن يكون ذريعة الى الحرام، مثل ترك فضول الكلام لئلا يخرج إلى الكذب والغيبة [انظر أعمال القلوب والجوارح ٢٠١].

(٢) الزهد: هو اطمئنان النفس الى وعد الله وضمَانِه. وقد حدد المحاسبي بقوله: «إن كان العبد عقدة الإمضاء في الحقوق، وليس يمنعه من الإمضاء أن نفسه بالإمضاء لا تصدقه فهذا خازن من خزان الله عز وجل، فهو زاهد وإن كثر عنده المتاع.. ولرب مقل قد ظهر الزهد على ظاهر بدنه، وقلبه مشغول بالرغبة، قد استغل ما صار اليه من الدنيا، ويستكثر ما بيد غيره.. وإن كان شغف للأموال، وواضعها في الحلال والحرام، أو متفقهاً في غير وجوها الفاضلة، فهو راغب وإن قل حبسه [أنظر أعمال القلوب والجوارح ٤٤ ـ ٤٦].

(٣) من شغله الفضل عن العدل. مثاله: من يشتغل بالنوافل ويترك الفرائض.. ومن يزهد في الدنيا بظاهرة، ويتناول القليل منها شبهات أو محرمات.. وهكذا.

صفات أهل العدل:

ولا يكون العبد من أهل العدل إلاّ بثلاث خصال: بالعلم حتى يعلم ما له مما عليه، وبالفعل، وبالصبر.

فمفتاح العدل وأولاه بالعبد، وأوجبهُ عليه: أن يعرف قدْر نفسه، فلا يكون لها عنده قدر فوق منزلتها، وأن الشبه سريرته علانيته.

وأحزَمُ الناس فيه، وأقربهم منه مأخذاً: المراجع لنفسه في كل خطرة تهواها نفسه، أو تكرهها، فينظر في ذلك، أن لو اطلع الناس على حالته هذه[1]، فاستحيا أو كرهها، تحوّل من تلك الحالة إلى حالة لا يُسْتَحيا منها، فإن الذي لا يُستحيا منه ضد الذي يستحيا منه.

فإذا تحول واستمر فلينظر، فإن اشتهت نفسه أن يطلع الناس عليه، تحول منه إلى ما لا تشتهيه نفسه، فإن الذي تشتهيه ضده، فيكون أبداً في ضد ما تشتهيه نفسه[2].

* * *

أبعد الناس من العدل:

وأبعد الناس من العدل: أشدهم غفلة عن هذا، وأقلهم محاسبة لنفسه، وأبعد الناس من العدل وأطولهم غفلة عن هذا[3]: أشدهم تهاوناً به.

ولو عقلت من الذي تراقب، ثم تقطّعت أعضاؤك قطعاً، وانشقَّ قلبك، أو سِخْتَ في الأرضِ، لكنت بذلك محموقاً.

فلما لم تعقِلْ لم تجد مسَّ الحياء والخوف في مراقبة الله تعالى، ومطالعته على ضميرك، وعلمه بما تجلُبُه حواسّك على قلبك، وقدرته المحيطة بك، ثم أعرضْتَ بعد ذلك كالمتهاون به إلى مراقبة من لا يطلع على سرك، ولا علم له بما في ضميرك، فقلت: لو اطلع الناس على ما في قلبي لَقَلَوْني ومقتوني، فمسك الحياء والخوف منهم، حذراً من نقصان جاهك، وسقوط منزلتك عندهم، فكنت لهم مراقباً، ومنهم خائفاً، ومن مقتهم مشفقاً، إذا لم تجد مقت الله لك، وسقوط منزلتك وجاهك عنده... ومقت الله أكبر.

ثم إذا عملت شيئاً من الطاعات التي تقرِّب إلى الله زُلفى، فإن هم اطلعوا عليها

---

(١) في الأوصل (أن لو اطلع عليه الناس على حالته هذه). وحذفنا عليه لعدم فائدتها.

(٢) إذن السلامة في الدين تتطلب دوام الحركة النفسية، وعدم الركون الى حال، بل يكون الإنسان دائم النظر، وهو ما يسميه المؤلف «بالمفاتشة» و«المحاسبة». وقد اشتهر بذلك كما هو واضح من اسمه.

(٣) في أ (وأطول غفلة عن هذا).

عقدت بقلبك حب حَمْدهم على ذلك، وأحببت اتخاذ المنزلة عندهم بذلك.

وإن كان شيئاً يتقرَّب به إلى الله من طاعة بعقد ضمير، أو اكتساب جوارح، فإن كان ذلك سراً أحببت أن يطلعوا عليه ليحمدوك، ويقوم به جاهك.

فلم تقنع باطلاع الله عز وجل، ولا بثوابه في عمل السر ولا في عمل العلانية، وأنت قانع بذلك، راض به، غافل متمادٍ، معتزّ مخدوع، وكانت هذه الحالة عندك أحسن أحوالك، وأحزم أمورك.

ولو استغنيت بالله وحده، وباطلاعه عليك، وبجزيل ثوابه لأهل طاعته، ومحبته لهم، وتوفيقه لهم، وتسديده إياهم، وراقبته، لأغناك ذلك عمن لا يملك لك ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً.

وقد رضي منك بذلك... وليتك تضبطه[1].

فأولى الفضائل بك، وأنفعها لك، أن تكون نفسك عندك دون قدرها، وأن تكون سريرتك أفضل من علانيتك، وأن تبذل للناس حقوقهم، ولا تأخذ منهم حقك، وتتجاوز عما يكون منهم، وتنصفهم من نفسك، ولا تطلب الإنصاف منهم[2].

وإنما هو التطهير ثم العمل... والتطهير أولى بنا من العمل.

* * *

(١) أي قد رضي منك بمراقبة اطلاعه عليك دون خلقه، وليتك تضبط هذه المراقبة فلا تنساها. وقد تحدث المؤلف عن المراقبة كثيراً في كتبه. ومن أجمله ما قاله في كتابه «القصد والرجوع الى الله» ص ١٠٦ «ويوصل اليها: قطع علائق الاشغال، ولزوم العلم والتعاهد بالعناية والرعاية.

«وعلامتها: اجتماع أطراف صاحبها، والانفراد بها عن غيرها، حتى إذا نظر اليه ناظر قال: هذا ساه مشغول القلب، لما قد تمكن فيه من دوام مراعاة المراقبة، ولزوم العناية.

«والمراقبة تنقل الى الحياء من الله عز وجل، والى كل حال جميل يقرب إليه».

(٢) المراد أن يكون هذا التسامح والبذل عن قدرة، لا عن ضعف وخور واستجابة للابتزاز.

التطهير والعمل

أهمية التطهر من الآفات قبل العمل:

والتطهير هو: الانتقال عن الشر إلى الأساس الذي يُبنى عليه الخير[1]. . . وقد يمكن أن يسقط البناء ويبقى الأساس، ولا يمكن أن يسقط الأساس ويبقى البناء.

ومن لم يتطهر قبل العمل، فإن الشر يمنع العبد من منفعة الخير، فترك الشر أولى بالعبد، ثم يطلب الخبر بعد.

والنفس تجزع من التطهير، وتفِرُّ إلى أعمال الطاعات، لثقل التطهر عليها، وخفة العمل بالطاعات بلا طهارة.

فإذا كانت الطهارات متقدمة أمام العمل بالطاعات[2] بعد خفته عليها لمكان الطهارة، فالحاجة إلى معرفة الأسباب التي يطلب منها الخير، وتوصل إلى الله شديدة.

فمن كانت له عناية بنفسه، وخاف عليها التلف، طلب لطائف الأسباب بدقائق الفِطَن، وغائص الفهم، حتى يصل إليها. فإذا وصل إليها تمسّك بها، وعمل عليها، لأن المعرفة لآفات العمل تكون قبل العمل، ومعرفة الطريق قبل سلوكه، وحاجة العبد إلى معرفة نفسه وهواها، وعدوه، ومعرفة الشر أشد إن كان كيِّساً، وهو إلى ذلك أفقر إن كان فطِناً مَعنيّاً بنفسه.

لأنه ليس العمل بكل الخير يلزم العبد، والشر كله لازمٌ للعبد ترْكه، ومن ترك الشر وقع في الخير، وليس كل من عمل، عمل بالخير كان من أهله.

ومعرفة العبد للشر فيها علم الخير والشر، وليس في معرفة الخير العلمان جميعاً، لأن كل من ميز الخير من الشر فعزَلَه واعتزَله، فكل ما بقي بعد ذلك فهو خير كله. وقد يمكن أن يعلم الخير ولا يحسن أن يميز ما فيه من الشر من الآفات التي تفسده وتبطله، لأن الخير

---

(١) وهذا الاساس هو صدق الإرادة، وصلاح النية، ودوام المراقبة، وتواطؤ القلب واللسان والجوارح على العمل.

(٢) ومن تأمل شرائع الإسلام أدرك الشواهد الظاهرة للطهارات قبل الأعمال، وأدرك أن المراد منها أن تتعدى من الظواهر إلى البواطن. فالوضوء أمام الصلاة. . والإحرام أمام الحج طهارة من زينة الدنيا وغوايتها. . والصدقات أمام أعمال العمران تطهير للانسان من أدْران المادية بوجه عام. قال تعالى: **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾. التوبة ١٠٣. فجعل الطهارة لهم لا لأموالهم.**

مشوب ممازج بالشر، والشر شر كله.

* * *

الشيطان يضل الناس بالخير وبالشر:

وقد أضل العدو الخبيث عن الله كثيراً من الناس بالخير، وأضل كثيراً منهم بالشر، وإنما أضل من أضل منهم بالخير لقلة معرفتهم بما يمازج الخير من الشر. فجهلوا معرفة ذلك، وأوهمتهم أنفسهم أنهم على خير وهدى، وطريق محبة، وسبيل واستقامة، وهم ضالون عن الله، عادلون عن طريق محبته، وسبيل الاستقامة إليه.

وإنما ذلك من كثرة الآفات التي تلحق الأعمال، وقلة علم العمال بها[1]. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

الطلب على قدر المعرفة:

ما أغفل الناس عن أنفسهم، وعن أهوائهم، وعن عدوهم، فنعوذ بالله من الغفلة والسهو والنسيان الذي يردي، ويفسد الأعمال.

والحَرِيُّ: أن تارك الشر يكون تركه له على قدر ما يعرف من ضرره، وهو قائم بفرض تقرب إقامته من الله زلفى. وطالب الخير يكون طلبه على قدر ما يرجو ويعرف من منفعته، ومن أن العلم شيء، والعمل شيء، والمنفعة شيء، وربما كان علم ولم يكن صاحبه به عاملاً، وربما كان علم وعمل ولم تكن منفعة، وربما كان علم وعمل ومنفعة، ثم يكون بعد ذلك إبطال وإحباط . وربما علم العبد وعمل وانتفع وسلم وتم.

* * *

---

(١) وأهم هذه الآفات: الجهل بالنية، وتجديد الارادة من العمل، والجهل بلزوم المحافظة على النية والإرادة بعد العمل لئلا يحبط، والجهل بحقيقة الرياء، وحب المحمدة، وكراهية المذمة، إلى غير ذلك من الآفات التي سيعرض لها المؤلف في هذا الكتاب وعرض لها بتوسع في كتابه «الرعاية لحقوق الله». وانظر له أيضاً (الوصايا/٦٨، ٨٣، ٩٣، ١٢٥، ١٥٠، والقصد والرجوع إلى الله/٦٦، ٦٨).

الخصال التي يطلب منها الخير

وطالب الخير لا يستغني عن خمس خصال، سوى ما يحتاج فيه إلى علم حدود الأعمال وأحكامها، وأدائها إلى الله تعالى خالصة مخلصة، مشوبة بالصدق كما أمر وفرض وسَنَّ، في الأوقات التي أمر وفرض.

وصاحب الخير العامل به لا يستغني عن: الصدق، والصواب، والشكر، والرجاء، والخوف.

* * *

الصواب:

أما الصواب فالسنَّة، والسنة ليس بكثرة الصلاة تُدرك، ولا بكثرة الصيام والصدقة، ولا بالعقل والفهم، ولا بغرائب الحكمة، ولا بالبلاغ والموعظة، ولكن بالاتباع والاستسلام لكتاب الله عز وجل، وسنة رسوله ﷺ، والأئمة الراشدين من بعده.

وليس شيء أشد تهمة ولا أكثر ضرراً[1] على السنَّة من العقل، فمتى أراد (العبد)[2] أن يسلك سبيل السنَّة بالعقل والفهم خالفها، وأخذ في غير طريقها[3].

* * *

الصدق:

وأما الصدق ففي أربعة أشياء:

تعمل العمل ثم لا تريد على ذلك جزاء ولا شكوراً إلّا من الله تعالى، ولا تبطله بالمَنّ

---

(١) في الأصول (ولا أكثر حذراً). خطأ. ولعله تحريف من النساخ.

(٢) سقطت من أ.

(٣) ليس هذا إهداراً لقيمة العقل. فالمؤلف حريص كل الحرص على اعلاء شأن العقل، وله كتاب خاص في العقل. وانظر ما كتبه في شرف العقل من الوصايا ص ٨٦ وما بعدها. . وإنما يريد استعمال العقل فيما خلق له، ولم يخلق لكي يناقش السنة، بل خلق ليتبعها كما وردت. أما أن ينعكس الحال، فيبحث المسلم السنة بعقله دون اتباع، فإنه يدعو إلى الاختلاف. ويقول في الباب الرابع عشر من الوصايا ص ٧٤: «وقد انتهى إليكم الذي حل بهم من أجل الاختلاف، وما ابتلوا به من الأهواء المضلة، وارتكاب العظائم من القدرية والمرجئة والرافضة والحرورية، قد تحاربوا وتعادوا وشهد بعضهم على بعض بالكفر».

والأذى، ومنه صدق اللسان في الحديث. وقد يصدق في حاله بلسانه، وهو عاص لله تعالى في صدقه. وهو: المغتاب والنمام.

* * *

الشكر:

وأما الشكر فمعرفة البلوى[1]. فإذا عرف أن كل نعمة فهي من الله لا غيره، وإنما هي بلوى يختبر بها عبده، شكر أم كفر، وكل سوء صرف عن العبد فالله تعالى صرفه، ليشكره عبده أو يكفره. فهذا من الشكر.

فإذا عرف العبد هذا أنه من الله، وعَدَّه من نعَمه عليه، ولم يُدخِل فيه أحداً: نفسه ولاغيرها، فقد شكره، فالشكر متفاوت، والناس فيه متباينون متصاعدون، وهذا أدناه، وأما أعلاه فلا يبلغه أحد، وليس له حدّ.

ومنه أيضاً وهو يشبه ما وصفنا، إلّا أنه أصل الشكر، أن يعرف العبد: أن ما به من نعمة فمن الله بقلبه، علم يقين، لا تخالطه الشكوك. فإذا عرف بقلبه ذلك، ذكره بلسانه، فحمده عليه، ثم لم يستعن بشيء من نعم المنعم على شيء مما يكره المنعم[2].

وأعلا من ذلك من الشكر: أن تعد كل بلاء نزل بك نعمة، لأن الله من البلاء ما أنزله بغيرك أشد وأعظم من الذي أنزل بك[3].

والناس يحتاجون عند ذلك إلى الصبر، وهو قائم بالشكر.

* * *

الرجاء:

وأما الرجاء فهو: أن ترجو قبول الأعمال، وجزيل الثواب عليها، وتخاف مع ذلك أن يرد عليك عملك، أو يكون قد دخلَتْه آفة أفسدتْه عليك.

---

(١) سيأتي الحديث عن البلوى في فصل مستقل.

(٢) لمعرفة المزيد من فرائض الشكر على اللسان والبصر والسمع والأيدي والأقوات والأموال والإيمان والعقل، والعلم: انظر الوصايا ص ١١٦ - ١٢٠.

(٣) يتجه المؤلف في وصاياه الى القول بالسرور بالبلاء والمصائب. وفي ذلك يقول: «فلا تحزنوا لنظر الله لكم، واعلموا أن السرور بمصائب الدنيا من ذخر الصابرين، ومحو للخطايا، وقد بلغنا عن بعض أهل العلم أنه قال: أن الذي لا يفرح بالمصيبة لما يرجو من كفارة الخطايا تقول الملائكة: داويناه فلم يبرأ». انظر الوصايا ص ٦٦، ٦٧.

والراجون ثلاثة:

رجل عمل حسنة وهو صادق في عملها، مخلص فيها، يريد الله بها، ويطلب ثوابه، فهو يرجو قبولها وثوابها، ومعه الإشفاق فيها.

ورجل عمل سيئة ثم تاب منها إلى الله، فهو يرجو قبول توبته وثوابها، ويرجو العفو عنها، والمغفرة لها، ومعه الإشفاق ألا يعاقبه عليها.

وأما الثالث فهو: الرجل يتمادى في الذنوب، وفيما لا يحبه لنفسه، ولا يحب أن يلقي الله به، ويرجو المغفرة من غير توبة، وهو مع ذلك غير تائب منها، ولا مقلع عنها، وهو مع ذلك يرجو.

فهذا يقال له: مفتر، متعلق بالرجاء الكاذب، والأماني الكاذبة، والطمع الكاذب.

والقيام على هذا يقطع مواد عظمة الله من قلب العبد، فيدوم إعراضه عنه، ويأنس بجانب مكر الله، ويأمن تعجيل العقوبة، وهذا هو المفتر المخدوع المسْتَدْرَج[1].

وأما أمثالنا من الناس فينبغي أن يكون الخوف عندهم أكثر من الرجاء، لأن الرجاء الصادق إنما يكون على قدر العمل بالطاعات.

* * *

الخوف:

والخوف على قدر الذنوب، فلو كان الرجاء يستقيم بلا عمل، لكان المحسن والمسيء في الرجاء سواء. وقد قال الله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ﴾**[2]، وقال: **﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾**[3].

ومعنى الحديث الذي جاء: «لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا»[4] ينبغي أن يكون خاصاً بين أهله، وهو قبل الحديث الآخر: «المؤمن كذي قلبين، قلب يرجو به، وقلب

---

(١) كتب المؤلف فصلاً جليلاً في الفرق بين الرجاء والعزة في كتاب «الرعاية لحقوق الله ص ٥١٦ ـ ٥٢٢» وفيه يقول: «العزة خدعة من النفس والعدو، يذكر الرجاء بالتوحيد أو بالآباء الصالحين، أو بعمل قليل ضعيف، فتطيب نفسه بتلك الخدعة حتى تهون عليه ذنوبه لظنها إنها مغفورة، فيتمنى المغفرة، ويقيم عليها ولا يتوب».

(٢) سورة: البقرة، الآية ٢١٨.

(٣) سورة: الأعراف، الآية: ٥٦.

(٤) لم نعثر على هذا الحديث فيما لدينا من مصادر.

يخاف به»[1]. فإنما هو إذا أحسن رجا، وإذا أساء خاف، مع التوبة والندم والإقلاع.

فأما من عرف نفسه بكثرة الإساءة، فينبغي أن يكون خوفه على قدر ذلك، ورجاؤه على قدر ما يعرف من نفسه من الإحسان، لأن الرجاء على قدر الطلب، والخوف على قدر الهرب[2].

* * *

(١) اخرجه الإمام أحمد في الزهد ٣٣٥ من الترتيب.

(٢) قارن بما كتبه المؤلف عن الخوف في القصد والرجوع الى الله ص ١١٠.

البلوى والاختبار

القرآن يقرر الابتلاء بالدنيا كلها:

واعلم وأيقن أن الدنيا كلها: كثيرها وقليلها، حلوها ومرّها، أولها وآخرها، وكل شيء من أمرها، بلوى من الله تعالى للعبد واختبار.

وبلواها وإن كثرت وتشعبت واختلفت فهو مجموع كله في خلّتين: في الشكر، والصبر. فإما أن يشكر على نعمة، أو يصبر على مصيبة.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرضِ زِيْنَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾[1].

وقال: ﴿**وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِيَبْلُوا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ**﴾[2].

وقال: ﴿**وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتاكُمْ**﴾[3].

وقال: ﴿**وَجَعَلْنَا بَعضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُون**﴾[4].

وقال: ﴿**خَلَقَ السَّمَواتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾[5].

وقال: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِين مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ**﴾[6].

وأكثر من ذلك في كتاب الله تعالى.

وإنما كانت بلوى آدم عليه السلام أقل من آية في كتاب الله: ﴿**وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ**﴾[7]. وهو كله لك بلوى.

* * *

أكثر الفتنة في الناس:

وإن أكثر ما بُليَ به العبد من أهل الدنيا: الناس... وأفتنُ الناس لك وأكثرهم لشغلك: إنما هو بمعارفك منهم... وأشغَل معارفك لك، وأكثرهم عليك فتنة: من أنت بين ظهرانيهم، ينظرون إليك، وتنظر إليهم، ويكلمونك وتكلمهم.

---

(١) سورة: الكهف، الآية: ٧.
(٢) سورة: محمد، الآية: ٤.
(٣) سورة: الأنعام، الآية: ١٦٥.
(٤) سورة: الفرقان، الآية: ٢٠.
(٥) سورة: هود، الآية: ٧.
(٦) سورة: محمد، الآية: ٣١.
(٧) سورة: البقرة، الآية: ٣٥.

فإنك من لم يعرفك من أهل زمانك ولم تعرفه، ولم تسمع به، كأنـك لم تُبْتَلَ بهم، وكأنهم لم يُبْتَلَوْا بك، وكأنهم لم يكونوا من هذه الدنيا التي أنت فيها.

فارْجِعْ في صبرك إلى الله، واستعن به، وانقـطع إليه، واستـأنس بذكـره، وأقلل من الخُلَطَاء ما استطعت، بـل اترك القليـل أيضاً تسلم، لقـول الله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً**﴾[1]. فاهرب من الفتنة.

فرجع صبرك إلى معارفك، ومن أنت بين ظهرانيهم، فنظرك إليهم فتنة، ونظرهم إليك فتنة[2]، وكلامك معهم فتنة، وكلامهم معك فتنة، وجفاؤك لهم فتنة، وجفاؤهم لك فتنة، وكرامتهم لك فتنة، وكرامتك لهم فتنة لك.

واعتبر من ذلك بمـوضع تمـرّ فيه، فيـه معارفـك، وموضِـع تمرّ فيـه، ليس فيه أحـد يعرفك.

وهكذا شهوات المطعم والملبس، وشهوات العين، ما يحل النظر إليه، وما لا يحل النظر إليه، مما كان من ذلك في غير البلدة التي أنت فيها، فأنت منها سليم، وفتنتها مصروفة عنك إن شاء الله تعالى، لأن مؤنتها ساقطة... وهكذا أنت في جميع أمورك.

* * *

الابتلاء في العمل:

وعملك الذي تعمل، إنما هو فتنة، أنت فيه تريد أن تُوقَى[3] أعين الناس، وأكثرهم من يعرفك بالخير، فأعمالك لك فتنة.

إن حججت فكنت خالياً ليس معك من يعرفك بالخير وتعرفه كان أسلم لك، وإلاّ فهو فتنة، فانظر كيف تسلم منها.

وإن خرجت من بلدة أنت فيها معـروف بالخيـر، فخرجت منهـا وهم لا يعلمون أين تريد، فهو أسلم لك، وإن علموا فهو فتنة، فانظر كيف تسلم منها.

وكذلك الغزو، وبلوى أهل الغزو، وما ينوبهم في مغازيهم مِّن الفتنة والبلية أعظم من بلية غيرهم، من الذين يعملون أعمال البر. وهم قبل أن يدخلوا في هذه الأشياء في عافية،

---

(١) سوورة الفرقان، الآية: ٢٠.

(٢) ليست هذه دعوة الى السلبية والعزلة، لأن المؤلف نفسه لم يكن سلبياً.. إنما هي سلبية ضد الفتنة، بأن يعاشر الناس دون أن يتأثر بالمدح والذم منهم، وقد يبين المحاسبي مذهبه في هذا الموضوع بتوسع في (الوصايا ص ١٢٥ ـ ١٥٠) فمن أراده فليراجعه فإنه مهم جداً.

(٣) في أ (أنت فيها تريد أن توقي فيها). وقد حذفنا كلمة (فيها) الأخيرة لعدم فائدتها.

فإذا دخلوها جاءت الفتنة، من التحاسد بعضهم لبعض، وطمعهم فيما يرجون من السهام، وطمعهم في الحملان[1]، وما يُجْعَلُ للناس في سبيل الغزو.

ولقد سمعت رجلاً من المذكورين من أهل الغزو، وممن لـه غناء عنـد لقاء العـدو، واسم عظيم في المطوعة[2]، ويقول: الخيل قد خرجت، ولم يُقْضَ لي الخروج فيها، أما السلامة فأحب أن يسلموا، ولكني أكره أن يغنموا وليس أنا فيهم[3].

ولقد رأيت من يغار على ما يقوى به بعض الغزاة حيث لم يُعْطَ هو وأُعطي غيره، كما يغار الرجل على بعض حُرمه. ولقد رأيت من غزا ولم يغنم، ودَّ أن لم يكن غزا.

ولا يؤمَن يا أخي على كل من دخـل في عمل من أعمـال الدنيـا والآخرة جميعـاً إذا لحقتهم في عملهم الآفات التي تفسد الأعمال، أن يُدخِل عليهم الشيطان[4] فيها من العيوب والفتن مثل هذا وأكثر من هذا.

فليحذر الرجل على كل عمـل يعمله من أعمال الـدنيا والآخـرة، وليراقب الله فيـه، ويعاملْه بضمير خالص، ويحذر اطلاع الله على فساد ضميره، ويحذر اطلاع المخلوقين على عمله، فإن كناس الحشوس أكرم من هذا الصائم وهذا المصلي وهذا القائم وهذا الغـازي الذي يكره أن ينال المسلمون من غنائم الروم، والجـالس في بيته ببغـداد يحب أن يغنموا منهم.

فاحذر رحمك الله من قَرُبَ منك وقَرُبْتَ منـه، فإن الـذين بَعدُوا منـك وبَعُدْتَ منهم سلموا منك وسلمت منهم.

يود أقوام غدا أنهم لم يكونوا سمعوا بآذانهم كثيراً من أعمالهم التي هي في رأي العين يرجى لصاحبها عليها الثواب الجزيل، والدرجات الرفيعة، ويغبطون من لم يكن عمل مثل ما عملوا كثيراً من حسناتهم، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسَبون.

* * *

---

(١) الحملان: ما يحمل عليه الغازي من الخيل أو الإبل والأموال.

(٢) المطوعة: فرق من الغزاة ينظمها المتطوعون من الشعب، من غير الجيش الرسمي.. وكانوا فيما مضى من أهل الفتوة والشطار.. ودخل في **المطوعة** فيمـا بعد فـرقٌ من اللصوص والعيـارين وغيرهم. انـظر (النجوم الزاهرة ٥/٨، ١٠٨، ١٠٩. وانظر الحيـاة الاقتصاديـة في المدينـة الإسلاميـة للدكتور عبـد الحميد العيادي، دراسة منشورة في عالم الفكر مجلد ١١ عدد ١).

(٣) هنا تظهر خبرة المحاسبي بطبقات الشعب في مجتمعه. وكذلك انظر خبرته بمجتمع التجـار في أعمال القلوب والجوارح ص ١٢٥ ومجتمع العلماء في الوصايا ص ١٥٣ وما بعدها.

(٤) في الأصول (وأن يدخل عليهم الشيطان). وقد حذفنا الواو ليستقيم المعنى.

كيف يهلك العبد بأعمال البر :

يقال: إنها أعمال من البر كانوا يَرون أنها مُنَجِّيَتُهُم، فكانت هي مُهْلِكَتُهُمْ، لما مازجها من الرياء وحب المحْمَدة من المخلوقين، واتخاذ المنازل بالطاعات، وإقامة الجاه، وحب القَدْر، والميل إلى ثواب المخلوقين.

فلما وردوا على الله عز وجل وجدوه قد أحبط أعمالهم وهم لا يشعرون، لأنهم كانوا قد تعجلوا ثواب أعمالهم من المخلوقين في الدنيا، فافتضحوا، وفضيحة ما هناك باقية، ولم يجدوا من ثواب أعمالهم إلاّ كما وجد صاحب السراب وصاحب الرماد[1].

فليس اسمُ الأعمال يُراد، ولا تزيينُ ظاهرها، ولكن تقوى الله، وما يقرِّب إليه زلفى، فليت بين العبد وبين كل عمل يباعد من تقوى الله ومن الله بُعْد المشرقين.

قال الله تعالى حكاية عن إبليس العدو الخبيث: **﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بينِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَآئِلِهِمْ﴾**[2] فلو لم يكن في الكتاب من صفات إبليس إلاّ هذا قد كان ينبغي للناس أن يحذروه.

ولو نظرت في أكثر الناس لوجدت أن أكثرهم إنما يُؤتى من قبل البرّ، وقلة العناية بتصفية الأعمال، وما قد إستَحْلَتْ النفس من حب المحمدة من المخلوقين.

وقد يؤتى قوم كثير من قبل الآثام، إلاّ أن علامة الفتنة في الناس جميعاً مختلفة. وأكثر الناس إنما يعرفون من قد فُتنَ بالآثام، ولا يعرفون من فُتِنَ بالبر، إلاّ القليل من الناس[3]، من أهل النور والفطن والفراسة والتوسم والكياسة.

وذلك: أن الذي يعمل بأعمال البر وهو يحب فتنتها أكثر من الذي يخاف فتنتها، والذي يجهل فتنتها أكثر من الذي يعلم فتنتها.

---

(١) يشير بصاحب السراب إلى قوله تعالى: **﴿... كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾** سورة النور. ويشير بصاحب الرماد إلى قوله تعالى: **﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾** إبراهيم آية ١٨. والحاصل في كلا الحالين: أن الأعمال تصبح هباء منثوراً.

(٢) سورة: الأعراف، الآية: ١٧.

(٣) وتصديق ذلك قوله تعالى: **﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾** الأنبياء آية ٣٥. وعلامة الفتنة بالخير منها ما هو ظاهر، ومنها ما هو خفي، فالظاهر مثل: الرياء بالعمل، والمسارعة إليه في العلانية دون السر. وأما الخفي فكالتواضع كبرا. إذ يتواضع العبد وهو يخفي في باطنه إرادة التعزز على الناس والشهرة بالصلاح. وكالزهد في الظاهر رغبة في جمع الدنيا من الباطن، حيث يظهر الزهد لتساق اليه الأموال لتفريغها في ذوي الحاجات، فيأخذها لنفسه.. ويقول المحاسبي في هؤلاء: «يزهدون الناس في الدنيا ليأخذوها منهم في المجالس».

ومن الناس من يعلم فِتَنَ الأعمال ومبطلاتها، ثم يغلبه الهوى، ومنهم من يعلم وتقل عنايته فيغفل.

واعلم أن الذي يعمل وقد علم الآفات التي تفسد الأعمال، ومعه العناية بنفسه وعمله، ومعه التيقظ وإزالة الغفلة، وهو مع ذلك مشفق خائف من الآفات ما يكاد يسلم إلاّ من عصم الله تعالى، فكيف الذي يجهل ويغفل، ويغلبه الهوى، ويحب دخول الآفة؟

* * *

شمول الفتنة وخطرها:

وقد طلبت الدنيا في زماننا خاصة بكل جهة: بالبر والإثم جميعاً افتتاناً، فاحذر فتنة البر والإثم جميعاً، لئلاّ ينزل بك ما نزل بغيرك في الترك والطلب.

فلتكن همتك في النظر في مرآة الفكر كالهِمّة بالعمل[1]، وأكثِرْ من ذلك، فإنه ليس شهوات الذنوب والسيئات، وشهوات المطاعم والمشارب والملابس والبناء والمراكب والمناكح والذهب والفضة بأغلب على أصحابها من شهوات الجاه وحب الرئاسة، وإقامة القدر، واتخاذ المنزلة، وقبول الأمر والنهي، وقضاء الحوائج، وحب العدالة عند الجيران والأصحاب والإخوان، والمِدْحة على أصحاب البر في حسناتهم.

وقد تجد الرجل يغلب شهوة الذنب، فيترك الذنوب، ويصير إلى أعمال البر، فيضعف عند تصفيتها، وتغلبه شهوة ما فيها، فيعمل حسنات كثيرة بقوة واقتدار عليها، وظمأ شديد وسهر، فلا يقدر على أن يغلب شهوته على تصفيتها[2]، فإنّا لله وإنا إليه راجعون مما قد نزل بنا، وما أعظم خطرنا، وما أغفلنا عن عظيم الخطر!!

* * *

---

(١) يريد بالفكر: متابعة الخواطر المصاحبة للعمل، ووجوب مراقبة هذه الخواطر، وتصفيتها كما يراقب العمل ويصححه. وأصل المراد من هذه المراقبة: أن تكون إرادة العمل خالصة لله وحده، وأن يكون تمام العمل وآثاره راجعاً الى الله لا إلى قوة العامل. وانظر (الوصايا ص ٦٦، ٧٢، ٧٨، ٨٥، ١٠٠، ١٠٢، ١١٣).

(٢) يريد أن العامل لا يستطيع أن يغلب شهوته على تصفية الأعمال من شهوات القلوب التي ذكرها وشيكاً، وهي: الجاه وحب الرئاسة وإقامة القدر واتخاذ المنزلة وغيرها.

وقد تطورت هذه الظاهرة في عصرنا الى أن من لا يحسن الوضوء ولا الصلاة صار يطلب هذه المنازل والمقامات، ويغضب أشد الغضب إذا لم يقر له الناس بما يريد.. وأعرف في مصر أسرة بأكملها مصابة بهذا الداء الخطير.. ومثل هؤلاء أشد خطراً على الإسلام ممن عناهم المحاسبي رحمه الله.

احذر خداع الشيطان وهوى نفسك:

ثم اعلم أني لست أزهّدك في طلب أعمال البر، لأن كل عمل لا تعمله اليوم لا تجد ثوابه غداً، ولكني أحذرك خداع الشيطان، وهوى نفسك الأمارة بالسوء[1].

وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه... وقد قال تعالى:

﴿فَإِذَا قَرأتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[2].

وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[3].

وقال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[4].

وقال: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾[5].

وقال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾[6].

وقال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[7].

وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾[8].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾[9].

وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إن اللهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[10].

وقال: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[11].

وقال: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعو أَهْوَآءَهُمْ﴾[12].

مع أشياء كثيرة في ذكر عداوة إبليس، وذم النفس والهوى.

* * *

---

(١) ومن خدع الشيطان وهوى النفس أن يعمي العامل ويصم عن آيات القرآن التي تحذر من النفس وخدع الشيطان. وقد ذكر المؤلف قدراً منها كما ترى.. ومنها أن يلقي في روعه: أنه يعمل للقدوة والقدوة تقتضي إظهار العمل، ثم يدس إليه الفتنة.. ومنها تحت ستار الدعوة إلى الله، فيمزق الناس وحدة المسلمين بإنشاء جماعات بغية لشهوة الرئاسة والسمعة.

(٢) سورة: النحل، الآية: ٩٨.

(٣) سورة: فاطر، الآية: ٦.

(٤) سورة: يوسف، الآية: ٥٣.

(٥) سورة: طه، الآية: ٩٦.

(٦) سورة: المائدة، الآية: ٣٣.

(٧) سورة: يوسف، الآية: ٨٣.

(٨) سورة: قَ، الآية ١٦.

(٩) سورة: صَ، الآية: ٢٦.

(١٠) سورة: القصص، الآية ٥٠.

(١١) سورة: الكهف، الآية: ٢٨.

(١٢) سورة: القمر، الآية: ٣.

مراجعة النفس

كيف يعرف الإنسان سلامته من الآفات:

قلت: إني أرى من الناس أشياء يُعاب مثلها، وأحب أن أسْلَمَ من التَّعيير والازدراء والعيب، فلا أدري أَسَلِمَتْ منه نفسي أم لا.

فقال: إن الإنسان عند معرفة عيب نفسه أبْلَه، وعند معرفة عيب غيره جِهْبِذ، فيحتقر عيب[1] أهل كل صناعة، وأهل كل عمل من أعمال الدنيا والآخرة، ويحتقر عيب[2] من هو في مثل مرتبته، ويستعظم ذلك من كل من رآه منه، فإذا أتى على عيب نفسه جازه[3] إلى عيوبهم كأنه أعمى عنه لم يره.

وهو يطلب العذر لنفسه، ولا يطلبه لغيره، فهو في طلب عذرها جِهبيذ، وفي طلب عذر غيرها أبلَه... وهو يضمر عند ذلك لصاحبه ما يكره أن يضمر له غيره لو رأى منه مثل ذلك العيب[4].

فإذا رأيت عيباً أو زلة أو عثرة من غيرك، فاجعل نفسك مكانه، ثم أنظر الذي كنت تحب أن يستقبلك به لو رأى منك مثل الذي رأيت منه، وأضمر ذلك له في نفسك، فإنه يحبّ منك مثل ما كنت تحبه منه.

وهكذا إذا رأيت ما يستحسن، فأردت أن تعرف علم السلامة من الحسد له[5].

وبالحرِيّ أن يكون أخفّ الناس عليك عند الزلة من يطلب لزلتك عذراً ومخرجاً، فإذا لم يجد للعذر موضعاً ساءه ذلك، وأخفى مكانه[6]. وعند حسنتك يُسَرّ،فإن لم يُسرّ لم تسؤهُ.

فهكذا فكن لهم عند الزلة وعند الحسنة. فإذا كنت كذلك فلا تحب إزالة نعمة أنعمها

---

(١) في الأصول (فلا يحتقر) خطأ.

(٢) في الأوصل (ولا يحتقر). خطأ.

(٣) جازه: تركه ولم ينتبه اليه.

(٤) مثال ذلك مما هو شائع أن ينظر عبد الهوى والنفس الى رجل كان مقيماً على ذنب تاب منه على أنه مذنب عاص مدى حياته، وربما كان هذا العبد مقيماً على أشنع من هذا الذنب بينه وبين نفسه.

(٥) علم السلامة من الحسد هو: النصح للمسلمين. وهو أن تحب ان يكون خيراً منك، وأن تسر له، لأنه يكثر العاملين بالخير، ويكثر صلحاء المسلمين.

(٦) يعني: وكذلك من أخف الناس عليك من إذا لم يجد لزلتك عذراً استاء في نفسه، واخفى زلتك كما تخفيها أنت.

الله على أحد في دين ولا في دنيا، ولا تحب أن يقيم أحد على معصية الله تعالى، ولا تحب أن يُهْتَك سِتْرهُ عن زلَّته، فإنك إذا فعلت ذلك بقلبك، زال عن قلبك الحسد، عن الدين والدنيا جميعاً.

ومتى غلبَتْ عليك المسابقة إلى ضميرك بسوء المحضر، فلا تُغلِبَنَّ على مشاهدته بحسن المراجعة من جميع أمورك.

* * *

علم السلامة بالمراجعة والتفتيش:

واعلم أنك مسبوق إلى ضميرك بالحسد، وسوء الظن والحقد، فاجعل المراجعة شُغْلًا لازماً، وكن وقَّافاً كما قال الأول: المؤمن وقاف. وليس كحاطب لَيْل.

فقِف وطالع زوايا ضميرك بعين حديدة النظر، نافذة البصر، فإذا رأيت أمراً محموداً فاحمد الله، وامض، وإذا رأيت مكروهاً داركته بحسن المراجعة، واستقصيْت فيه، فإن الذي دخل بيتك ولم يستأذنك سوف يختبىء فيه[1]، وإن كان مظلماً فأنت لا تشعر، إلَّا أن يكون معك سراج من العلم مضيء واضح، ويكون معك من العناية بأخذه والإنكار لما دخل فيه ما لا صَبْرَ لَهُ عليه، ولا طاقة له به.

ولو قد جرَّبْتَ لعرفت أن الذي أقول لك كما أقول.

يدخل داخل منزلك بغير إذنك، وهو داخل لا يؤمَن أن يُخْرِب المدخول عليه، فإن رأى الداخل منك توانياً وتهاوناً كان هو المقيم بالمنزل، المدبّر له، فاستولى على حُرّ بيتك، وعلى حرمتك، وإن رأى منك إنكاراً فيه ضَعْفٌ اختفى لك ليمس سهوتك وغفلتك، فإذا وجد فرصة خرَّب عليك ما كنت أصلحت، وهدم ما بَنَيت، فافهم إن كنت تفهم، واقبل النصح من الناصحين إن كنت تقبل.

فلو رحلت فيما أخذت المطايا، فبلغت حيث تبلغ من البعد، وأنفقت في سبيل ذلك حُرَّ بيتك، كان الذي أخذت أكثر من الذي أنفقت وتعبت[2] فإنك تجد الخير الكثير في

---

(١) يريد بالذي دخل بيتك: هوى النفس وخداعها. . وهو لا يدرك ولا يعرف إلا بالعلم. أما الجهلة فيرون ما هو الإبداع من النفس حقيقة ومنهجاً سوياً.

(٢) يريد: أنه مهما أنفقت وتعبت ورحلت في طلب العلم الذي يساعدك على الانكار على العدو، ويفرق لك بين ما ينكر وما لا ينكر، يعرفك علوم السلامة من أمراض القلوب، فإن ما تحصل عليه من الفائدة اعظم مما بذلت من الجهد.

ميزانك يوم القيامة بصدق المراجعة ومبادرتها قبل أن تبرد عنـك حلاوتهـا[1]، فإنهـا موهبـة عظيمة من مواهب الله تعالى، أكرَمَ بها أهل خاصته، وعظَّم النعمة عليهم فيها، فـإن عِظَمَ النعمة على قدر الحاجة.

فانظر هل راجعت نفسك وأمرك إلّا وقد وجدت فيه موضع مَرَمّة ومصلحة، أو وجـدت مفسوداً بعينه، فلو لم تلحقه بالمراجعة لكان ذاهب إلى يوم القيامة.

* * *

المراجعة أساس السلوك الصحيح:

واعلم أني إنما أُكثِر عليـك وعلى نفسي من ذكر المـراجعة لمـا قد استبـان لي من الإضطرار والحاجة إليها، فلو قد تعلَّقت بشيء من الخير فيها يكون ونسبتها[2]، وإلَّا فلا... وما تركك لها إلَّا كالمستأنس لعدوه، والمسلم نفسه إليه، فهلكت وأنت لا تشعر.

وإن كنت متهاوناً بما أقول لك، فإن أكثر حاجتك إليها في صلاة الفريضة، ثم بعدها، وهلم جرّا في جميع أمورك.

ولو كنت ممن يتفقد أمره لعلمت ماذا دخل عليك من الندامة والحسرة، حيث فارقتك المراجعة في صلاة الفريضة، فلم تَدْرِ ماذا قرأ إمامك، ولم تدرِ أفي فرض كنت أم في نافلة، في صلاة كنت أم في غيرها، وأنت في رأي العين ممن يناجي ربه.

قد أصْغَيْتَ بأذنيك إلى إمامك، وتخشَّعت بوقوفك، وفرَّغت قلبك لاستمـاع ما يقـرأ إمامك من كلام ربك في صلاة فريضتك، التي ليس شيء أوجب عليك منها، فرجعت منها وقد ظهر منك ما وصفنا، وأنت كمن لم يشهدها، لقلة ضبطك بالمراجعة لنفسك فيها[3].

ولعل الذي حضرتَ منها بقلبك، أو عقلتَه فلم تَسْهُ عنه، لو قيل لك: أتحب أن يكون ذلك منك كما كنت ساهيـاً ولك مائة ألف دينار، لقلت: لا.

فاعتن الآن بتعاهد هذه المراجعة على قدر ما عرفت من حاجتك إليها، فإنما لك من عمرك تيقظك، وتيقظك: مراجعة ما فيه منفعتك وقُرُبَتُك، والمصير إليه بالعقل، وما سوى

(١) يعني: لا تكفي المراجعة ثم السكوت عنها بعد ذلك، فلا بد من مبادرتها وملاحقتها ومتابعتها قبل ان تبرد آثارها.. لأن الركون الى السخاء يبلد الطباع، ويوقع في الكسل عنه.

(٢) أي: أن تعلقك بالخير يحقق لك الخير بنسبة ما يصاحبه من المراجعة وإن لم تكن مراجعة فلا يكتمـل الخير من العمل.

(٣) وفي هذه الورطـة يقع الكثيـرون من الذين يصلون على حكم العـادة فيعنون بكـل شكليات الصـلاة، ويهملون جوهره تماماً، في الوقت الذي يتظاهرون فيه بالخشوع والإخبات ظاهراً بلا حقيقة.

ذلـك غفلة وسهو يـؤديـان إلى شهوة فيهـا غليان قلبـك، وفي ذلك مـوافقة نفسـك الأمارة بالسوء، والهوى المضل عن سبيلِ الله، العادل بأهله عن طريق محبتـه، وفي ذلك تـَوَثُّب العدو الخبيث الذي لا يألوك خبالاً، الذي يجري، منك مجرى الدم، الذي يراك هو وقبيله من حيث لا تراهم.

قال مالك بن دينار[1]: «قلوب الأبرار تغلي بأعمال البر، وقلوب الفجار تغلي بأعمال الفجور»[2]. فتعاهد أمرك بالمراجعة. فإن دأبت مكروهاً أصلحته وتحوَّلت عنه، وإن رأيت غير ذلك حَمِدْت الله، وكانت عنايتك بذلك زيادة لك، أو قربة[3].

وإذا رأيت لك عناية بالمراجعة فاعلم أنها نعمة وقربـة من أعظم نعم الله. وأحق من أحسنت صحبته نعم الله التي مفتاح خزائنها رحمة الله. فالتمس الزيادة منها بالشكـر عليها، وأحق من أسأت صحبته نفسك الأمارة بالسوء، والإساءة إليها مخالفتها، فإن في مخالفتهـا موافقة مرضاة الله.

* * *

التهاون في اليسير يوقع في الكبير:

قلت: فمن أهل الإرادة؟

قال: من لم يَتَخَطَّ عيباً ولا عَوْرة إلى نافلة[4].

قلت: فما حفظ اللسان؟

قال: الصمت.

قلت: فما الاحتياط في التحفظ عند الكلام؟

---

(١) مالك بن دينار البصري أبو يحيى، من رواة الحديث، كان ورعاً، يأكـل من كسبه، ويكتب المصـاحف بـالأجرة، تـوفي بالبصـرة، انظر (وفيـات الأعيان ١/ ٤٤٠ وحليـة الأوليـاء ٢/ ٣٥٧ وتهـذيب التهـذيب ١٠/ ١٤، ١٥).

(٢) يريد بغليان القلوب ثوران العواطف والوجدان. وبيان عاطفة الخير وعاطفة الشر. وتـكـون عواطف الخير بالمراجعة الدائمة، وتـكون عواطف الشر باهمال المراجعة.

(٣) أي أن المراجعة في ذاتها قربة لها ثوابها، فإن صدقت وآتت ثمارها كانت قربة أخرى.. وإن كان القلب نظيفاً من الشرور كان للعامل ثواب المراجعة.. فهي مثل النية، لها ثوابها المستقل عن العمل.

(٤) يريد أن يقول: أن إصلاح العيـوب والعورات فـرض، وعمل البـر نافلة، وأهـل الإرادة لله لا يتخطون الغرض ويهملونه الى عمل النوافل.. أي أن التطهير اولى من عمل النوافل.. وانظر في ترتيب الأعمال حسب أولويتها وأهميتها باب من يبدأ به من الفرائض من (الرعاية لحقوق الله ص ١١٣ وما بعدها).

قال: ترك ذكر عيب من غيرك ترجو على ذكره إذا ذكّر به الثواب[١]، لكيلا يخرجك ذلك إلى ذكر عيب[٢] من غيرك تخاف على ذكره العقاب، وخذ نفسك بهذا الباب أشد الأخذ، واحمل عليه من الناس من استرشدك، وأراد مثل الذي تريد.

فإن العبد إنما يؤتى من قبل التهاون باليسير، وهو الذي يوقع في الإثم الكبير، والتهاون باليسير هو الأساس الذي يبني عليه الكثير. فيكون أوله كان تحفظاً، ثم صار انبساطاً، ثم صار من الانبساط إلى ذكر اليسير، ثم صار من اليسير إلى ما هو أكثر منه، فلا تشعر حتى ترى نفسك حيث كنت تكره أن ترى فيه غيرك، ففي ترك اليسير ترك اليسير والكثير.

وأقوى الناس على ذلك وأصدقهم عزماً هو الذي إذا عزم أمضى عزمه ولم يلْوِ، وأضعف الناس في ذلك أضعفهم عزماً، وهو الذي يعزم ثم يحلّ عزمه ولا يكاد يمضي عزماً.

فهذا الذي يتلاعب به الشيطان والهوى والنفس، ليس له عندهم قدر، لكثرة معرفتهم بتناقص عزمه، وقلة استعماله، وأولو العزم من الناس أفاضل الخلق من كل طبقة.

* * *

(١) يعني: كما إذا رجوت بذكر هذا العيب النصيحة، ورد المسلم إلى صواب، فهذا من عليه الثواب، ولكن له أولى، لئلا يخرجك الى الإثم بذكر عيوب تحتمه.. وليس معنى هذا ترك النصيحة للمسلم، ولكن النصيحة جبة بالتعريض، دون ذكر العيوب منسوبة الى أصحابها، أما أن تقترن النصيحة بذكر عيوب المنصوح فلا.

(٢) ومن ظواهر هذا العيب: ما نراه ونسمعه من خطباء بعض المساجد وبعض الوعاظ من بناء عملهم على ذكر الفضائح والعيوب، والتشهير بالمسلمين.. ومن العجيب أن الناس يحبون منهم ذلك، ويجتمعون حولهم لهذا السبب.

القريب من التوبة والبعيد منها

صدق الندم وعلامته:

قلت: فمن أرْجا الناس لقبول التوبة منهم؟

قال: أشدهم خوفاً، وأصدقهم ندامة على ما كان منه، وما شاهده الله واطلع عليه من زلله، وخطله[1]، وطول غفلته، ودوام إعراضه، وأحسنهم تحفّظاً فيما يستقبل. وإن استووا في ذلك فأشدهم اجتهاداً في العمل.

لأن علامة صدق الندم على ما مضى من الذنوب: شدة التحفظ فيما بقي من العمر، ومواثبة الطاعة بالجد والاجتهاد، واستقلال كثير الطاعة، واستكثار قليل النعمة، مع رقة القلب، وصفائه وطهارته، ودوام الحزن فيه، وكثرة البكاء، والتفويض إلى الله تعالى في جميع الأمور، والتبرّي إليه من الحول والقوة، ثم الصبر بعد ذلك على أحكام الله عز وجل، والرضا عنه في جميعها، والتسليم لأموره كلها[2].

* * *

الخطأ في طريق التوبة ونتائجه:

وقال لي: قد علمت من أين غلطت: أحسنت الظن بنفسك، فتاقت إلى درجات المحسنين بخلاف سيرتهم، من غير إنكار منك عليها لمساوىء أعمالها، ولا دفع لما ادَّعته من أعمال الصادقين[3].

وأسأت الظن بغيرك، فأنزلتهم في درجة المسيئين، إغفالاً منك لشأنك، وتفرغت للنظر في عيوب غيرك[4].

فلما كان ذلك منك كذلك، عوقبت بأن غارت عيون الرأفة والرحمة من قلبك،

---

(١) الخطل: الخطأ في الرأي والعمل.

(٢) قارن ما كتبه المؤلف عن الحزن في (القصد والرجوع الى الله ص ٩٦، ٩٧) وفيه: أن الحزن يستجلب بالفكر من الذنوب السالفة، وأخذ القلوب بحقوق الله الواجبة، وبمعرفة الخلاف على الله تعالى.

(٣) ليس المراد دفع العمل، وإنما المراد دفع ادعاء العمل كذباً ونفاقاً وأدعاء الصلاح دون عمل الصالحين، وهو داء شائع بين المشتغلين في حقل الدعوة الإسلامية.

(٤) ومن هذا أن يعير المذنب بذنب عمله ثم تاب عنه. فيكون الله قد قبل توبة المذنب، وهذا المدعي الكاذب يعيره به، ويشهر به من أجله.

وانفجرت إليه أنهار الغلظة والقسوة، فأحببت أن تنظر إلى الناس بالإزراء عليهم، والاحتقار لهم، وقلة الرحمة، وأردت أن ينظروا إليك بالتعظيم والمهابة والرحمة. فمن وافقك منهم على ذلك نال منك قرباً ومحبة، ونلت أنت من الله تعالى بعداً وسخطاً، ومن خالفك فيه ازداد منك بعداً وبغضاً، وازددت أنت من الله بعداً وسخطاً.

وأطلت في ذلك كله أملك، فطاب لك المسير في طريق التسويف، ومدارج الحَيْرات، فاشتدت رغبة نفسك، واستمكن الحرص من قلبك، فعظُمَت لذلك في الدنيا رغبتك، وشحَّت، فجمحت إلى شهواتها، واحتَوَشَتْ قلبك لذاتها، فحال ذلك بينك وبين أن تجد حلاوة سلوك طريق الآخرة.

فقلبك حيران على سبيل حيرة[1]، قد اشتبهت عليك سبل النجاة، وشقق حجاب الذنوب، فأنست لقربها، وطاب لك شم ريحها[2]، فوصلت بذلك إلى محض المعصية، فادعيت ما ليس لك، وتناولت ما يبعد مرامه من مثلك[3].

ثم أخرجك ذلك إلى أن تكلمت لغير الله، ونظرت إلى ما ليس لك، وعملت لغير الله، فكنت مخدوعاً مسبوعاً[4] عند حسن ظنك بنفسك وأنت لا تشعر، ومستدرجاً من حيث لا تعلم، فكان ميراث عملك: الخبث، والجريرة، والغش، والخديعة، والخيانة، والمداهنة، والمكروه، وترك النصيحة، وأنت في ذلك كله مظهر لمباينة ذلك.

فمن كانت هذه سيرته، فلا ينكر أن يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب.

فلو كان لك يا مسكين أدنى تخوّف، لبكيت على نفسك بكاء الثكلى المحبة لمن أثكلت، ونُحْتَ عليها نياحة الموتى حين غَشِيَكَ شؤم الذنوب.

ولو بكى عليك أهل السموات وأهل الأرض لكنت مستوجباً لذلك، لعظَم مصيبتك.

ولو عزاك عليها جميع الخلق تعزية المحْروب المسلوب لكنت مستحقاً لذلك، لأنك قد حُرمت دينك، وسُلِبت معرفتك بشؤم الذنوب، فركبك ذل المعصية، وأثبت اسمك في ديوان العاصين، واستوحش منك أهل التقوى، إلّا من كان في مثالك.

فأخذ الذين أرادوا الله وحده في طريق المحبة له، وسلكوا سبيل النجاة إليه. وأخذتَ

---

(١) يعني: أصبح قلبك في حيرة، لأنه سلك طريق الحيرة، لا يعرف فيها الحق من الباطل.

(٢) نعم. قد تكون للمعاصي روائح مادية كالخمر والزنا والمخدرات.. وقد يكون لها روائح **معنوية** يحس بها العاصي، وينفر منها المطيع، ويدل على ذلك ما جاء من حديث المعراج من روائح المذنبين.

(٣) الذي يبعد مرامه من قبله هو درجات المحسنين التي تاقت نفسه للوصول اليها.

(٤) مسبوعاً: متعرضاً للخطر كما تتعرض للسباع.

في غير طريقهم، فملت حين خالفت طريقهم إلى غيره، فبقيت متحيراً، وعن وجع الإصـابة متبلداً..

وبمثل هذه الأسباب التي اشتملت عليها طريقتك يستدل على خسران القيامة، وبالله نعوذ، وإياه نسأل عفـواً وتقريباً مع المحسنين، إنه لطيف خبير.

* * *

المعرفة بلا عمل وسيلة للعمل

قلت: أما تخاف أن تكون هذه المعرفة حجة عليك؟ والاشتغال بوصفها خدعة من الشيطان[١]، طويلةً وصَدّاً عن نفعها؟

فقال: واسوأتاه من غفلة واصفها عن محاسنها، ومِنْ رَامٍ رمى فلم يُخطىء حيث أراد[٢]، فأما الأمن فمحرَّم، وأما الخوف ففرض على من يؤمن بالله واليوم الآخر، وبالوعد والوعيد.

وقد علمت أن القصد إلى نفس المحبة، والعناية بها، أبلغ لصاحبها، وأكثر له في المنفعة منه بوصف المحبة، لأن طلب نفس المنفعة غير طلب وصف المنفعة. وإنما اشتغلتُ بالوصف اضطراراً، حيث رأيتُ نفسي خارجاً منهما جميعاً، فاعتنيت بمعرفة وصفها، والهداية إليها، رجاء أن يوصلني إلى نفس المنفعة، والهداية إليها[٣]، والله المستعان على ما نقول وما نضمر.

خلاصة المعارف:

وإن العبد بين تسع مخاوف:

فأولاها: أن يخاف ويدعو الله، ويتضرع إليه: ألا يَكِلَهُ إلى حسناته التي يتعزز بها في عباد الله ظلماً وعدواناً.

والثانية: أن يخاف من كفران النعم التي قد غلب عليه البَطَرُ بها[٤]، فأشغله عن الشكر عليها.

والثالثة: خوف الاستدراج بالنعم وتواترها[٥].

---

(١) يعني: مجرد العلم بخداع النفس، وكيف تقوده الى الهلكة، والعلم بالآفات المفسدة للعمل، الى غير ذلك من معارف السلوك.

(٢) يوازن بين من يصف المعارف ويعلمها، ويغفل عن تطبيقها والانتفاع بها، وبين الرامي الذي يرمي فلا يخطىء الهدف، يعني الذي يستعمل المعارف فيصيب حيث يريد. . فلا يستوي هذا وذاك.

(٣) يعني: أنه اشتغل بوصف المعرفة من باب مذاكرة العلم التي قد تصل بصاحبها الى حقيقة العلم. انظر (ضمرة الحان للنابلسي ص ٥٦). وقد سبق للمؤلف هنا: أن اسم الشيء غير نفس الشيء. . وإن الإنسان يحب اسم الخير، ويكره نفس الخير. ويكره اسم الشر ويحب نفس الشر.

(٤) البطر: احتقار الحق ودفعه تجبراً.

(٥) الاستدراج بالنعم: أن يعطي العبد من خير الدنيا وهو مقيم على الشر، فيظن ان عطاءه انما هو من رضا =

والرابعة: خوف الله أن يبدو له غداً من الله ما لم يكن يحتسب، في طاعاته التي يرجو ثوابها، ولم يعُدّها من ذنوبه.

والخامسة: الذنوب التي عملها، واستيقن بها فيما بينه وبين الله تعالى.

والسادسة: تبعات الناس قِبَله(١).

والسابعة: أنه لا يدري ما يحدث له في بقية عمره.

والثامنة: أن يخاف تعجيل العقوبة في الدنيا، والنكال فيها قبل الفَوْت.

والتاسعة: الخوف من علم الله تعالى فيه، وفي أي الدارين أُثبتَ اسمه في أم الكتاب.

فاحذر الذنوب فإن شؤمها قريب، وظلمتها شديدة، واحذر الحسنات التي تباعد بينك وبين طريق الصالحين(٢)، فما أقرب القارىء(٣) المتعبد بغير معرفة أن يتكبر على عباد الله عز وجل، ويَمُنُّ على الله سبحانه وتعالى بالحسنات التي لو وكله إليها كان فيها هلاكه، وما أقربه من أن يطلب الناس بما أراده الله منهم من الطاعة له عز وجل، والإجلال والإعظام، والقدر العظيم.

ولا يؤمن على القارىء غير الفقيه أن يسيء إليهم، ويطلب منهم الإقرار بالإحسان، ويعطيهم من نفسه ما أراد الله منه.

إن الله تعالى أراد منه: أن يتزين له، ويتعبد له، ويخلص له العمل وحده، فأعطى هو للمخلوقين ذلك من نفسه.

* * *

= الله عليه. والله تعالى يقول: (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم ان كيدي متين).

(١) يعني: ما نهب من مالهم، وما استحل من عرضهم، أو غيبتهم، وغير ذلك من حقوق الناس.

(٢) يعني: الحسنات المقترنة بالكبر والعجب كما سيشرحه في سياق الحديث.

(٣) سيأتي في باب (اليقين والعز) ما يجره الكبر على القراء من آثام العجب بالطاعة.

المدح والذم

الفرق بين الرياء وحب المدح وكراهة الذم:

قلت: الرجل يقول: إنه ممن لا يريد بعمله جزاء ولا شكوراً، وهو معروف بأعمال البر: بالصلاة، والصدقة، والصيام، وغير ذلك. وقد مدحه قوم فسرَّه ذلك جداً، وفرح به، وذمَّه آخرون فساءه ذلك جداً وكَرهه، حتى عرف من نفسه التغيّر لكلا الفريقين جميعاً، كيف يعرف هذا نيَّته وحب المحمدة وكراهية المذمة ثابت في قلبه؟ والمرائي يحب الثناء، ويكره المذمة.

قال: إنه لا يجب على الناس أن يكرهوا الثناء الحسن والمحمدة، ولا يجب عليهم أن يحبوا المذمة، عملوا الحسنات أو لم يعملوا، إذا لم يكن ذلك منهم من معنى فاسد، لأن المرائي وإن كان يريد (العمل) على أن يحب المحمدة ويكره المذمة، فإن الصادق لا يجب عليه أن يكره الثناء ويحب المذمة.

وإن أكثر الصادقين قد مدحوا، وأثني عليهم، ولم يضرهم ذلك شيئاً.

وإنما الفرق بينهما: أن المرائي إرادته وأمله في عمله جاه الدنيا، والمنزلة عند أهلها، فأفسد عمله بنيَّته وإرادته، نال الذي أراد من ذلك أو لم ينله، حمدوه على عمله أو لم يحمدوه، ذموه أو لم يذموه.

وغير المارئي إنما كره المذمة لحال ما فيها من الكراهية، مثل السقوط من أعين الناس، والبغضة والمقت من المؤمنين، وأشباه ذلك، والثناء الحسن، والقول الجميل أحبه لموضع ستر الله ،ولما جاء من الرجاء في الثناء الحسن، والقول الجميل، والمحبة من الناس، ومودتهم له، وكان اعتقاد نيته وعزمه في أول أمره وآخره. ألا يريد بذلك إلّا وجه الله وحده، والدار الآخرة، حمدوه أو ذموه، أحبوه أو أبغضوه[1].

---

(١) قال المؤلف في الرعاية ص ٢٦٨ وما بعدها كلاماً أوضح من هذا. قال:

١ ـ قد يسر إذا أطلعهم الله على عمله وقد كان هو يستره عنهم ،فأبى الله إلا أن يطلعهم، يسر بما يرى من نعمة الله بستره القبيح وإظهار الجميل. . لا سروراً بحب حمدهم على طاعة الله، ولكن بستر القبيح وإظهار الجميل. . وهذا سرور غير مذموم.

٢ ـ السرور والحمد على الطاعة إذا ظهرت من المطيع، لأنه يجب ان تكون قلوبهم محبة لكل مطيع لله إلا لأنه بذاته أطاعوه.

٣ ـ يسر بستر القبيح وإظهار الجميل رجاء ان يكون دلالة على الستر يوم القيامة.

الخوف من تحول النية:

وربما كان اعتقاد الرجل عند عمله: إرادة الآخرة، ثم ينتقل قليلاً قليلاً إلى إرادة الدنيا. وذلك أنه شيء خفي، والعامة تقل معرفتهم به، وعنايتهم بذلك، وتكثر غفلتهم وسَهْوتهم عنه، وقد كان ينبغي أن تكون عناية المؤمن بذلك أكثر من عنايته بما يعمل من الأعمال الظاهرة، لأن أعمال الجوارح لا يمكنه أن يقلبها، ولا يغيرها عن حالها، والنية لا يأمن عليها الفساد وإن كانت صادقة صحيحة: أن تتحول من أحسن ما كانت عليه إلى أقبح ما تكون عليه، وأفسد لعمل صاحبها.

وقد قال النبي ﷺ: «الأعمال بالنية، وإنما لامرىء ما نوى»[1].

فالأعمال بالنية تكون، وعن النية تكون، فالعبد أحوج إلى معرفة النية، ومعرفة فسادها، إذ كانت الأعمال إنما تصح بتصحيحها، وتفسد بفسادها، وإن جميع ما نذكره إنما هو وصف للعمل، وللحقيقة والصحة علامات غير هذا.

وإن الأعمال كلها عملان: عمل تمكن فيه النية، وعمل لا تمكن فيه النية. والعمل لغير طاعة الله أو على غير سنة رسول الله ﷺ لا تمكن فيه النية. والذي تمكن فيه النية عمل في طاعة الله على السبيل والسنَّة. والناس فيه صنفان:

صنف يعرفون النية، وصنف لا يعرفون النية.

والذين يعرفونها صنفان:

صنف يقنعهم النظر فيها بالجزاف والأماني، وصنف لا يأتمنون أنفسهم عليها، ولا يعنون إلَّا بما يصح لهم من ذلك عند الميزان، وهو المحنة، محنة نفسك.

وجوب الدقة في مراقبة القلب:

ومن الناس من يرى أنه يكره المحمدة والثناء إشفاقاً على عمله، وخوفاً من فتنته، فلا يعبأ بما يخيّل إليه من ذلك ويظن، لأن كثرة ما يظن الناس من ذلك ليس كما يظنون، حتى ينظروا إلى تحقيق صدقه عند البيان[2].

= أما السرور باطلاعهم ليحمدوه ويبجلوه فهو السرور المذموم. وقد يكثر هذا فيمن يسر باطلاع الناس وتعظيمهم الطاعة رجاء ان يقتدوا به، ويعملوا مثل ذلك العمل، فربما تحولت النية من هذا المقام الى الإعجاب.

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) والفرح بالثناء أو الكراهة للمذمة هو تابع للفرح بالعمل نفسه. ويقول المحاسبي: أن العبد يفرح لتوفيق الله إياه على العمل، ومعونته له، واستعماله إياه، بما عرفه ووفقه وقواه وهداه وأرشده، فيزداد لله شكراً، =

فليراجع (العبد) نفسه إذا أُثنيَ عليه أو مُدح، أو ذموه أو نسبوه إلى ما يكره، فإن كان ما أعجبه من الثناء والمدحة إنما أعجبه لمعنى ما قلنا من الستر، والرجاء في الثناء الحسن، والقول الجميل، لمثل قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾[1]. ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾[2]. قال الثناء. وقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾[3]. قال: الثناء الحسن. وقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾[4]. قال: الثناء الحسن.

وقال النبي ﷺ في الرجل يعمل العمل يريد به وجه الله فيحمده عليه الناس، ويثنون عليه به، فقال: «تلك عاجل بُشْرى المؤمن»[5]. وقوله ﷺ في العبد إذا أحبه الله: «لم يخرجه من الدنيا حتى يملأ مسامعه مما يحب»[6]. وقوله: «أنتم شهداء الله في الأرض»[7]. وأشباه ذلك في الكتاب والسنّة.

فإن كان سروره بما ذكر به من الخير شكراً لستر الله عليه، وحمداً منه لله إذْ جعله الله عز وجل ممن يُذكر بعلامة الخير، فليس ذلك بسرور فاسد، ولكنه شكر وطلب مزيد.

وعلامة سلامة نيته في ذلك: أن يزداد لله تواضعاً، ولآلائه شكراً، وفي طاعته اجتهاداً. ومع ذلك ينبغي أن يرد نفسه إلى طريق المخافة من الاستدراج، ويكون ما خفي من عمله أحب إليه مما ظهر، مخافة ما يلحق أهل الصلاح من الفتنة فيما يستمعون من المدحة والثناء، ولما جاء من النهي والكراهة والتزكية والمدحة أن يسمع صاحبه... وذلك مثل قوله ﷺ: «من مدح أخاه في وجهه فكأنما أمرَّ على حلقه موسى رميضاً»[8] ومثل قوله عليه السلام: «لو سمعك ما أفلح»[9]. ومثل قوله ﷺ: «عقرت الرجل عقرك الله»[10]. وهذا نحوه كثير.

فإذا كان مذهبه ونيته شكر الله على ستره، وحمد الله على نعمته، ويكون ما سبق من

= ويعلم أنه فضل من الله ونعمة. انظر (القصد والرجوع الى الله ص ٦٩).

(١) سورة: طه، الآية: ٣٩.

(٢) سورة: العنكبوت، الآية: ٢٧.

(٣) سورة: النحل، الآية: ١٢٢.

(٤) سورة: الشعراء، الآية: ٨٤.

(٥) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٢٨/٩ وعزاه الى الطبراني وقال: اسناده حسن.

(٦) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٥٠٤/٢، والترمذي في الأدب ١١٣/٦.

(٧) الحديث أخرجه البخاري في الشهادات ٢٢١/٣، عن انس، ومسلم في الجنائز ١٨٠/٣، والترمذي ٩٦/١، والنسائي ٥١/٤، وابن ماجه ٤٧٨/١.

(٨) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن الزبير بن العوّام. والرميض: الحديد الماضي.

(٩) أخرجه الهيثمي في المجمع ٢٠٥/٩ وقال إسناده صحيح.

(١٠) أخرجه الهيثمي في المجمع ٢١٩/٩.

السرور إلى قلبه في ثناء إذا سمعته رجاء القدوة به، إذا كان ممن يصلح أن يقتدى به، لقول الله عز وجل: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[1] يقول أئمة في الخير يقتدى بنا.

فإن كان كذلك رجوت ألا يضره ذلك، ولا يفسد عليه عمله.

وقد ذكر عن مطرف[2] أنه قال: «ما سمعت ثناء أو مدحة إلَّا تصاغَرَتْ إلي نفسي».

وقال زياد بن أبي مسلم: «ليس أحد مسمع ثناء أو مدحة إلّا تراءى له شيطان، ولكن المؤمن يراجع». فقال ابن المبارك: صدق كلاهما.

أما ما ذكر زياد فذلك قلب العوام، وأما ما ذكر مطرف فذلك قلب الخواص.

وإن كان مذهبه ونيته إذا سمع ذلك وسُرّ به طلب الرفعة والمنزلة عند الناس فيما أسوأ حاله في إحباط عمله.

مذهب الصالحين وأهل الرياء في المدح والذم:

وأما المرائي فهو الذي يكون مذهبه ونيته في أول عمله وآخره، طلب الثناء والمحمدة، والرفعة والتكرمة عند الناس، وإحراز المنافع به، فذلك الذي جاءه الويل والثّبور في الدنيا والآخرة.

فإن كان يعرف معرفة حق: أن ما أعجبه لهذا المعنى، ولم يعجبه ذلك لما نال من الجاه عندهم فلا جناح عليه[3].

وعلامته أن يزداد تواضعاً، ويُحدِث خوفاً من الاستدراج، وما يخفى من عمله فهو أحب مما يظهره، لأنه طمع في طريقة الصالحين، فعلى قدر ذلك ينبغي أن يرغب في أعمالهم، وما نالوا به اسم الصلاح، وصاروا من أهله، مع ما يلزمه من الخوف من الفتنة، مما يلزم أهل الثناء والمحمدة إذا أثني عليهم أو مُدِحوا، مثل قوله عليه السلام: «عقرت الرجل». ومثل قوله: «لو سمعك ما أفلح». وقوله: «قطعت عنق أخيك»[4]. وقوله: «إياكم

---

(١) سورة: الفرقان، الآية ٧٤.

(٢) مطرف بن عبد الله بن الشخير العامري البصري الفقيه العابد، كان مجاب الدعوة، توفي عام ٩٥ هـ (انظر تهذيب التهذيب ١/٣).

(٣) يريد أن يعجبه لمعنى ستر الله بين المؤمنين بشرط أن يكون بدء العمل إرادة الله كما شرح ذلك وشيكاً.

(٤) أخرجه الشيخان وأبو داود وابن ماجه عن أبي بكرة أن رجلاً أثنى على رجل عند رسول الله ﷺ فقال له: «قطعت عنق صاحبك» ثلاث مرات، ثم قال: «إذا أثنى أحدكم على صاحبه لا محالة فليقل: أحسبه كذا، ولا أزكي على الله أحداً».

والمدح فإنه الذبح[1] وقوله: «إذا رأيتم المداحين فاحْثوا في وجوههم التراب»[2].
وقوله: «لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثنى عليه في وجهه»[3].
ومثل هذا كثير.

وصاحب المدحة الخوف عليه أكثر من الرجاء، لأن الخوف لا يضره، والرجاء لا تؤمَنُ فتنته.

وعلامة أصحاب الجاه في الدنيا، وأصحاب الرياء المحبين لذلك: أنهم إذا سمعوا الثناء والمحمدة أحبوا ذلك، وازدادوا عزة وإعجاباً بأنفسهم، وغفلة عن الاستدراج، وتمادَوْا وتَمَنَّوْا، وطمعوا أن ما ظهر عليهم من أعمالهم كان أحب إليهم ما خفي، ولم يخافوا من فتنة، ولا من آفة.

وكذلك إذا كره المذمة، إنما كرهها لأنه أحب أن يكون مكانها مدحة وثناء، لينال بذلك الجاه والقدر، والمنزلة والرفعة عند الناس، فهي كراهية سقيمة مذمومة، وصاحبها مغرور مخدوع.

وإن كان إنما هي حب منه لستر الله عليه، وكراهية هتك الستر عنه، لأنه لم يمقته الناس حتى جاءه المقت من عند الله قبل مقت الناس، فإن كانت الكراهية إنما هي من هذه الجهة، فإن هذا يكرهه الصادق وغير الصادق، فلا يُلام عليه.

وعلامته: التضرع والاستكانة، والمراجعة، والنظر في التخلص إلى طريق محبة الله تعالى، وسبيل الاستقامة، ومحجة الإيمان، والجد فيه[4].

زيادة بيان لعلاقات الفريقين:

وأبْينَ من ذلك: إن كل من زعم أنه يريد بعمله وجه الله، ولا يريد من أحد على عمل يعمله من الأعمال الصالحات جزاء ولا شكوراً، ثم عرفه الناس بعمله، وذَكَرَهُ به، وصار معروفاً عندهم، ونال منهم الرفعة فإن كان يعرف من نفسه أنه إذا عرض عليها أن يتحول اسمه وما نال بعمله من الناس من الثناء والمحمدة إلى غيره، ويبقى هو عند الناس كمن لا

(١) أخرجه ابن ماجه في الأدب ٢/٦٤٥، وفيه: (إياكم والتمادح).
(٢) أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه عن همام أن رجلاً اثنى على عثمان فأخذ المقداد تراباً وحثا في وجهه، سابق الحديث.
(٣) أخرجه البخاري ٥/١٦٠، ومسلم في الزهد ٦/١٠٠.
(٤) لمزيد من البيان في المدح والذم وأحوالهما، وأحوال السلف فيهما وآراء العلماء قارن بما كتبه المؤلف في الوصايا الباب السادس والثلاثين والسابع والثلاثين من ص ١٢٥ الى ص ١٤٩.

يعرف له عمل من أعمال البر، ذكرٌ ولا غيره، فكأن هذا أحب إليه، فأمره مرجوٌ.

وإن كره أن يتحول ذكره الذي كان عليه الى غيره، ويبقى هو كمن لا يعرف له عمل من أعمال البر، فدعواه حينئذ باطلة.

لأن الذي يقوله: إنه يريده بعمله ولا يريد غيره، فإذا تحول ذكره إلى غيره، لم يحول الذي عمل له العمل الثواب الى غيره، ولم ينقصه من ثوابه شيئاً، ولعله أن يكون أكثز له عنده، وأقرب مثوى.

والذي كان يزعم أنه لا يريدهم به، كره أن يزول عنه الاسم الذي ثبتت له عندهم به المنزلة، وكره أن يبقى عند من زعم أنه لا يريدهم بلا ذكر عمل يعرفونه به.

ومثل هذا ينظر، إن كانت له خصلة عند الناس من خصال البر، فنسبوه إليها، ويظنون أنه صاحبها، غلطاً منهم بها وجهالة، فكره أن يعرفوا ذلك، أو يطلعوا عليه، و(كره أن يعرفوا) أنه ليس ممن يعمل بتلك الخصلة. أو له عمل من البر، وعند الناس أن ما يعمله من البر أكثر، فيكره أن يطلع الناس عليه، فلا يعبأ بمحبة نفسه عند الذي يعمل من أعمال البر، فإنه ممن يحب أن يحمد بما يفعل.

ولا يمكن أن يكون واحد يحب أن يحمد بما لم يفعل، ولا يحب ان يحمد بما قد فعل، حتى يحبهما جميعاً.

كذلك إن صحب رجلاً معروفاً بالصلاح والعبادة عند الناس، أو له سبب قد نال به ذكراً[1] من غيره، فكره أن يسقط ذلك عند الناس، ولم يعبأ[2] بمحبة نفسه عندما يعمل من أعمال البر، (فإنه ممن يحب أن يحمد بانتسابه الى غيره)، ولا يمكن أن يحب الذكر بعمل غيره ولا يحب ان يذكر بعمل نفسه الذي يعمله، حتى يحبهما جميعاً[3].

فإن وجد نفسه في هذه المواضع صادقة على ما يحب عليها فيه الصدق، فأرجو ان يكون من أهل الصدق إن شاء الله تعالى[4].

* * *

(١) في الأصول (قد نال بذلك ذكراً). وما أثبتناه أوضح.

(٢) في الأصول (فلا يعبأ). وما أثبتناه أوضح.

(٣) مثل هذه الحالة شائعة بين جهلة المتصوفة الذين يعتقدون أن مجرد انتسابهم الى طريقة رجل صالح يرفع من قدرهم، ويحبون ان يحمدوا بتلك النسبة.

(٤) ما كتبه المحاسبي عن المدح والذم في الوصايا ينهج نحو رفض الرضا بالمدح، ورفض كراهة المذمة. . ولعله كما هو شأنه في الوصايا يريد البادئين، وفي آداب النفوس يريد العارفين، كما يبدو من الخبر الذي ساقه عن مطرف وزياد ورأي ابن المبارك فيهما.

اليقين والعز

صدق اليقين:

وأما اليقين فعند العمل. والصدق فيه: مشاهدة الثواب والعقاب، فليس بكثرة النفقة، ولا بكثرة الكلام، ولا يحتاج فيه إلى تحريك الشفتين، ولكن بالإيمان وبالعقل، وبالمعرفة، وحسن التدبير، في ظاهر أمر العبد وباطنه.

فتعرف الصدق، وتعرف ضده من الكذب. وتعرف الخير، وتعرف ضده من الشر. فتعمل في إثبات الصدق، ونفي ضده، وتعلم الأصل من الفرع، فيكون الشغل في إثبات الصدق من وجه الأصل، وانتفاء ضده من وجه الأصل، فإن الأصل يأتي على الفروع.

وما دام العبد يشتغل بالفرع عن الأصل[١]، فليس لشغله فناء، ما دام الأصل ثابتاً، كلما ذهب فرع أخلَف فرعاً آخر بَدَلَه[٢].

العز في النفس أصل مرض القلوب:

وحب العز أصل، ومنه مخرج حب الرئاسة والجاه عند الناس، ومنه الكبر والفخر، ومنه الغضب والحسد، ومنه الحقد والحمية والعصبية. والنفس عاشقة له، وهو قرة عينها، وهو أحب اليها من أم واحد لواحدها.

وبلغني: أنه آخر ما يبقى في قلوب تاركي الدنيا للآخرة، وذلك لصعوبة تمكّنه من النفس.

فالعمل الصالح من غير المريد المستحكم[٣] من أهل القراءة[٤] سلاحه الذي يقوي به سلطانه هو العز في النفس، والفخر بالعمل، والإزراء على الناس.

وقد رأينا من يعمل أعمال الصالحين من الصلاة والصيام والصدقة والحج والجهاد،

---

(١) من أ (وما دام العبد يشتغل بالأصل عن الفرع). وهو خطأ.

(٢) هذه دعوة جديرة بالنظر، وهي علاج آفات النفوس والقلوب من جذورها، لا من اعراضها وظواهرها لما هو شائع بين الكتاب المسلمين في العصر الحاضر.

(٣) المريد غير المستحكم: أي غير المتثبت ولا العارف من أهل اليقظة والاعتبار.

(٤) أهل القراءة هم: القراء. وهم العباد على جهالة بآفات النفوس، وعلى علم بالقراءة. وهم الآن حفاظ القرآن قراؤه بالألحان وغير الألحان في أغلبهم.

وعزه في نفسه زائد. نعم، وقد رأينا من يتواضع لطمع زيادة في العز[1].

ولا أعلم أني رأيت أحداً من أهـل النسك خالياً منه، يعني من العز.

فإن كان يجد بقاء حلاوة طعمه لم يفلح معها، عابداً كان أو زاهداً.

وكيف يكون زاهداً، والزهد لا يأوي معه في مأوى واحد[2].

فمن عالج نفي العز من نفسه، ووفقه الله لذلك، فنال نفْيَه، سهُل عليه المسير في طريقة محبة الله عز وجل، ومحجة الإيمان، وسبيل الاستقامة، ومدارج الصالحين، وهان عليه معالجة الصدق في عمله، واطمأنت نفسه إلى التذلل والتواضع، وطاب له طريق العدل.

لأنه لا يقدر أن يحب للناس ما يحب لنفسه وفيه العز... ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز.. ولا يقدر على قبول الحق وفيه العز... ولا يقدر على التواضع الذي هو شرف التقوى وحليتها وفيه العز... ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز... ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز... ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر على ترك العصبية وفيه العز... ولا يقدر على سلامة القلب وفيه العز... ولا يقدر على النصح وفيه العز... ولا يسلم من الإزراء على الناس وفيه العز.

فما أكثر ضرره، وأعظم فساده، وأظهر أمره، وأقل رشده، وأبْيَنَ غَيَّه عنه الخاص والعام، وما أغفل الناس عنه، وأقل معرفتهم به، وأشد متابعتهم له!!

فالهوى حكمه... والكبر أخوه وعضده... والجَوْر سيرته... والغضب سلطانه... والرياء عون من أعوانه.. يكسب.. وإليه يؤدّي.. والعجب أضعف عون له... والحسد أمير جنوده... والغِلّ صاحب مشورته...

وقال رسول الله ﷺ: «الكبر والحسد يأكلان الحسنات كما تأكل النار الحطب»[3]. وقال بعضهم: الغل والحسد.

* * * *

---

(١) بل تطور الحال الآن، فأصبح من يتخذ لنفسه شكلاً اسلامياً ظاهراً أو ينتسب الى جماعة من جماعات المسلمين يرى في هذا الشكل عزاً ظاهراً، وعلواً على غيره، بل وحقاً في الفتوى والقيادة الدينية.

(٢) لأن الزهد في الجاه الدنيوي أول درجات الزهد، بل وعلامة التي لا تكذب.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٢/٨٤٥.

العز عام في الخلق، وخاص في القراء:

والعز في الخلق عام، في العبيد والإماء، والفقراء والأغنياء، والضعفاء والأقوياء، والقراء والعلماء وكل واحد منهم يظهر منه على قدر ما يمكنه إظهاره، ومن لم يمكنه الإظهار عامل الناس به سراً في نفسه، لأنه ما دام في الإنسان لا يترك حظّه منه سراً ولا علانية.

أما تراه كيف يتغيظ في نفسه على غيره، وكيف يحسده، ويدور حوله يطلب عوراته، وكيف يحكم فيه بحكم الهوى[(١)]؟.

ولو ملك من ذلك في الظاهر ما ملك في الباطن لأظهر مثل الذي أضمر من ذلك في الباطن.

وأقبح أمره وأفسده له، وأشده فضيحة إذا كان في القارىء، لأنه لا يكاد يتعزز على غيره بسبب من الأسباب إلاّ بأسباب الدين، وإلاّ رأيت فيه أثر ذلك.

فسبحان الله! ماذا يلقى القراء خاصة من العز ومن أعوانه!!

يدلك على ذلك سرعة حقدهم، وكثرة غضبهم لأنفسهم من طريق الإعزاز لها، وما يجدون على الناس فيه مما لا خطر له[(٢)]، وذلك كله من داء العز وحركته أمر لم يجز لأهل الجنة، ولا للملائكة، ولا للنبيين[(٣)]، يريد القارىء أن يجوزه لنفسه، وأن يجعله فوق رأسه.

وإنما كان ينبغي للصادق في قراءته العمل في إطفاء العز من قلبه من أول أمره، وأن يجعله تحت قدميه، ولو أن رجلاً صلى الغداة، ثم أقبل على نفسه وأصلح خصلة من خصال العز، ليس العز كله، وآخر تصدق بوزن نفسه ذهباً على أكباد جائعة من وجه طيب، لكان الأول أغبط، وكانت النعمة عليه أكبر، والشكر عليه أكثر عند أهل المعرفة والعلم[(٤)].

فكيف إذا أصبح وهو لم تكن له همة إلاّ العناية بالعز لنفسه، لتجربته، له، ومعرفته له!!

وآخر أصبح ولم تكن همته ولا محبته إلاّ العناية بنفي العز من قلبه، ولزوم التواضع،

---

(١) هذه هي ظواهر المعاملة السرية بالعز ممن لا يقدر أن يعامل الناس به علانية.

(٢) يعني يحقدون ويغضبون لانفسهم بسبب اشياء تافهة لا خطر لها ولا قيمة.

(٣) فأهل الجنة مبرأون من الحقد والغل وهو أساس العز(ونزعنا ما في صدورهم من غل). والملائكة سجدوا لآدم طاعة لأمر الله، ولم يتعززوا عليه. والأنبياء سيرهم مشهورة في التواضع ونفي العز بالكلية من قلوبهم.

(٤) لأن المتصرف قد يرائي وقد يذكر صدقته بعد حين فيعرضها للعطب.. أما نفي خصلة من خصال العز فهو اقتلاع جذر من بذور الشر ولا ينبت بعده أغصان من الشر.

وذلل النفس، لتجربته لنور التواضع، ومعرفته بفوائده.

فهنيئاً لمن شغله مثل شُغله... ما أنفعه من شُغل، وأرضاه عند مليكه، وأرْوَحَه للقلب!!

فاعتبر برجلين أمِرا بالعبودية، وأحدهما أحَب ان يجعل نفسه عبداً كما أمر، وأحب الآخر أن يجعل نفسه مَلِكاً، أي هذين أولى بالجائزة من المولى، وأيهما يستأهل العقوبة الموجعة؟

* * *

وسائل علاج العز:

قلت: قد وصفت من فساد العز وضرره وشره ما قد وصفت، فصف لي طريق التحرّز والامتناع منه، فإن المريض إذا عرف داءه، أحب أن يعرف دواءه، وهكذا من أحب أن يعرف عيبَ نفسه، يحب أن يعرف الذي يصلح به عيبه.

فقال: إن ابن آدم تكلف نزول الطير من جو السماء فأنزله.

وتكلف خروج الحوت من قَعْر البحر[1] فأخرجه.

وتكلف إخراج الذهب والفضة من بطن الأرض فأخرجها.

وتكلف أخذ الدواب والأنعام والوحوش والسباع من البراري والغياض فأخذها وذللها وسخرها.

وتكلف أخذ الأفاعي والحيات فأخذها.

وتكلف معالجة الشياطين فعالجها.

وتكلف معرفة النجوم في السماء وأسماءها ومجاريها ومطالعها ومغاربها. وتكلف منازل الشمس والقمر ومجاريهما، ومطالعهما ومغاربهما.

وتكلف معرفة الولد إذا لم يكن من أبيه، فعرف ذلك كله لما تكلفه.

وتكلف مرض المريض وأسباب علله بالنظر الى بوله من غير أن ينظر اليه، فعرف داءه، وعرف دواءه، فعرف كل ذلك.

وتكلف تعلّم سير الملوك الماضية من القرون الأولى، فكتبها ودرسها[2].

---

(١) في ب (من قعر البحار)

(٢) رحم الله الإمام المحاسبي، لو عاش الى أيامنا لقال: وتكلف نقل الصور من أقصى الأرض الى أدناها فنقلها. وتكلف الصعود الى القمر فصعد اليه. وتكلف تهديد العالم كله بالفناء فأعد لذلك السلاح.

وكل ما تكلف من ذلك فإنما حمل نفسه على تكلفه لطلب الزيادة من الدنيا، وليس في هذا من أمر دينه الذي كُلِّفه شيء.

وكُلِّف تقويم نفس واحدة فلم يقم بتقويمها، وليس عليه من فساد غيرها شيء... لم يكلف إلّا بإصلاح فساد نفسه وحدها، فلم يقم بإصلاح فسادها، فجهل بعض الصلاح وعلم بعضاً، فما جهل فهو جاهل به، لا يتكلف علمه، وما علمه من فسادها فهو مضيع لإصلاحه.

ولم يُكَلَّفْ أحد أن يصوم ولا يصلي ولا يزكي ولا يحج ولا يتوضأ ولا يغتسل عن أحد. إنما كُلِّفَ نفسه، ليس لأحد من صلاح أحد شيئاً... وإنما صلاح كل امرىء وتقواه لنفسه... وفي ميزانه... ليس في ميزان غيره منه شيء.

وهكذا النية في الأعمال... لا تنفع نيتي عملك، ولا تنفع نيتك عملي إذا كانت صحيحة، ولا تضره إذا كانت سقيمة... وإنما المنفعة والمضرة على صاحب النية، وصاحب العمل، وإنما هي نفس واحدة، فإذا صار إلى أمر نفسيته[1] لم يعرف خيرها من شرها، ولا إقبالها من إدبارها.

يعمل الخير فلا يدري مقبل هو فيه أم مدبر إلّا بظاهر العمل والدعوى، ولا يدري أي شيء يعمله للدنيا أو للآخرة، ليس يميز بين الأمرين، ولا يفاتش الهمة فيه، والمحبة له، ولا الخشية فيه، ولا يتوقف، ولا يحسن أن يطالع ضميره، فهو يفسد الخير بالشر ولا يشعر.

هو في ظاهره مقبل... وهو في باطنه مدبر.. وهو في ظاهره آبق الى الله وهو في باطنه آبق من الله...

فسبحان الله!! ماذا تكلف المسكين من معرفة ما لم يكلَّف، فشغل عنايته فيه، وشغل فهمه به، وأما الذي جهل فضيع من معرفته (فهو)[2] ما قد كُلِّف، وأُخذ عليه فيه المواثيق.

يدخل عليه الشر والفساد فلا يدري من أين دخل؟ وأنَّى أتاه؟ وكيف هو؟ وما السبيل الى التخلص منه؟ فبقي عند ذلك تائهاً حيران.. وقد عالج ما في الهواء.. وما في قعر البحار... فعرفه لما شغل عنايته به لمعنى دنياه الذي قد تكفل الله له منها بما قدَّر له، وضمن له الوفاء بها، أقبل عليها أو أدبر عنها.

فغلَب المسكين الخَلْق... وغلبته نفسه.. ولو عني بمعرفة فساد نفسه وصلاحها، وخيرها وشرها، وخاف التلف عليها، كما عنى بمعرفة ما ذكرنا من أمر دنياه المضمونة له، لعرف من فسادها وصلاحها مثل ما عرف من ذلك، وقَدِر منه على ما قَدِر من ذلك، ولكنه

(١) في ب (نفسه).
(٢) سقطت من ب.

رضي أن يسلك طريق الدين بالجهالة، ولم يرض أن يسلك طريق الدنيا إلّا بعلم وبصيرة. . ومتى شئت رأيته في طريق الدنيا، وهو يحسب أنه في طريق الآخرة.

ومع ذلك فإن بعض المدبرين عن الله تعالى، المعرضين عنه، قد تسمّوا علماء، ونصبوا أنفسهم للدلالة على الله، وهم حيارى متصنعة، مدخولون متشبهة، يحسبهم الجاهل أدلاء، وهم عميٌ حيارى، فإنا لله وإنّا إليه راجعون[1].

واعلم أن العز والتعزز ليس بغائب قادم عليك، فتريد التحرز منه، والامتناع عليه، ولكنه شيء قد حلَّ بك، ونزل وتمكن من المنزل، واستوى وجلس في صدر المجلس، وأخذ منك خيرك، وغلب أخْيَرَ موضع فيك، واتكأ على مُتّكئه، واستخدم أعوانه بما يوافق هواه في إقبالهم وإدبارهم.

ولا أكثر عليك من صفات فروع دوائه فتمل وتعرض، ولكن أدلك على الأصل الذي إذا عالجته أتى على الأغصان كلها، وهو: الإياس من جميع المخلوقين أن يضروا أو ينفعوا، أو يعطوا، أو يمنعوا، أو يحيوا أو يميتوا، فألزمه قلبك، فإنه أصل الأصول، ورأس الأمر وسنامه.

فإن كنت مريداً صادقاً، تحب النظر في عواقب الأمور، فأغلق على نفسك باب الطمع، وافتح لها باب الإياس وانفرد لذلك بإرادتك كلها، وتجرد في طلبه، كالذي ليس له من حوائج الدنيا كلها إلّا حاجة واحدة.

وتعزم عزماً صحيحاً على أن تهب نفسك لله في بقية عمرك، إن كنت تراه لذلك أهلاً، سبحانه وتعالى، ما أغناه، عن أهل السموات وأهل الأرضين، وما أشد اضطرارهم اليه.

فاجعل يا أخي نفسك كهيئة الأسير في أيدي أهل زمانك أيام حياتك في اتباع مرضاة الله عز وجل، والتخلص من بلية العز، فإن الأسير مملوك لا يملك، ولا يطمع أن يظلم أحداً، ولا ينتصر من ظالم. ثم تجد حلاوة طعم ذكر الله، ولذاذة المناجاة في عبادة الله[2].

وإنما قلت لك: استخراج العز، وقطعه عن قلبك باليأس من الناس لأنه يردك الى الله، ورجوعك الى الله سكون قلبك عليه، وفي سكون قلبك عليه الازدياد من طاعته،

---

(۱) وعلامة هؤلاء في عصرنا عشق الشهرة والأضواء، والكلام بكل لسان وسرعة التقلب تحت أي لواء أو سلطان غايتهم الدنيا وزهرتها، والترف في الحياة، والاستكثار من متاعها، وتأويل نصوص الدين بما يوافق اهواءهم.

(۲) وجود حلاوة ذكر الله ومناجاته نتيجة لصفات الاسير في أيدي أهل زمانه، والتي ذكرها المؤلف، وكما شرحها في نفس الفقرة.

والوصول الى خاصية عبادته. وفي الوصول الى خاصية عبادته النزول عند درجة العبيد.. وفي النزول عند درجة العبيد إصابة شرف العبودية.. ومن إصابة شرف العبودية إكتساب القلب المذلة لله عز وجل... فأعزك بطاعته.. وخضعت له.. فشرّفك بعبادته. قال الله عز وجل:

﴿ولله العِزَّةُ ولِرَسُولِه وَلِلمُؤمِنِينَ﴾[1].

وقال في المذموم من العز: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلّ قَلْبِ مُتكَبّرٍ جَبّارٍ﴾[2].

* * *

قلت: وكيف يميز بين العزَّين؟

قال: أما المذموم منهما فينبو عن طاعة الله، والمحمود منهما يزيدك تذللاً في طاعة الله عز وجل.

واعلم أن الأمر إذا انتهى في الضيق اتسع، وما هو إلاّ قطع الطمع واستعمال الإياس، فإذا أنت قد صرت في وادي الرَّوح والراحة والفرح، فتنعمت مع أهل هذه الدرجات بذكر الله، والتلذذ بحلوة المناجاة، والبكاء من خشيته، ذقت حلاوة اليقين، وفرح الرضا، وراحة التفويض، وخفة محمله، ثم صرت تنظر الى من يتعذب ويجول في سلطان العز وملكه.

فهنيئاً لك حينئذ، تصبح وتمسي ليس لك هم ولاحزن إلاّ فيما أنت وارد عليه من أمر آخرتك، والله ينظر الى همتك وإرادتك في واد، والناس في واد غيره.

* * *

---

(١) سورة: المنافقون، الآية: ٨

(٢) سورة: غافر، الآية: ٣٥.

الخير والشر

فقه التجارب والعناية بالنفس:

واعلم أنه من كان من أهل العناية بنفسه، ورزق فهم التجربة، بلغ معرفة الخير والشر، وعرف من أين وكيف «وعبر ووصف، وفهم وفطن، ونطق بالحكمة، وكان ما يسمع من الموعظة زيادة له في فهمه ومعرفته ووصفه، ودقائق فطنته، وسر حاجته.

ومن كان من أهل العناية، ولم يرزق فهم التجربة، عرف من معرفة الخير والشر على قدر عنايته، ووصف عن صفتها وعبارتها، ومن أين وكيف وضعف عن النطق بالحكمة، وكانت الموعظة زيادة له في معرفة خيره وشره.

ومن لم يرزق الفهم، وليست له عناية، فهو لا ينطق بلسانه عند الكلام، ولا يعقل بقلبه عند السماع[1].

ويروى أن الحكمة تقول: من طلبني فلم يقدر عليَّ، فليعمل بأحسن ما يعلم، وليَدَعْ أشر ما يعلم.

الحكمة والتفتيش:

وقال: الأمور منافعها متفاوتة، وضررها متفاوت، فمنفعه بعضها أكثر من بعض، وضرر بعضها أكثر من بعض، ونجد أكثر الناس إنما عنايتهم بإصلاح ما هو أقل ضرراً، فهم في إصلاح ذلك أكثر من إصلاح ما هو أكثر ضرراً، وطلبهم لما هو أقل منفعة أكثر من طلبهم لما هو أكثر منفعة.

وبعض الأمور تركها أشد على العبد من بعض، وصاحب الإرادة لا ينبغي أن يغلط في هذا، ولكن يفاتش أموره كلها مفاتشة شديدة، بالعناية وغائص الفهم، ودقائق لطائف الفِطَن، حتى يعلم ما هو أشد عليه في الترك، ويعلم ما هو أسلم له، وأنفع له، فيجعل جِدَّه وجديده، ومعرفته وعلمه، وفهمه وكياسته، وعنايته وفطنته فيما هو أشد عليه في الترك، وأكثر ضرراً عليه.

---

(١) هذا إشارة الى مبدأ (العمل الإسلامي ظاهراً وباطناً). وذلك هو مناط رقي الإنسان في مقامات المعرفة. والفرق بين العناية بالنفس وفهم التجربة: إن العناية بالنفس هو تفتيشها والوقوف على مواضع الخلل فيها. وعلم السلامة من الخلل. أما فهم التجربة فلا يكون إلا بتحويل هذه المعرفة الى سلوك مخلص.

والناس في ذلك مختلفون، فرب رجل يهون عليه ترك شيء يشتد على غيره، ويشتد عليه ترك شيء يهون على غيره تركه، ويشتد عليه طلب ما يهون على غيره، ويهون عليه طلب ما يشتد على غيره، لأنه حُبّب الى هذا من الأشياء ما لم يُحَبّب الى غيره، وبُغّض إليه من الأشياء ما لم يبغّض الى غيره.

وربما كان أمران ضاران كلاهما، وأحدهما أكثر ضرراً من الآخر، ومؤنة تركه ليست بأشد على صاحبه من تركه الآخر، ولكن المعرفة تَقْصُرُ بالعبد عن حسن المأخذ له، والترفق فيه، فهو لما هو أشد عليه تركه، وأقل ضرراً أقوى وأترك له مما هو أكثر ضرراً، وأهون عليه تركه، وهوعن ذلك أضعف، وأعجز عنه.

ولا يعرف هذا إلاّ من يقلب الأمور تقليباً، ويفاتشها تفتيشاً، فينظر هذا الذي يُؤتى منه، ما سببه؟ ثم لم ير على نفسه من ترك ذلك السبب كبير مؤنة، فيقول: لا أترك هذا. ولكن أترك هذا الذي يشتدّ على نفسي تركه، وليس فساد هذا الأمر الذي قد عزم على تركه ـ وهو أشد عليه ـ كفساد هذا الأمر الذي لم يعزم على تركه[1].

* * *

(١) في ب (كفساد هذا الأمر الذي قد عزم على تركه). وما في أ أصح.

الغفلة واليقظة

خصائص الغفلة واليقظة:

قلت: فما الذي بطّأ بالخاصة والعامة عما هو أكثر لهم ضرراً، وأشد عليهم؟

قال: قد أخبرتك أن الناس فيه مختلفون. فرب شيء هو أسلم من شيء آخر، ورب شيء هو أضرّ عليهم من الآخر.

وأما أنا فلا أعرف خصلة أكثر في الناس، ولا أغلب عليهم، ولا أكثر ضرراً، ولا أشد عليهم تركاً، على الخاص والعام، والعالم والمتعلم والجاهل، من الغفلة.

وأشد الغفلة الذي أنت عنه غافل، وبه جاهل.

وأشد ذلك على الناس، وأكثر عندي فيهم: الإعجاب[1].

انظر... هل ترى أحداً هو عند نفسه جاهل في أمر الآخرة وأمر الدنيا؟

انظر هل ترى أحداً يتعرض لشيء لا يعلمه، وليس هو حرفته، إلّا يقول: أنا به عالم؟ وإنما أُتي هذا الجاهل المغتر المدعي لعلم الآخرة من قلة قدر الآخرة في قلبه، وقلة تعظيم حرمات الله عز وجل.

وانظر.. هل ترى أحداً عند هذا الغافل المغتر الجاهل أرفع عند نفسه منه، وأعلم منه؟ فيقر بذلك على نفسه، إلّا ما لا يجد منه بداً، ولا يستطيع دفعه؟

الغفلة واليقظة:

قلت: فما الذي ترجو أن يكون أصلح لهم وأنفع؟

قال: التيقظ أصل كل خير، كما أن الغفلة أصل كل شر... فما أكثر من يكون عند

---

(١) الإعجاب: هو نظرك الى نفسك بالعمل، واستكثاره من نفسك، مع نسيان النعم من الله، وحمد النفس على فعلها، وانظر (القصد والرجوع الى الله ص ٦٨).

ويقول المحاسبي: «العجب يعمي القلب، حتى يرى المعجب انه محسن وهو مسيء، وإنه ناج وهو هالك، وإنه مصيب وهو مخطىء. ولا يلبث أن يركن الى العزة، فيستصغر ما علم به من ذنوبه، وينسي كثيراً منها، ويعمي عليه أكثرها، حتى لا يظنه ذنباً، فيقل خوفه، ويكذب على الله ورسوله، وهو يرى إنه صادق، وإلى الضلالة وهو يرى انه مهتد.. وبالعجب هلك أئمة الضلالة، وتكبر المتكبرون، وافتخر المفتخرون، واختال المختالون، وهلك آخر هذه الأمة، ومما يدل على ذلك قول رسول الله ﷺ لأبي ثعلبة: إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك».. وانظر في أنواع العجب وعلاجه الرعاية لحقوق الله ص ٣٩٨ ـ ٤٤١.

نفسه متيقظاً وهو غافل، وما أحب اليه التغافل عن التيقظ، وانسه بالغفلة!!

واعلم أن أبْيَن علامات التيقظ: الهم والحزن، ثم حسن الاستعداد لما اهتم له وحزن عليه.

وأبْيَن علامات الغفلة: البطر والمرح، لأنهما يسهيان وينسيان التيقظ، وفي ترك التيقظ ترك الاستعداد لما بعد الموت.

قلت: فما التيقظ؟ وما الغفلة؟

قال: التيقظ: تقريب الأجل، ومراقبة الموت، والفكر فيما يصير إليه العبد من بعد الموت. ومن هذا يفتح لك باب العمل، فتبتدر إليه قبل أن يبتدر إليك الموت، وتستغنم كل ساعة من حياتك قبل انقضاء الأجل.

فإن رُزِق العبد الدوام عليه نبع من ذلك ينابيع الخير إن شاء الله عز وجل.

وأما الغفلة فطول الأمل، ونسيان ذكر المعاد إلّا بالخاطر، ولا يدوم عليه العبد.

ولا يدوم عليها العبد إلّا رمى بالخير وراء ظهره. ومنها يتولد التسويف، والوقوع في بحر الآثام.

* * *

كيف تكون القوة على اليقظة وترك الغفلة:

قلت: فهل من شيء يقويني على التيقظ، وترك الغفلة؟

قال: نعم.. إخلاص الدعاء، ومصاحبة من يريد ما تريد، ومفارقة من لا يريد ما تريد. فإن صحبة من لا يريد ما تريد تضرك وأنت لا تشعر، وصحبة من يريد ما تريد تنفعك ولا تضرك وإن كنت لا تشعر.

وإنما الناس يؤتون من ثلاثة أشياء: من الغفلة، والغلبة، والجهالة... ورب رجل تجتمع فيه الثلاث خصال. وإن قلت: إني لا أعلم من أبرئه منها لكنت صادقاً.

وقال: كن ممن يُحِبّ على الخير، ويحب عليه، ولا تكن ممن يريد أن يُحَبَّ على الخير(١).

(١) يعني: كن ممن يحب شيوع الخير في أمة الإسلام.. فتحب أن يكثر الخير من الناس، وأن يكثر الخير منك للناس، فتحب هذا الصنيع في الناس، وتحب (بالبناء للمجهول) انت على هذا الصنيع.. ولكن لا تقدم إرادة حب الناس لك على الخير فتفعل الخير لذلك. والفرق بين من يحب على الخير وبين من يريد أن يحب على الخير: أن الأول يفعل الخير لإرادة رضا الله، فيحب الناس ويحبه الناس. والثاني =

وقال: كل شيء ليس فيه نفع ولا مرفق فلا تمكن فيه النية، وكل شيء فيه نفع ومرفق لا يجوز إلّا بنية[1].

وقال: عجبت ممن ضعفت نيته في حسناته، وصحت نيته في شهواته. ولا يكون ذلك كذلك إلّا من المخدوعين المُمَوّه عليهم، أو من الخادعين المموِّهين.

وقال: من صحح خصلتين فقد استحكم أموره كلها: من صحح لِمَ ولمْ[2] يقـل: لِمَ لَمْ أعمل؟ ولمَ عملت؟ ولمَ لا أعمل؟ ومن ضيع أو جهل فعلى حسب ذلك.

وقـال: أعزل من أخـلاقك ثمـاني خصال: التكلف في القـول والعمـل، والمـراء، والمداهنة، والجريرة، والخب، والخداع، والمزاح، والتغيّظ.

وقـال: التغافـل عما يكـره الله قسـوة في القلب. وفي قسـاوة القلب ذهـاب حـلاوة الأعمال، وفي ذهاب حلاوة الأعمال قلة الطاعات، وفي قلة الطاعات قلة الشكر، وفي ترك الشكر فساد ما عملت، وحرمان ما طلبت، وانقطاع الزيادة[3].

وقال: إنك في زمان أسلم الناس فيه جائع مستوحش من الناس، محزون مهموم.

وقال: الجوع يكسر النفس.. والشبع يهيج البطر... وفي الجوع قوة الهم والحزن، وفي الهم والحزن قوة على الجوع... والهم والحزن يقطعان الشهوة والرغبة.

وقـال: الإنسان محـارف للتفريط، معتـاد للبغي، شغوف بـالتسويف، مجبـول على الملل والنسيان، وهو موصوف بعدم العزم، مطبوع على الأمل، منعوت بالجزع عند الشدة، وبقلة الشكر عند النعمة، مولوع بالانخداع والاغترار.

وقـال: معرفتـك بعيبك وعيب غيـرك سواء. فمن لم يعـرف عيب غيره يعـرف عيب نفسه. فإذا ظهر لك من عيوب الناس ما خفي عليك من عيبك، استدللت بعيوب الناس على عيبك. وإذا ظهر لك من عيبك ما خفي عليك مثله من عيوب غيرك، فلا توقع ذلك بغيرك

- يريد من فعل الخير أن يحبه الناس.. وهذا رياء.

(١) يعني: كل ما يفيدك في قوام حياتك في الدنيا أو الآخرة أو فيهما لا يصح ولا يقبل إلا بالنية.. وعلى هذا فالمباحات التي اعتادها الناس يمكن أن تكون قربات لها ثوابها إذا اقترنت بالنية الصالحة، كالطعام بنية القوة على العمل للدين والدنيا، والنوم قوة على الطاعة، واللباس لستر العورة، وإظهار النعمة لله، وترويح النفس لتجديد قواها.. أما إذا كانت هذه الأعمال دنية فهي هدر لا ثواب لها.. وأما إذا اقترنت بنية فاسدة فإنها تنقلب آثاماً، كالطعام قوة على الشهوة، واللباس تكبراً، وهكذا.

(٢) لم النافية.. ولم الاستفهامية.

(٣) لاحظ غـوص المؤلف عن أصل الـداء، وعدم اكتفـائه بـالحديث عنـه من ظواهـره كما يفعـل الكتاب المحدثون. فانقطاع الزيادة اعمله التغافل عما يكره الله. وما بينهما مراحل المرض.

حتى يظهر لك منه مثل ما ظهر لك من نفسك، وتجسس عليها، وفاتشها، وواقفها، وحاسبها، وخذها بأداء ما عليها أشد الأخذ، ولا تطلبن ذلك من غيرها.

فإذا ظهر لك من غيرها شيء فأمكن طلب العذر له فأطلبه، وأما نفسك فلا تطلبن لها عذراً. وإن اعتذرت فلا تقبلن منها[1].

* * *

---

(١) خلاصة هذا القول: إتهام نفسك، والتماس العذر للآخرين.. والاشتغال بنفسك دون نفوس الآخرين.. واعتبار الآخرين وعيوبهم دليلاً على عيوبك، ولا تعتبر عيوبك دليلاً على مثلها من الآخرين حتى تظهر منهم.. وكل ذلك لئلا يصاب الإنسان بالغفلة حين يشتغل بالناس، ويهمل نفسه.

الإخلاص والرياء

وقال: أعمال البر كلها علي وجهين: سِرّ، وعلانية. فمن لم يقدر على تصحيح السر فيما يعمل من السر كان للتصحيح فيما يعمل من العلانية أبعد.. ومن قوي على تصحيحه في العلانية[1] كان فيما يسر من أعماله أقوى.

وهكذا في القليل والكثير... من لم يقدر على تصحيح النية في القليل من العمل، كان في الكثير منه أبعد.

وقال: الرياء على وجهين: رجل قد عمل أعمالاً من البر، فنال بها ثناء وجاهاً وقدراً، وهو يريد فيما يستقبل من الأعمال الإخلاص. فمن لم يقدر على ترك الرياء فيما يستقبل، كان فيما عمل ونال به الجاه والقدر والمحمدة من الناس من الإخلاص أبعد.

وهكذا في كل شيء... ترك ما لم تملكه أيسر من ترك ما قد ملكته[2].

النية بين الصدق والغفلة:

قلت: فمن أحق الناس بصدق النية؟

قال: أشدهم لها حباً.

قلت: فمن أبعد الناس من صدق النية؟

قال: أزهدهم فيها... وأزهد الزاهدين فيها أنساهم لها... وأنسى الناس لها أجهلهم بها.

وقال: أول علامات الرياء: رضا الرجل بجهالة صدق النية في أعماله... وأول علامات صدق الرجل: عنايته بمعرفة صدق النية، وإخلاص العمل.

وقال النبي ﷺ: «العمل بالنية».

---

(١) ليس معنى تصحيح العمل العلني التصحيح الشكلي للعمل، وإنما المراد تصحيحه من الآفات التي تعرض للنفس اثناء عمل العلانية.. وكيف يحافظ العامل على إرادته الصحيحة عند الثناء على العمل، وعند نزوع النفس الى حب الجاه بالعمل، وكيف ينتبه عن كل مؤثر خارجي عليها.

(٢) الاعتراف بالرياء فيما مضى من العمل علامة صدق الإرادة في المستقبل.. فمن قوي على تصحيح العمل فيما يستقبل كان من الاعتراف بفساد الإرادة فيما مضى أقرب، ومن عجز في المستقبل فهو ما زال مقيماً على باطله وهو يظنه حقاً. والذي لا تملكه هنا هو صدق الارادة في المستقبل، فترك الرياء فيه أسهل من تركه فيما ملكته من الثناء والمحمدة فيما مضى.

وقال: أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية»[1].

فما بال العبد يتعلم كيف يعمل، ويتحمل مؤنة العمل، فيعمل بما قد علم، ولا يتعلم كيف ينوي... فيتعلم من العلم ما يعمل به، وما لا يعمل، ولا يتعلم صدق النية، لا فيما يعمل به ولا فيما لا يعمل.

يعيش ما عاش، ويموت إذا مات، ولم ينتبه لذلك... والرسول ﷺ ومن بعده الأئمة وأهل العلم والمعرفة يحذرون من الرياء. حتى أن بعضهم قال: أدخل البيت المظلم فأصلي فيه ركعتين لعلها تخلص لي... وقال الثوري[2]: «ما كنت أعتدُّ بعمل يراه الناس».

ولو كتبنا في هذا الكتاب مثل هذا لاحتجنا الى دفاتر.

فالذي قد عرف من الرياء ما جهله غيره، وعنى به، واهتم له في ليله ونهاره، ولعل ما يُخدَع فيه ويُغلب عليه أكثر من الذي يصير الى ما يريد منه. فكيف بالجاهل به، المعرض عنه؟

فرب رجل يعمل عملاً، فهو يرى أنه فيه صادق، ولا يتبين صدقه في دعوى صدقه إلا بعد عشر سنين، وإن شئت قلت خمسين سنة، فما العشر والواحد والخمسون والمائة إلا واحد.

قلت: مثل أي شيء، فقد جئت بالقول العظيم؟

قال: مثل الرجل يتصدق على الرجل بصدقة أو معروف يصطنعه إليه، ويزعم أنه أراد بذلك وجه الله، ولم يرد به جزاء ولا شكوراً، ثم بدت له أو لغيره قبل المصنوع اليه المعروف حاجة فقضى حاجة غير الذي كان قد صنع إليه المعروف أو تصدق عليه، ولم يقض حاجته، فذكر صدقته عليه في نفسه[3]، فوجد عليه، حيث لم يقض حاجته، وقضى حاجة من لم يتصدق عليه ولم يصنع اليه معروفاً. فتبين صدقه في ذلك الوقت من كذبه، ولعل ذلك بعدما صنع المعروف بزمان من الدهر.

أو رجل يكون صاحب عبادة خمسين سنة، يرى أنه صادق فيها، لا يريد بها جزاء ولا شكوراً في سره ولا في علانيته، فنابت نائبة، فكتبوا أسماء صلحاء الموضع الذي هو فيه

---

(١) اخرجه الامام أحمد من مسنده ٤/١٢٤، ١٢٦.

(٢) سفيان الثوري، كوفي، إمام في الحديث وغيره، سمع من عمر بن مرة، وعمرو بن دينار، وسلمة، وابن معين، وشعبة، عُرِفَ بأمير المؤمنين في الحديث، عرض القرآن أربع مرات على حمزة الزيات، وقال ابن المارك: لا أعلم على وجه الأرض أعلم منه توفي عام ١٦١ هـ.

(٣) أي: إن مجرد ذكره الصدقة في نفسه دليل على أنها لم تكن خالصة لله تعالى وحده.

وعبادهم، فلم يكتبوا فيه اسمه، أو كتبوه في آخرهم، وقدموا من لم يكن مثله في العبادة، فأنكر ذلك في نفسه، ووجد منه، حيث لم يجعلوه في أولهم، فتبين عند ذلك صدقه من كذبه في عبادته. ولو كان صادقاً لم يجد في نفسه، ولم ينكر ما صنعوه، وعده من كبير نعم الله عليه. ففي هذا وأشباه هذا بيان أنه أراد به جزاء وشكوراً.

وكل عمل لم يَتَنَبَّهْ له صاحبه ولم يمتحنه ولم يختبره ويفاتشه فهو ملتبس[1]، والملتبس لا تبين حقيقته إلا عند البلوى[2]، والناس يحاسبون على قدر علمهم وجهلهم، بما عليهم ولهم، وعلى قدر ما أمروا به، ونهوا عنه.

* * *

(١) العمل الملتبس يراد منه هنا أنه متردد بين الإخلاص وعدم الإخلاص.

(٢) من وسائل إختبار العمل للتفرق على إخلاصه:

١ ـ عدم الغضب إذا انتقصه أحد.

٢ ـ عدم التغير إذا قام به غيره، أو نسب الى غيره بعد أن صنعه.

٣ ـ ألا يمنع صلته عمن آذاه بعد أن وصله، ولا يتغير منه.

علوم النجاة

جماع ما يجب من العلم:

وثلاثة أبواب من العلم على الناس أن يعرفوا ما خفي منها وما ظهر: بابان فيما بينهم وبين الله تعالى، وباب بينهم وبين الناس.

فأما الذي بينهم وبين الناس فالنصح. لقول النبي ﷺ: «الدين النصيحة»[1]. فيما خفي من الأشياء وفيما ظهر، وما قل وما كثر، للقريب والبعيد، والعدو والصديق.

والذي بينهم وبين الله تعالى: باب النية وتصحيحها، والإرادة في الأعمال، فيما خفي وما ظهر، وما قل وما كثر، لقول النبي ﷺ: «الأعمال بالنية».

والباب الثاني: معرفة الرجل نفسه.

* * *

حقيقة النصح:

وأما باب النصح فتكون نيته وسيرته ومذهبه في السر والعلانية: أن أمور الأمة كلها لو أجريت على ما في ضميره وسريرته لأحب أنها رَشَدَتْ أمورُها، وأطاعت ربها، وصار إلى كل واحد منهم حظه من الحق والعدل.

فإن كانت هذه سيرته في خاصته، وعلى هذا نيته في العامة، رجوت أنه في كل أمر جليل، ونعمة عظيمة، لا يعلم قدرها إلّا الله تعالى.

وإن خالفت سيرته في خاصته وعامته هذا الوصف، فلا حظ له في النصح الخاص ولا العام.. وكان ما يدعي أنه يضمر وينوي في سريرته من نصح الخاصة والعامة مردوداً عليه، غير مقبول منه.

ولا نعرف في أبواب العلم حديثاً أجمع في الأشياء كلها من هذا الحديث، وهو قوله ﷺ: «الدين النصيحة»... ولا أقرب ولا أقصد قصداً، ولا أحسن في أعمال البر كلها حسناً، ولا بطريق الصالحين أشد إتباعاً من هذا الحديث... ولا أحوط في الحق والعدل،

---

(١) أخرجه مسلم عن تميم الداري عن رسول الله ﷺ قال: «الدين النصيحةُ». قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم». قال الإمام النووي: وهذا الحديث عليه مدار الإسلام.

ولا أرضى عند الخاصة والعامة، وهو: أن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره للناس ما تكرهه لها.

والنصح أصله من أعمال القلوب، وفروعه من أعمال الجوارح... فربما أجري بالقلب، ولربما لم يجر إلاّ باللسان، وربما لم يجر إلاّ بالقلب واللسان والجوارح[1].

آداب لا بد منها:

وقال: إن الشيء يغلب الشيء، والشيء يشغل عن الشيء، والشيء يُنسي الشيء، والشيء يهيج الشيء، والشيء يزيد الشيء، والمحاسب نفسه قد عرف هذا، وأدناه التيقظ، وأعلاه النسيان[2].

واعلم أن الشر شهوة، والخير كراهية، والشهوة سابقة على الكراهية، وغالبة عليها، حتى يجيء العلم والصدق فيزيلان الشهوة، ويجعلان الكراهة مكانها.. فمن لم يفقه ولم يفهم هذا حين يسمعه، لم يحس مراجعته سريرته، ولا يجيء على إصلاحها حتى يتعلمه ممن يحسنه، ويحسن وصفه. ولولا كثرة القول فيه لكتبناه.

وقال: نعم الصاحبان: الهم والحزن بأمر الآخرة.. ونعم الشغل المحاسبة... وصاحب الهم والحزن والمحاسبة يجعل الساعة التي ليس فيها هم ولا حزن ولا محاسبة ساعة بطالة، وأقل قليل الغفلة، عنده كأكثر الذنوب عند غيره.

---

(١) من أمثلة النصح لعامة المسلمين في الصدر الأول ما أخرجه الطبراني عن جرير بن عبد الله أنه أمر مولاه ان يشتري له فرساً، فاشتراه بثلاثمائة درهم. فقال جرير لصاحب الفرس. فرسك هذا خير من ذلك، أتبيعه بأربعمائة درهم؟ فقال الرجل: ذاك اليك يا أبا عبد الله فقال جرير: أتبيعه بخمسمائة؟ وما زال يزيده حتى أوصله الى ثمانمائة، فاشتراه بها. ولما سئل جرير عن ذلك قال: إني بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم.

(٢) يعني أدنى وأقل المعارف هو اليقظة لما في الشر من الشهوة، ولما في الخير من الكراهية. وأعلا المعارف نسيان سلطان الشهوة الملازمة للشر، ونسيان الكراهية الملازمة للخير. فالنسيان أشق من التذكر.

وقد شرح المحاسبي فكرته هذه في الوصايا (ص ٧٢) فقال:

«تفقدوا السرائر في كل حين عسى أن يكون منكم مصر على بعض المعاصي وما يشعر.. وانظروا هل تجدون في القلوب حب الدنيا، والسرور باقبالها؟ والتقلب في شهواتها، وهل تجدون حلاوة المدحة والتعظيم أحياناً؟ وهل تأنفون من المذمة وتمتعضون منها؟ وهل تكرهون شيئاً يخالف أحوالكم، وترضون بما وافق الهوى؟ وهل تلهون بالنظر الى الخلق بغير اعتبار؟ وهل تلهون بفضول الكلام؟ وهل تعلمون من الأعمال شيئاً الله راض به وانتم تأنفون من عملها؟ وهل تعلمون من الناس ما الله راض به وانتم تأنفون منه؟.. فهذا ونحوه من ذنوب القلوب، وانتم غافلون.. قد احسب قراءكم مصرين عليها وما يشعرون».

ومن علامة اليقين في العبد إدامة الحزن فيه.

يا أخي.. ولو لم يحزن العبد إلاَّ لما يكون فيما يستقبل من الأعمال من الجفاء والسهو والغفلة وقلة الصدق في فرضه ونافلته مثل الذي قد عمل، ولما يجد فيها من قلة الحياء والمراقبة، لكان جديراً أن يحزن ويهتم.

ولو لم يحزن ويهتم إلاّ لأنه لو جاء من الأعمال بمثل أعمال الملائكة والجن والإنس والعالمين كلهم، لم يكن عنده علم في ذلك أنه في المقبول أو في المردود، ولا يدري أيقبل من ذلك كله مثقال ذرة أو يرد عليه، لكان ينبغي له أن يحزن.

ولو لم يحزن إلاّ لأنه لو قيل له: اختر من عمرك أي ساعة شئت لم تعص الله فيها لسبب من الأسباب لما كان يجد ذلك. لقد كان ينبغي له أن يحزن.

ولو لم يحزن إلاّ لأنه لو قيل له: هل تعرف ساعة واحدة من عمرك أديت إلى الله سبحانه فيها جميع ما أوجبه عليك كما أوجبه لقال: ما أعرفها. لقد كان ينبغي له أن يحزن.

* * *

محاسبة النفس

النفس واختبارها في المعرفة والسلوك:

قلت: أخبرني كيف أحاسب نفسي في معرفتها؟

قال: إن الأشياء تعرف بالدلالات والعلامات والأمثال. وسأضرب لك في ذلك مثلاً يكون علماً لما سألت عنه:

إن مثل الناس في جملتهم وفي تفرقهم بعد المعرفة بهم، والخبرة لهم، وتفاوتهم وتفاضلهم، مثل سفط موضوع في طريق، فيه قوارير مملوءة موكاة الرءوس، يمر به الناس لا يدرون ما فيه. فعرض له من الناس عارض من المارة، فقال: لأكشفن عن هذا السفط فلأنظرن ما فيه. فكشف عنه فرأى قوارير مملوءة لا يدري ما فيها، فحل أوكيتهن كلهن، فبدا له من هذه رائحة المسك، ومن هذه رائحة العنبر، ومن هذه رائحة البان، ومن هذه رائحة الخلوف، ومن هذه رائحة الغالية، ومن هذه رائحة الياسمين ومن هذه رائحة الورد، وسائر الطيب والأدهان.

ومن هذه رائحة الكبريت، ومن هذه رائحة النفط، ومن هذه رائحة القَطران، وما لا طاقة له بالقيام عندها من شدة نتن ريحها.

فالناس في جملتهم مثل السّفط والقوارير... وهم في معرفتهم والبحث عن أخلاقهم متفرقون على قدر القوارير.

ومَثَل السفط أيضاً في جملته مثلك أنت وحدك.. والقوارير أخلاقك وآدابك.. وريحها الطيب خير أخلاقك، وآدابك الحسنة المرغوب فيها، والرائحة المنتنة شر أخلاقك، وآدابك السيئة القبيحة.

ولا تُعْرَف النفسُ حتى تُمْتَحَنَ وَتُخْتَبَرَ.

فاختبر نفسك، حتى تعلم ما فيها. وإن أردت ذلك فعاملها بالموافقة لها، والمفاتشة لهمتها في وقت الهمة، وأحدَّ إليها النظر، حتى تعرف حلمك في الوقت الذي عرض لك فيه سفيه فسَفه عليك، ليس في الوقت الذي وافق هواك.

واعرف تواضعك في وقت ما جفاك جاف، وأكرمك مُكرم، فإن فيهما الفتنة، فإن العبد ربما أظهر التواضع عند الكرامة ليزداد منها، وربما تواضع عند الجفاء ليثبت له

بالتواضع عند ذلك منزلة بين الناس. . فتوقّف عند ذلك كله، وفاتش الهمة[1].

واعرف صمتك عند الخوف من سقوط جاهك عند من لك عنده الجاه والقدر.

واعرف صدقك عند الحالة التي يتصنع ويتزين في مثلها المتزينـون والمتصنّعون.

واعرف نصحك عند حبك لنفسك ولصديقك وعدوك، حتى تعلم: هل تحب لغيرك ما تحب لنفسك أم لا؟

واعرف صبرك عند ترك شهوة قد ملكها، هل تستطيع تركها على ذلك أم لا[2]؟

واعرف ورعك عنـد الحالـة التي استمكنت منها، هلى تستـطيع الـوقوف عنـدها إذا التبست عليك أم لا؟.

واعرف عقلك عند ترك ما لا نفع لك فيه في الدنيا ولا في الآخرة، ولا ثواب لك فيه عند الله تعالى، هـل تستطيع ترك ذلك أم لا؟

واعرف أمانتك عند هواك في الوقت الـذي تهواه، هـل تضبط أداء أمانتـك في ذلك الوقت أم لا؟.

واعرف طمعك في وقت هيجان رغبتك، هل تستطيع عند ذلك الإياس أم لا[3]؟

فـإن كنت في هذه الحـالات والأوقات محمـوداً فما أحسن خيـرك، واحمد الله. . . واسأله الـزيادة من فضله، وامض فـإنك على سبيـل الاستقامـة، وطريق المحبـة، ومحجة الإيمان.

وإن كنت في هذه الحالات مذموماً، فأخلاقك وسيرتك أولى بك أن تصلحها، فـإن فيـك فساداً عـظيماً، ولست على سبيـل الاستقامـة، ولا على طريق المحبـة، ولا محجـة الإيمان.

فاتق الله. . وراجع مفاتشة نفسك، وإصلاح فسادها.

قلت: يجيء مني في بعض أحوالي ما أمقت نفسي عليه، وتشتد عليه ندامتي.

---

(١) يريد أنه ليست العبرة بظاهر العمل، وإنما العبرة بالهمة والنية التي بعثت على العمل. . كالتواضع الذي تبعث عليـه الرغبـة في إكراه النـاس. . والتواضـع عند جفـاء الناس لثبـوت المنزلـة. . ومثله ما ذكـره المحاسبي في الوصايا: الزهد في الدنيا لتساق اليه الأموال، أو ليأخذها من الناس في نفس المجلس.

(٢) على هذا فالصبر على المصيبة الواقعة ليس مقياساً صحيحاً لمعرفة الإنسان لصبره، لأن المصيبة واقعة بالفعل. . وقد يشتبه الصبر الجميل عندها بالتصبر. . أما الصبر على الشهوة التي يملكها الإنسـان فهو المقياس الصحيح، لأنه ترك لمحبـوب مملوك.

(٣) يعني هل تستيطيع الاياس مما طمعت فيه أو ممن طمعت فيه أم لا؟

قال: مقتك لها من معرفتك بها، وندامتك عليها دواؤ ها . . فإذا نظرت الى عثرة غيرك فاذكر عثرتك ومقتك لنفسك ، ولو أن مصلحة النفس ومنفعتها كانت فيما تهوى أو تشتهي، لكان الناس كلهم صالحين، ولكن جعل صلاحها فيما تكره، وفسادها فيما تحب وتشتهي.

أما إنها لا تكره الصلاح والخير، ولكن تكره المكروه الذي به تنال الصلاح والخير. . . ولو أمكنها درجة الأبرار بأعمال الفجار لقبلتها. . فأما الشر فإنها تحبه، وتحب خصاله وطرائقه، وكل شيء منه.

ومن محاسبتك لها: أن تخلو بها؛ وتردّ عليها فعالها، فتقول: يا نفس. . إنك لا تقدرين أن تخادعي الله، ولا تغالبيه، فلا تقبلي مخادعة الشيطان، ولا مغالبته، ولا تبتغي هواك، فيُرديك ويهلكك.

وإني لست أحملك على ما لا طاقة لك به، ولا علم لك فيه، وإني أراك تحب لنفسك ما تمقت عليه غيرك، وتكره لنفسك ما تحب عليه غيرك[1].

* * *

قمة الخداع النفسي وحقيقة التوسل بالصالحين:

أراك تحب أهل التواضع والصدق والأمانة، حتى لو رأيت قبورهم وآثارهم لأحببتها فيما تزعم، وتكره خصالهم التي بها نالوا الحب منك. . . حتى لو قدرت أن تكون في أعدى عدوك بعد أن تزول عنك لكان ذلك منيتك.

فإما أن تكون تريد مخادعة الله إذ علمت أنه يطلع منك على ذلك. . وإما أن تكون لا تحسن أن تطلب الخير.

يا أخي . . . إن الجائع يحب الخبز، وإن العطشان يحب الماء، ولو جعل الخبز والماء بين أيديهما على مائدة، أو علق في أعناقهما، ما نفعهما علمهما بأن الخبز والماء معهما، ولا ينفعهما قربهما منهما، دون أن يأكلا من الطعام ويشربا من الشراب.

وهكذا أنت. . . لا ينفعك علمك بالخير، ولا قربه منك، ولا حبك له، حتى يكون

---

(١) النظرية النفسية التي يركز عليها المحاسبي هي: أن الخداع النفسي لا يمكن ان ينكشف لصاحبه إلا إذا نظر الى غيره. . أما أن يكتشفه في ذاته دون أن يكتشفه في غيره فهو عسير. . ولهذا قال: إن الإنسان عند معرفة عيبه أبله وعند معرفة عيب غيره جهبذ. وعند التماس العذر لغيره أبله وعند التماس العذر لنفسه جهبذ. وينبه الى أن الإنسان حين يكتشف عثرة من غيره يجب عليه ان يعود الى نفسه على الفور ليكتشف نفس العثرة في نفسه. . ومن هنا كان علاجه لهذه الظاهرة قائماً على عدم التماس العذر لنفسه، وعلى التماس العذر للغير، وذلك حتى لا يتعاظم خداع النفس لصاحبها، وحتى لا يفقد الأمل في الرجوع عليها بالاصلاح والتفتيش.

فيك، وتكون من أهله، بل لا أزعم أنك تحبه، ولكنك مخدوع أو مخادع في دعـواك أنك تحبه.

يا أخي . . . هل رأيت عطشان استمكن من الماء البارد فلم يشربه إلّا مـدع للعطش ليس بعطشان؟

أوَ هل رأيت جوعان وجد طعاماً قد أمكنه، فلم يأكله إلّا مدع للجوع ليس بجوعان؟

فما أبْيَن إبطال دعواك فيما تزعم أنك تحب الخير وأهله إذا قست ما تحب من الدنيا بمـا تحب من الآخرة، لأني أراك إذا أحببت شيئـاً من الدنيـا، أحببت ألا يكون لـه مالـك غيرك. . هذا هو الحب الصادق بعينه. . فإذا أحببت شيئاً من أعمال الصالحين - فيما تزعم - فليس شيء أثقل عليك من أن تكون أنت صاحبه. . . ولو كنت محباً له لأحببت ألّا يكـون أحد سبقك. . ولا يملك منه أكثر من الذي تملك.

يا أخي . . . أما آن لك أن تَمَلَّ وتشبع من الكذب، والاغترار بالله تعالى؟ أما آن لك أن تحب ان يكون اسمك يوماً واحداً من جميع عمرك مع أسماء الصالحين المتـواضعين، المخلصين النـاصحين، الشاكـرين الراضين، الصـابرين المسلمين، الـواثقين المتوكلين، المفوضين الخائفين، المشتاقين العارفين، العالمين الموقنين.

بحق أقول لك. . . لـو مات أحـد من العجب كان ينبغي لـك أن تموت مكـانك إذا نظرت فيما أنت فيه من إيثارك للدنيا، وإقبالك عليها، مع استيقانك بأنها لا شيء، ورضاك بترك طريق الصالحين، وأهل الخير، وصحبة محمد ﷺ، ومجاورته في الجنة.

فلو كانت صحبته في الـدنيا، ثم تـركت الدنيـا كلها، وأثـرت صحبته، لكـان الذي تركت حقيراً عنـد الذي نلت، فكيف الصحبـة في الجنة، مـع دوام الملك في جوار الله، وجـوار أحبابـه، مـع الـذين أنعم الله عليهم من النبيين والصـديقين والشهـداء والصـالحين وحسن أولئك رفيقاً. . . في الحِبَرة والنعمة والسرور الدائم الأبدي؟.

فراجع نفسك يا أخي . . . وانظر ما في هذه المخادعة. . . وما الذي قد غلبك، وغلب يقينك، أو ما هذه الخدعة التي دخلت عليك؟

وفكر فيما تصير اليه من موازنة عملك، وسـؤال الله إياك عن مثاقيل الذر والخردل، وما فوق ذلك، ودون ذلك.

وفكر في سرعة انقضاء الأجل، وعليك بقصر الأمل، فلا تفارقـه ولا يفارقـك طرفـة عين، لا في ليل ولا في نهار.

يا سبحان الله!! كيف لا تدهش ولا يذهب عقلك تعجباً من أمرك؟؟

فراجع أمرك. . وانظر ما يراد منك. . . فإنما يراد منك إذا عملت عملاً أن تريد به وجه الله أو لا تعمله. فهل تكون أقل من هذا؟ هذا في نوافلك. . . وأما فرائضك فإنك غير معذور في تضييع مثقال ذرة منها[1]، حتى تعمل بما أمرت به، وتنتهي عما نهيت عنه. . . وما كلِّفت أمراً لا تطيعه. . وما كلِّفت ما لم يُكَلَّفُ به غيرك.

ويراد منك مع ذلك: أن تريد للناس الخير. . وإن لم ترد لهم الخير فلا ترد لهم الشر. . فهل تكون أقل من هذا؟ أو ترضى لنفسك أن الناس يريدون لك الخير، وأنت تريد لهم الشر؟

ويراد منك: ألا تجعل نفسك فوق الناس في نفسك. . . لا بقلبك ولا بلسانك. أفتكون أقل من هذا؟ وقد دُعِيتَ أنت والناس الى هذا، لا أنت وحدك.

* * *

المخادعون. . . المتاجرون بالدين:

وقال: أخبرني. . . إن أنت خالفت هذا الأمر، وأردت بعملك غير الله، وأردت أن ترفع نفسك فوق الناس، أو لم تحب لهم ما تحب لنفسك أتدرك أو تنال ما تأمل من ذلك؟.

أوَلست تعلم أنك أبعد ما تكون من الله إذا كنت كذلك؟

ومع هذا لا أراك تطلب الدنانير والدراهم فتنتفع بها، وترفق بها في أيامك هذه، وإنما تطلب بذلك الثناء والجاه والقدر. . وقد اخترت سيرة تستوجب بها البغض من خالفك، وتستوجب البغض أيضاً ممن وافقك عليها لو ظهر من أمرك ما خفي، ولا بد من أن يظهر يوماً ما.

وقال: الصبر ما ترك الناس عذراً ولا حجة. . . فمن لم يلق الله بما أمره بحلاوة الرضا، فليلقه بالصبر، وكراهته، ومن لم يلق الله ببغض ما نهاه عنه، فلا يلقاه بالحب له، بل بالصبر[2]، فما ترك الصبر للناس حجة.

---

(١) يريد: إنما يراد منك في فرائضك أن تريد بها وجه الله. ولا يباح لك، ألا تعملها إن لم ترد بها وجه الله كما في أعمال النوافل.

(٢) في الأصل (والصبر). وعليه يكون المعنى في غاية الاضطراب، إذ يكون (لا يلقاه بالحب له ولا بالصبر). وهو لاوله. والمراد بالصبر الأول الصبر على الطاعة. وبالصبر الثاني الصبر عن المعصية.

وقال: من القليل ما يعتبر به الكثير... وإن أهل الدنيا إذا أرادوا أن يعملوا شيئاً بدأوا بالطلب، فطلبوا أداة ما يعمل به ذلك العمل، وإلّا فلا سبيل لهم الى ذلك العمل البتة.

ولو اجتمع أهل الدنيا كلهم، ومعهم أداة كل صناعة، هل قدروا أن يثقبوا إبرة إلَّا بأداتها التي هي أداتها؟ وهكذا جميع الأشياء.

هل رأيت بيطاراً قط قدر على صناعته بأداة خياط؟

أو قدر الخياط على صناعته بأداة البيطار؟

وهكذا كل عمل.. لا يقدر الحداد على عمله بأداة النجار.. ولا النجار بأداة الإسكاف.

وهكذا أعمال الآخرة.. لا يقدر عليها إلّا بأداتها.. وأصل أداة أعمال الآخرة: العلم والمعرفة والاعتبار، فإنها من دلالات الأداة.

* * *

حب الدنيا رأس كل بلاء:

ويروى عن النبي ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم»[١].

ويروى عن عيسى عليه السلام أنه قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

وأنفع ما عالج به المؤمن في أمر دينه: قطع حب الدنيا من قلبه، فإذا فعل ذلك هان عليه ترك الدنيا[٢]، وسهل عليه طلب الآخرة... ولا يقدر على قطعه إلّا بأداته.. أما إني لا أقول: أداته الفقر، وقلة الشيء، وكثرة الصيام والصلاة والحج والجهاد، ولكن أصل أداته: الفكر، وقصر الأمل، ومراجعة التوبة والطهارة، وإخراج العز من القلب، ولزوم التواضع، وعمارة القلب بالتقوى، وإدامة الحزن، وكثرة الهم بما هو وارد عليه.

وما أكثر من يعمل هذه الأعمال التي وصفنا[٣] وحب الدنيا في قلبه زائدة، وكثير من الناس من لا يكثر من هذه الأعمال وحبه للدنيا في نقص.. لأنه أخذه من وجهة: أن

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب عن الحسن مرسلاً.

(٢) يريد بالترك: ترك الحرص عليها، واعتبارها وسيلة لا غاية.. وقد عارض المحاسبي في كتاب «المكاسب» رأي من يقول بترك الكسب، ومذاهب من يرون العيش على اللقاط أو على ما تنبته الأرض من العشب وأيد القول بالكسب والانفاق في سبيل الله مع عدم الحرص.

(٣) يريد بالأعمال، الفقه، وكثرة الصيام والصلاة والحج والجهاد.. وهو يقول في أعمال القلوب والجوارح «وكم من فقير حريص، وكم من غني زاهد..» فالمسألة راجعة الى عقدة القلب على الحب للدنيا أو انحلال هذه العقدة.

يلزم نفسه الفكر، ويقصر عليه من الأمل، ولكن الأشياء من حيث أباحها الله، فيضعها حيث أمره الله، ويلزم قلبه ذكر قرب مفارقتها، ومفارقة ما فيه وما يصير اليه من الشدائد، من القبر، والوقوف بين أيدي الله عز وجل، وطول الحساب، ولا يدري في أي الصنفين عدده، ولا في أي الزمرتين اسمه، أفي الذين يحشرون الى الجنة زمراً، أم في الذين يحشرون الى جهنم ورداً.

وتفكر في ذنوبه التي لو أخذ أهل الدنيا بذنب منها لهلكوا.. وطول خلود أهل النار في النار.

وأشد من ذلك غضب الله على أهل النار.

ولما يخاف أن يفوته من رضى الله عن أهل الجنة.

ويقل الفكر في الدنيا وفي نعيمها. فإن القلب مع الفكر يحيا إن كانت الفكرة في الآخرة، ويموت إن كانت الفكرة في الدنيا.

وقال: وما على العبد أن يعزم على أن يجعل حظه من بقية عمره في الدنيا ما كان من جاه أو ثناء أو محمدة من الناس أو قدر عندهم، وما كان من فضول النعمة فيها، فيعزم على أن يجعل ذلك كله لأعدى عَدُوّ له، ولأحسد حاسد له، لا يقسمُ على أقاربه وأصدقائه منها شيئاً، بعد أن يرجو أن يكون ذلك كله فُكاكه من النار، حتى لو دعي إليه، وحبس في الحبس الضيق ليقبله لم يقبله، واختار الحبس عليه، ولحَذَرَهُ ونَفَرَ منه، كما كان يطلبه قبل ذلك.

فلعمري لو لم يكن فيه إلّا ما يرجو أن يدرك به صلاح ما أفسد فيما مضى من عمره فليصلحه، وليتخلص مما مضى، ويجعل الحزن والهم وقلة ملاقاة الناس[1] عُدّة له، مع الدعاء والتضرع، ويجعل الموت نصْبَ عينيه، ويستعين بسرعة الخروج من الدنيا، فما أهون (عند) من نزل منزلاً وهو يريد الارتحال منه تركه لجاره، وما أقل شفقته عليه... وما أشفق من نزل منزلاً وهو يريد المقام فيه، وأحرص على عمارته..

* * *

جماع صلاح النفوس:

وقال: إن الناسك إن لم يقبل الحكمة ولا الموعظة ولا النصيحة من العدو والصديق،

(١) ليس هذا الانعزال مذهباً للمحاسبي في الحياة.. وإنما هو مذهب له في حال العلاج النفسي فقط، حتى يستكمن من قلبه الصلاح، ويزول عنه ما كان قد عقد عليه قلبه من حب الدنيا والجاه فيها.. وبعد ذلك فلمخالطة الناس قوانين وقواعد يلتزمها المسلم حتى يحافظ على سلامة قلبه ونفسه.. وقد فصل هذه القواعد بأحكامها في كتاب الرياء من «الرعاية لحقوق الله» ص ١٧٧ ـ ٣٥٦.

والسفيه والحليم، فنُسكه نُسُك الملوك[1].

قلت: ذكرت شيئاً ينسي شيئاً، فمثل أي شيء هذا من الأشياء؟

قال: مثل الشبع، فإنه يهيج الشهوة، ويورث القسوة، والبطر، والثقل والنوم.

ومثل كثرة الكلام، فإنه يقسي القلب، ويقل البهاء والمهابة، ويُعقِمُ الحكمة، ويكثر السقط.

ومثل طول الأمل، فإنه ينسي الآخرة، ويذكر الدنيا ويحسنها، ويحببها إليك، ويورث الحسد والتسويف، ويقوي الهوى، ويكثر الشهوات.

وفي هذا ما تستدل به على أضداده.. فإذا فكرت فيه عرفت من الأشياء ما يورث الخير، وما يورث الشر، وكل شغل يشغل عن غيره من الأشغال، لأن القلب واحد، لا يمكنه أن يشتغل إلّا بشيء واحد.

* * *

(١) الناسك: المنقطع لله تعالى، ممن لا يقوم غيرهم بمؤنتهم.. واعتبر نسكه نسك الملوك في هذه الحالة لأنه لا يقبل الحق من العامة والضعفاء. أو تأخذه العزة بالإثم إذا نُصِحَ لتصحيح عمل أو إعتقاد أو قول فاسد.. وهو بذلك يتعارض مع طبيعة سلوكه التي تحتم عليه أن يكون عبداً.

الإرادة والصدق والهوى

اتفاق الهوى والصدق على عمل البر:

قلت: الصدق والهوى متفقان على عمل البر.

قال: إن الله قادر على أن يسخر الهوى للصدق... وإن كان فقليل... والذي يعرف هذا القليل في الناس هم قليل... والذي يجهله كثير، لأن الإرادة للعمل قبل العمل[1]، والهوى والشهوة مما يلي العمل، والنية والصدق من ورائهما.

فكلما أراد العبد أو هم بالعمل من قريب أو بعيد، ابتدر الهوى والشهوة والنية الصادقة (فيهما) إلى القلب بذكر ما يرجى وما يؤمل من مثل ذلك العمل من حاجات الدنيا وشهواتها، ومنافعها مرافقها ولذاتها، وما يؤنس بمثله من الأشياء، وما حَسُن موقعه من الناس، وذِكْرِهم له بالثناء والمحمدة والقدر والجاه والرفعة والرئاسة.

والإرادة الصادقة[2] بعْدُ غائبة، وما دامت غائبة فالقلب يقبل هذه الأشياء، لا يردّ منها شيئاً لأنه لا بد أن يكون للقلب أمل في هذا العمل الذي أراده وهمّ به، والإنسان أكثر شيء نسياناً، وأكثر النسيان في ذلك الوقت، لأن هذه الأشياء التي جاءت بها النفس والهوى إلى القلب مما ذكرنا من الثناء والمحمدة والرفق والقدر والجاه والرئاسة والمنزلة كلها مما يتحلى به القلب ويشتهيه، ويرغب فيه، فلذلك تكثر الغفلة والنسيان للإرادة الصادقة.

ولو كان مكان الذي يستحليه القلب ويشتهيه مرارة وكراهية، لما كان يقبل النسيان والغفلة[3]، ولكن حيث جاءت الموافقة سكن القلب إلى هذه الخلال.

فمن شاء الله عز وجل أن ينعم عليه حتى تكون الإرادة الصادقة أمام الهوى وشهوة النفس، وحتى يريد بالعمل وجه الله، والدار الآخرة، ففي هذا يكون شغل القلب عند ذلك، وفيما يؤمل فيه من رضى الله عز وجل وثوابه، وما جاءت به النفس والهوى مما ذكرناه لم

---

(١) هذه هي الإرادة العامة للعمل في حد ذاته، وليس مراداً بها هنا الإرادة الصادقة التي يرضاها الله تعالى ويقبل بها العمل.

(٢) هذه هي الإرادة التي يرضاها الله تعالى، ويقبل بها العمل.. ويعبر عنها المؤلف بالإرادة الصادقة، أو بالصدق.

(٣) المرارة والكراهية هنا مثالها عكس ما ذكر المؤلف من قبل من: الذم على العمل، وسقوط المنزلة عند الناس، وذهاب الجاه عندهم.. الخ.

يقبله القلب، ورده عليهم. ففي هذا أعظم النعم، وعلى صاحبه أكثر الشكر.

* * *

سبق الهوى على الإرادة الصادقة في العمل:

وإن كانت النفس والهوى والشهوة سابقات على الإرادة الصادقة، فلا بد لصاحبها من الوقوف والنظر والفكر، حتى يُنقي قلبه[1] مما عرَّضت به النفس والهوى والشهوة، ويجعل إرادة الله مكان ذلك وأمامه، فيقبله القلب، ساءه أو سره، ثم يتحفظ ويتعاهد[2]، حتى يختم العمل الذي افتتحه بالإرادة الصادقة بمثل ذلك، وبعد فراغه[3] من العمل، ما دام الروح في جسده.

واعلم أن إحكام هذا أعز وأشد من نقل الصخر، وركوب الأسنَّة، إلَّا من رزقه الله إحكام ذلك، والعناية به، مخافة تلف نفسه، وإحباط عمله، لأن العدو مُلِحّ مُجِدّ محتال له في إدخال الآفات التي تفسد الأعمال، فهو يرصُده قبل دخوله في العمل، وبعدما يدخل فيه، وبعد ما يخرج منه.

* * *

عروض الهوى بعد تقديم الإرادة الصادقة:

فإن قدم الإرادة والنية الصادقة الصحيحة التي لا سقم فيها، ودخل بها العمل، ونفى الهوى، ودفع النفس، وخالف الشهوة، وجاهد العدو، فإن صده بعد دخوله في العمل، فعرض له بما ذكرنا من الآفات التي تفسد الأعمال. فإن قبلها حتى يختم العمل بقبولها، فسد عليه أصله الصحيح الذي كان قد أصَّل، ودخل بها في العمل.

وإن هو لم يقبل ما عرض له به في العمل، ونفاه ودفعه لم يضره ذلك شيئاً.

وإن هو قبله، ثم انتبه قبل أن يفرغ من العمل، فندم ورجع وتيقظ، وأزال الغفلة، ثم ختم العمل بالندم، لم يضره ذلك شيئاً.

---

(١) في أ (حتى يسبقوا قلبه) خطأ.

(٢) يحتفظ يعني: يحافظ على هذه الإرادة الصادقة. ويتعهد. يعني: يتعهدها بالمراجعة كلما حاولت النفس رده عنها الى الدنيا.

(٣) في ب (وبعد تفريغه).

وإن هو ختم العمل بالصدق والصحة، فإنه يطالبه في ذلك العمل ليفسده عليه ولو بعد حين[1].

فينبغي للعبد أن يتقي الله، وأن يخلص له العمل، ويقدم له النية أمام كل عمل، وبعد كل عمل، إلى الممات، حتى تكون أعماله كلها لله وحده، ولا يطلب الثواب إلا من الله وحده، ويجاهد هذا العدو المسلَّط، ويخالف هذا الهوى، ويكابد هذه النفس[2]، ويتقي هذه الشهوة الهائجة في قلبه، ويعلم من يعامل، ولمن يعمل له، وثواب من يطلب.

ويعمل العمل بهيجان الرغبة في ثواب الله تعالى، وهيجان الرهبة من عقاب الله تعالى، وأنه إن عمل على ذلك عمل العمل بشهوة وخفة ومحبة، لما قد هاج من رغبته ورهبته، فأزال عنه ما ذكرنا من الآفات، التي تفسد الأعمال.

فإذا عمل على ذلك فكأنما جمع له الهوى والصدق جميعاً، ولا يبالي إذا كان هكذا موافقة الهوى أو مخالفته، وما عليه من مخالفة الهوى إذا سلم من شره، وكان ذلك لا يضره، فكأنما وافقه[3].

فلا بد أن يوقف العبد... ويسأل عما عمل... ولمن عمل؟ وماذا أراد بما عمل؟

* * *

الرياء والإخلاص وأحكامهما:

والإرادة إرادتان: إحداهما للدنيا، والأخرى للآخرة.

فالصدق والإخلاص إنما هو إذا أراد العبد بعمله وجه الله، وليس فيه شيء من معاني الدنيا.

والرياء إنما هو: أن تكون الإرادة كلها للدنيا.

فمنه ما يكون العبد يريد بعمله في أصل العمل المحمدة والثناء.

ومنه ما يكون العبد يريد به في أصل عمله وجه الله والدار الآخرة، ويحب أن يحمد بعمله، ويثني عله.

---

(١) كما سبق ان ذكر المؤلف في حالة التي ذكر معروفه بعد عشر سنين وحالة العالم الذي أنف أن يذكر بعض العلماء.

(٢) قارن ما كتبه المؤلف في باب مكابدة الهوى من (أعمال القلوب والجوارح).

(٣) يعني أن العامل في هذه الحالة لا يطالب بمخالفة الهوى، لأن هيجان الرغبة اخضع الهوى، وصار تابعاً لذلك الهيجان، وصار موافقاً.

ومنه ما يكون العبد يريد بعمله وجه الله وحده، والدار الآخرة، فإذا دخل في العمل على ذلك الإخلاص عرض له بعض ما ذكرنا من الآفات فقبلها، وأحب أن يحمد على عمله، وأن يتخذ به منزلة عند أحد من المخلوقين.

ومنه ما يكون العبد يريد بعمله وجه الله والدار الآخرة، ويختم عمله بذلك، ويطالب بالآفات بعد الفراغ من العمل ولو بعد حين، حتى يخبر بذلك العمل يريد أن يحمد عليه، ويتخذ به الجاه والمنزلة، عند المخلوقين... فهذا أسهل من جميع ما ذكرنا.

والناس في هذا مختلفون.

ففرقة تقول: هذا من الذنوب، ولا يفسد العمل، لأن العمل قد مضى وختم بالصحة، فلا يفسد بعد الخاتمة، وما لحق العبد بعد ذلك فقبله من هذه الآفات فللّه في ذلك على العبد مقام ومطالبة، والعمل لا يبطل.

وقالت فرقة: يبطل العمل، ولو بعد حين إذا قبل الآفة، وأحب المحمدة، وأدخل المخلوقين في عمله، وأحب عندهم الثناء والمنزلة والجاه.

* * *

العمل الخالي من ذكر الإرادة الصادقة:

قلت: فأخبرني إذا هم العبد بعمل البر، وعمله وفرغ منه، ولم يذكر قبل عمله ولا بعده إرادة الله والآخرة وكان ناسياً ساهياً عنها، أليس هذا عمل بلا نية ولا صدق؟

قال: بلى.

قلت: وكيف يكون عمل من أعمال البر مما يراد الله بمثله بلا نية ولا صدق، وقد عمله العبد؟

قال: إذا لم يكن الصدق، ولم يقدم النية، فليس بشيء، لأن النبي ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنية»... فإن قلت: إني نسيت النية، وسهوت عنها، فهذا إقرار، وليس لك حجة. وإنما أنساك النية الدنيا، وإرادتك الغالبة لها.

أوَليس بلية آدم كانت من النسيان وقلة العزم؟ أوَلا تسمع إلى قول الله تعالى: **﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْماً﴾**(١).

---

(١) سورة: طه، آية: ١١٥.

وأنا أقول: إن العمل لا يكون عملاً كما أمر الله[1] أن يعمل إلّا بصدق نية، وصحة إرادة، وتقديمهما أمام كل عمل، فهذا عندي هو العمل، كما قال النبي ﷺ: «الأعمال بالنية»[2].

* * *

وجوب العناية بجواهر الأعمال بأسمائها:

واعلم أن وقوفك عند افتتاح العمل، وذكر الصدق، وتصحيح النية والإرادة، ونفورك من الرياء، وذكرك الجنة والنار، ليس يزيد في صدقك، ولا ينقص من ريائك، حتى تستعمل التقوى، وتقدم النية، وتصدق في الإرادة.

فلا تفتر في ذلك الوقت[3]، فإن الإنسان يحب اسم الخير، ويكره نفس الخير، ويكره اسم الشر، ويحب نفس الشر.

فما أحب إلى الإنسان اسم الصدق، وما أثقل عليه نفس الصدق، ما أشد بغض الإنسان لاسم الرياء. وما أحبه إليه، وأخفه عليه، وأشد استعماله له.

فلا تتساهل في ذلك الوقت عن ذكر النية، فإن الصدق والنية اسمان، ونفسهما الإرادة الصادقة، وإن النفس والهوى يجتثان ثمرة العمل بحلاوتهما[4].

واعلم أن لذتك فيما تجد من حلاوة طعم الحلوى وغير ذلك إنما تجدها عند أكلك إذا أكلتها... وحلاوة الهوى والشهوة في الفكر إذا تابعته على ما تريد، ليس له طعام ولا شراب، إنما لذته من الأشياء أن يتابع في فكره وأصله.

وأعلم أن لذة الرياء وحلاوته لذة تخالط القلوب، وتجري في العروق، فاحذر ذلك في ابتداء أول العمل، وفاتش الهمة وتقص تصحيح الإرادة، وكن في ذلك كله مراقباً لله وحده.

* * *

(١) في ب: (وأنا لا أقول أن العمل يكون عملاً) الخ. اضطراب من الناسخ.

(٢) المراد قبول العمل عند الله. فالعمل بلا نية، أو بنية فاسدة غير مقبول، بمعنى انه: لا ثواب له ولا جزاء. فإن كان فريضة سقطت المطالبة بها، وليس لها ثواب ولا قبول، وعلى العامل وزر إهدار النية. وإن كانت نافلة وقعت هباء. ولهذا اشترط الأئمة النية، واختلفوا في الاحتفاظ بها أو إسرارها. ويفرق الدبوسي في الأمن الأقصى ورقة ٢٥ أ بين شروط الصحة وهي تتعهد بالجوارح، وشروط القلوب وهي تتعلق بالقلوب.

(٣) الخلاصة: أن الإرادة وتحديدها يجب ان يسبق العمل، ويسبق الوقوف له والنية فيه.. ثم يصحب الإرادة ويعقد النية، ولا يفتر عن تذكرها بقلبه عند افتتاح العمل وأثناءه حتى يختمه.. وعليه فالإرادة عمل، والنية عمل آخر، وهو من الإرادة والنية معاً.

(٤) يعني بالحلاوة التي يشعران بها للرياء والمحمدة، ولهذا ينسيان ثمرة العمل.

معرفة الصدق في نقل الإرادة من الرياء إلى الصحة:

قلت: إذا أردت أن أعمل العمل، وقفت قبل الافتتاح، فراجعت نيتي وإرادتي، فرأيت الرياء قد سبق الصدق ورأيت الصدق غائباً عني، فأردت أن أنقل الإرادة بحقيقتها إلى الصدق والصحة، وحسن النية، وأن أتقي الهوى، بحليته[1] وريائه وشهوته، فمتى أعلم أني قد فعلت ذلك، وأتيت منه على ما أردت، وقد ذكرت أن ذكر النية والصدق لا ينفعني حتى يكون بتحقيق الإرادة؟

قال: لأنهما لا يجتمعان في قلب واحد[2]. ثم قال: ربما اجتمع اسمهما، ولا يجتمع أنفسهما. . . فإذا لم ترد النفس وتشتهي ما كنت أنت تريده وتشتهي من إرادة الله تعالى بذلك العمل والدار الآخرة، فقد علمت أن هذا قد حضر، وذاك قد غاب، كما كنت تعلم أن الرياء حاضر، والنية غائبة[3].

وإن اشتبه عليك الذي وصفت لك، فانقض الأمر كأنك لا تريد أن تعمله البتة، وأصدق فيه، فإن علمت أنك قد صدقت بنقضك له، فابتدئه من الرأس. فإن وجدت من نفسك الرضا والسكون بنقض العمل، والترك له فاعلم أنه علامة حضور الصدق، وغيبة الهوى والرياء. وإن وجدت كراهية النقض والترك فاعلم أن الهوى بعد فيه[4].

قلت: اضرب لي فيه مثلاً يكون أبين من هذا.

قال: مثل رجل هم أن يتخذ طعاماً يدعو إليه أقواماً، فراجع نفسه وعزمه، فإذا هو يريد أن يدعو فلاناً لشيء كان وافقه منه. وإذا هو يريد أن يدعو الآخر يريد ضرباً من الاستطالة، وأن يستخدمه ويخضع له. وإذا هو يريد أن يدعو الآخر ليستعين به على ظلم. وإذا هو يريد أن يدعو الآخر ليصيب منه عرضاً من الدنيا. وإذا هو يريد أن يدعو الآخر فيحمده ويثني عليه، ويبسط ذكره. وإذا هو يريد أن يدعو الآخر ليجالسه ويزاوره، ويدع مجالسة ومزاورة غيره. وإذا هو يريد أن يدعو الآخر لحسن لقاء يلقاه به. وأشباه ذلك مما ليس لله سبحانه

(١) في أ: (بكليته) من نسخة أخرى.

(٢) قوله: (لانهما لا يجتمعان في قلب واحد) تعليل لقول السائل: النية والصدق لا ينفعني حتى يكون بتحقيق الإرادة. فالنية والارادة لا يجتمعان مع الرياء أبداً في قلب.

(٣) يعني فقد علمت أن عدم اشتهاء النفس لإرادة الله والدار الآخرة قد حضر في قلبك. والإرادة الصادقة قد غابت.

(٤) هذه التجربة الرائدة لم يسبق اليها المحاسبي. وهي: اختيار الإرادة من جهة الرضا بترك العمل فإن تعلقت الارادة بالعمل على ما هو عليه كان دليلاً على فساد النية والإرادة.

وتعالى فيه شيء[1]، وإنما هو كله للدنيا[2].

فلما استبان من نفسه هذا، ولم تكن إرادته وجه الله، وما يرجو من ثواب الله على طعامهم، قال في نفسه[3] لما تبين له ذلك: لا... ولكني أترك الإرادة الأولى، وأحضر إرادة ثانية أريد بها وجه الله تعالى وحده والدار الآخرة.

ثم قال: فلعلي أخدع في هذا وأنا لا أشعر... ولكني أدعو مكان هؤلاء قوماً آخرين أقدم فيهم النية والإرادة الصحيحة أمام الطعام، أو لا أدعو أحداً.

فإن رأى نفسه عند ذلك تنازعه إلى أن يدعوهم، فكراهية النفس لترك دعوتهم، ومحبتها لدعوتهم، علامة أنه غير صادق، وأنه مخدوع.

وإن سكنت إلى الترك، ورضيت به، فهو من علامة الخير. فينبغي له حينئذ أن يعمله، وأن يمضي فيه، فإن شاء دعاهم، وإن شاء دعا غيرهم بنية جديدة.

* * *

كثرة الخطأ، وخفاء الخداع في هذا الباب:

وإن الخداع والغلط، والخطأ والعمد، والنسيان والفتن والبلايا في هذا الباب من إخلاص العمل، وصدق الإرادة، وتقدم النية شديد... والبلاء فيه كثير...

ولشدته أعطي العبد على العمل القليل بالإخلاص الثواب الكثير.

وآفاته أكثر من أن يضبطها الكتاب، وصحته أعز من أن يبلغها الآمن المخدوع المغتر بظاهر الكتاب، وظاهر العلم، وإنما يدرك ذلك كله ويعرفه أهل العناية بأنفسهم، الذين خافوا على أعمالهم أن تبطل، وخافوا على أنفسهم أن تتلف[4].

ولا ينبغي لعاقل أن يفتر عن مفاتشة همته، ومحاسبة نفسه، ونقاء ضميره، ومراقبة الله سبحانه وتعالى عند كل عمل يريد أن يعمله، وإلاّ فهو مخدوع.

---

(١) في الأصول: (فيها شيء).

(٢) في الأصول: (كلها للدنيا).

(٣) في الأصول: (فقال في نفسه).

(٤) تخصص المحاسبي في هذا الباب من علوم القلوب. وفي كتابه «الرعاية لحقوق الله» و(أعمال القلوب والجوارح) كفاية للمؤمن. وقد اعترف الغزالي بأستاذية المحاسبي في هذا الباب. وكتب المحاسبي كتاباً مستقلاً في موضوع النفس في باب العقوبة سماه (بدء من أناب الى الله). وقد أخرجناه بعنوان (التوبة).

والله نسأل التوفيق والفهم والعزم الصحيح، والإرادة الصادقة.

واعلم أن السهو والغفلة عن هذا العلم الذي به تصفو الأعمال جهل شديد، واغترار، وقلة عناية بالنفس، وقلة مبالاة باطلاع الله تعالى على فساد العمل... ومن بين هذه الصفات المذمومة التي ذكرناها نتجت الهلكة.

ونحن نسأل الله سبحانه الرشاد والسداد، والعون على القيام بما قد علمنا، والشكر على ما قد فهمنا، ونسأله أن يزيدنا من فضله... إنا إليه راغبون... ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

* * *

دلائل وعلامات

بسم الله الرحمن الرحيم... يروى عن بعض الحكماء أنه قال:

إذا ظن بك الناس أنك تعمل عملاً من الخير ولست تعمله، أو كنت تعمل عملاً من الخير وظنوا أنك تعمل أكثر منه ورفضت أن يطلعوا على حقيقة عملك، فأنت ممن يحب أن يحمد بما لم يفعل.

وإن أحببت أن يطلعوا عليه فأنت تحب أن تحمد بما قد فعلت[1].

وقال: علامة حب الله: حب جميع ما أحب الله.

وعلامة الخوف من الله: ترك جميع ما كره الله[2].

وعلامة الحياء من الله: ألا تنسى الورود على الله، وأن تكون مراقباً لله في جميع أمورك على قدر قرب الله تعالى منك، واطلاعه عليك.

ومن علامة حسن الظن بالله: شدة الاجتهاد في طاعة الله.

وعلامة الناصح لله: شدة الإقبال على الله، وفهم كتابه، والعمل به، واتباع سنن نبيه ﷺ، وأن يحب أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى.

وعلامة النصح للناس: أن تحب لهم ما تحب لنفسك من طاعة الله تعالى، وأن تكره لهم ما تكره لنفسك من معصية الله تعالى.

وعلامة الصبر: ألا تشكو من جميع المصائب إلى أحد من المخلوقين شيئاً[3].

والصبر هو: الصبر على الطاعة... والصبر عن المعصية... والصبر على كتمان المصيبة... وهو من كنوز البر... والصبر على كتمان الطاعة... والصبر: حبس النفس عن ذلك كله.

ومن علامة الرضا عن الله: الرضا بقضاء الله. وهو: سكون القلب إلى أحكام الله،

---

(١) من يحب ان يحمد بما فعل فقد سبق الكلام في أحكامه في هذا الكتاب.

(٢) راجع في هذا الكتاب ما كتبه المؤلف عن حب الصالحين وكذب النفس فيه.

(٣) مواقف الإنسان من المصيبة ثلاثة: أن يصيبه الألم في نفسه ولا يشكو وهذا دليل على أن المصيبة هي الذنب سبق. وأن يحب الألم فيشكو فهذا انتقام من العبد. وأن يسر بالمصيبة لما فيها من العلم، وهذا لدفع المنزلة. انظر (مدرج السلوك ص ٩٣).

والتفويض إلى الله قبل الرضا[1]، والرضا بعد التفويض.

ومن علامة صدق الرجاء: شدة الطلب، والجد والاجتهاد ليدرك ما رجا[2].

ومن علامة معرفة النفس: سوء الظن بها[3].

ومن علامة الشكر: معرفة النعمة بالقلب أنها من الله لا من غيره... والحمد عليها باللسان... وألا يستعان بها على شيء مما يكره المنعم.

قلت: فما تصديق معرفتي هذه؟

قال: القيام بالمكافأة بها، وإن كانت لأنكأ، ولكن إعطاء المجهود في شكرها.

ومن علامة معرفة الدنيا: الترك لها، والزهد فيها، والوحشة منها، وممن ركن إليها وأحبها وآثرها وعظم قدرها[4].

ومن علامة معرفة الآخرة: هيجان الرغبة فيها، وشدة الشوق إليها، والأنس بكثرة ذكرها، ومؤانسة من صدق في العمل لها.

ومن علامة العقل: حسن التدبير، ووضع الأشياء مواضعها، من القول والفعل. وتصديق ذلك: وإيثار الأكثر على الأقل.

ومن علامة العدل: ألا تجعل في نفسك حكمين، فتحكم لنفسك بحكم، وللناس بآخر، حتى يكون الحكم في نفسك وفي غيرها حكماً واحداً، وإنصاف الناس من نفسك.

ومن علامة التواضع: ألا يدعوك أحد إلى حق إلاَّ قبلته ولم ترده، ولا ترى أحداً من المسلمين إلاَّ رأيت نفسك دونه.

والناس يتفاضلون في المعرفة بالإيثار والرضا والشكر والحب والثقة والخوف واليقين

---

(١) التفويض هو: ألا يكون للعبد ملك ولا حول ولا قوة. بمعنى أن يسلم لله نفسه عارية من الملك والحول والقوة، ويرضى بما يجريه عليه. وهو سر العبودية. انظر باب التفويض في اعمال القلوب والجوارح..

(٢) أما رجاء المقيم على الذنب، والرجاء بلا عمل، فهو رجاء كاذب وقد سبق كلام من المؤلف على هذا في هذا الكتاب.

(٣) يعني: عدم الرضا عنها، واتهامها بالتقصير مهما كملت، لئلا تأنس إلى الرضا عنها فتنقلب على صاحبها. بالخداع.

(٤) قارن بما كتب الدبوسي في باب الفقرة من (**الأمد الأقصى**). فقد أطال الحديث فيه وربطه بظاهر الشريعة ربطاً محكماً، وليس المراد بترك الدنيا: السلبية. بل انما هو الترك بالقلب، والسخاء بها بالجوارح وعدم الحرص عليها.

والصبر. . . وأدنى الدرجات: الصبر. . . وأكثرها كلها: اليقين[1].

ومن علامة حسن الخلق: احتمال الأذى في ذات الله، وكظم الغيظ، وكثرة الموافقة لأهل الحق على الحق، والمغفرة، والتجافي عن الزلة.

ومن علامة سوء الخلق: كثرة الخلاف، وقلة الاحتمال.

ومن علامة الألفة: قلة الخلاف، وبذل المعروف.

وعلامة الصدق: إرادة الله وحده بالعمل والقول، وترك التزين: وحب ثواب المخلوقين، والصدق في المنطق.

وأطيب العيش: القناعة. والعلم: خشية الله[2]. وهي إيثار الآخرة على الدنيا، ومعرفة الطريق إلى الله.

وصلاح القلب: الرأفة والرقة. . . وفساد القلب: القسوة والغلظة.

وألذ العيش: الأنس بالله.

والأنس اجتماع الهمة[3].

وأشر الشر الذي لا خير فيه، ولا قوام لخير معه: الكبر. وخير الخير الذي لا شر فيه: التواضع. وهو: أن تضع نفسك دون الناس.

والكبر: أن ترفعها فوق الناس. وما خير لعبد آثر على التواضع شيئاً.

والحزم: الفرار من كل موضع فيه محنة[4].

والصبر: مخالفة المحبة. ولا يصعب مع قوة الصبر شيء من العبادة حتى ترتفع من درجة الصبر إلى درجة الخوف، ثم من درجة الخوف إلى درجة المحبة.

---

(١) اليقين: هو أن يكون الغيب مشهوداً كأنه رأي عين. قال الله تعالى: **﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾** البقرة. وحديث عبد الرحمن بن أبزى أن حنظلة الأسدي قال: أن نكون عند رسول الله ﷺ فيصف لنا الجنة والنار حتى كأنا نراهما رأي العين، فإذا رجعنا إلى أعلينا نسينا، وخوفه أن يكون هذا النسيان نفاقاً، دليلاً على معنى اليقين.

(٢) هذا تعريف بنتيجة العلم. قال الله تعالى: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** ـ البقرة آية ٢٣٥.

(٣) اجتماع الهمة يعني: ان يتطابق القلب واللسان والعقل والجوارح في ارادة الله بالعمل، وعدم نسيان هذا التطابق، ولا الغفلة عنه. فالنسيان يفسد العزم. قال تعالى **﴿ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾**. طه آية ١١٥.

(٤) أي) أن يفر الإنسان من كل موضع فيه امتحان واختبار وتجريب للنفس، فلا يضعها موضع رياء ليكشف صدقها من كذبها، ولا يرتاد مواطن الشبهات ليرى هل يقاومها أو لا. وهكذا.

وكما لا يطيب لعبد شيء أعطيه من الدنيا إلّا بالقنوع، كذلك لا يطيب له عمل الآخرة إلّا بالخوف[1] والمحبة. فإذا صار العبد إلى ذلـك سقطت عنـه مؤنة الصبـر[2] . . . وتنعم بالخوف والشوق.

(١) في الأصول: (ألا الخوف).
(٢) يعني لم يعد يجد مشقة في الصبر.

نعيم الخوف والشوق

المعرفة ونعيم الخوف:

قلت: فبأي شيء ينتقل من درجة الصبر إلى درجة النعيم؟

قال: بحسن المعرفة.

قلت: ممَّ حسن المعرفة؟

قال: افتقار القلب إلى الله، واقترابه منه، ومن دار الآخرة، حتى كأنهما رأي العين... ويجعل الذنوب التي سلفت منه فيما بينه وبين الله نصب عينيه، ويجعل النعمة التي قد أنعم الله عليه بها، والتي لا يحصيها ولا يقدر على شكرها في إقرار قلبه بذلك. وإجلال الله وتعظيمه وقدرته، ووعيده، وأهوال القيامة وما بعدها وما قبلها، من البرزخ والموت[1].

فإذا استقر ذلك في قلبه، وسكن القلب إلى ذلك كذلك، أنار القلب وعمر بعد الخراب[2]، وأضاء بعد الظلمة، ثم لانت المفاصل عند ذلك، وتوثبت الجوارح إلى الطاعات، فعند ذلك تسقط مؤنة الصبر، ويصير في درجة الخوف والمحبة للعبادة، وعند ذلك يجد حلاوة ما هو فيه، فتلك العبادة بحسن المعرفة.

فلا يزال كذلك حتى يعرض له من دواعي الدنيا، ووساوس النفس ما إن مال إليه قطعه عن تلك الحلاوة، ورده إلى درجة الصبر.

ولساعة واحدة من تلك الساعات خير من أيام كثيرة من أيام الصبر، لأن فيها الخوف، وفيها الحب، وفيها الشكر، وفيها الندم، وهو: التوبة، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير الدنيا، والأنس بالله.

فلا يلحق صاحب هذه الدرجة صاحب الصوم الكثير، والصلاة الكثيرة، والحج والغزو، وهكذا العمل إذا كان بالمعرفة القوية.

---

(١) ما زال المحاسبي يذكرنا بالمنهج النبوي في ربط الدار الآخرة بالدنيا وعدم الفصل بينهما في القضايا الدينية.

(٢) عمران القلب بالخوف، وقد مضى كلام للمؤلف في هذا. وقد درج علماء السلوك على أن عمران القلب بأحد أمرين: أما شوق مقلق، أو خوف مزعج. والقلب بدونهما ساكن، والسكون موت، والخوف والشوق متحرك، والحركة حياة.

كيف غفل الناس عن هذه الدرجة؟

قلت: فأين المريدون عن هذه الدرجة؟ (ولم)[1] لا يكون اهتمامهم وعنايتهم بها أكثر من عنايتهم بغيرها من الدرجات؟

فقال: هذه الدرجة في الدرجات كالجوهرة في الأشياء، واللؤلؤة الفائقة في ألف لؤلؤة، والجنس واحد، وإنما قلَّ أهل هذه الدرجة وعزّوا، لأن من الأشياء ما صعوبته في المسلك إليه، فإذا صرت إليه صرت إلى سهولة ورخاء وأنس. . . ومن الأشياء ما سهولته وشهوته في طريقه، وصعوبته وشدته في نفس ذلك الشيء إذا صرت إليه.

والعامة يعنون بالشيء الذي فيه السهولة، فإذا صاروا إلى الشدة والمرارة كاعوا[2]، وتحيروا وخسروا، وقد كانوا قبل ذلك يسرعون إليه لما فيه من السهولة.

أولا تراهم يطلبون العلم فإذا صاروا إلى إستعمال العلم والورع لا ترى من يستعمله، ولا من يريده إلّا الواحد بعد الواحد؟

أولا تراهم يتعلمون السير، وفضائل الجهاد، فإذا صاروا إلى شروط الجهاد لا ترى من يقوم بعمله؟

هذه الدرجة شديدة في الطريق إليها، ولا ترى في طريقها إلّا الواحد بعد الواحد من الكثير. . . فلذلك قل أهل هذه الدرجة، وكثر طلاب غيرها من الدرجات، لأنها هي الدرجة التي استعبدت العباد، وهي درجة الصدق وصار علمها مهجوراً، وصار الناس إنما يريدون من العمل ما خف محمله، وقلت فيه مفاتشة الهمة، ونقاء الضمير، والتوقف، ومحاسبة النفس، ومخالفة الهوى، ومجاهدة العدو[3].

واعلم أن رضا العبد بالحالة التي هو عليها مقيم ضعف وبلية نزلت به.

---

(١) سقطت من الأصول.

(٢) كاعوا: أشمأزوا.

(٣) ونتيجة ذلك أن تموت السنن، وينسى المنهج النبوي، وتحيا مكانه مناهج باطلة مدخولة، بهذا المجال اندثرت الطريقة المحمدية التي يتحدث عنها المحاسبي، وحل محلها التصوف النظري الذي يقوم بالفلسفة. أو الطرق المتأخرة التي تهون من شأن الغضب الإلّهي على العصاة، وتربط الدين برضا الشيخ بدلاً من رضا الله ورسوله، وبالآمال الكاذبة المضحكة التي نراها في كتب المتأخرين. كالتيجانية الذين يقولون: ان الشيخ سيكون وكيلاً عن الله في محاسبة المريدين.

المحب مسارع إلى القربات:

وقال: المحب ينازع إلى القربة أبداً ما عاش... والخائف يتعرض للنجاة... فلما استيقن بالرحيل صار مخادعاً لنفسه[1]، ومؤثراً لما قدم على ما خلف.

ولا أعلم في الناس شيئاً أقل من الغضب لله، والرضا لله، والحب لله، والبغض لله، وأقل من ذلك الرضا عن الله تعالى، والتسليم لأمره، وتفويض الأمور إلى الله.

وأكثر سلامة الناس من الشر بالصبر... وأكثر طلبهم للخير بما وافق الهوى... والإنسان في أكثر النعم مخالف الشكر... وأقرب خصال الخير من الله أثقلها على العبد... ولو قبلها بشكر كان أقربها إلى الله أحبها إليه.

فهذا العبد يرجو رحمة الله باليسير من البر، كما يرجوه بالكثير من البر سواء... ويخاف سخط الله باليسير من الذنوب، كما يخاف سخطه بالكثير من الذنوب سواء... ولا يكون حسن الرغبة في كثير من الحسنات إلّا كان في القليل كذلك.

وقال: إذا أردت أن تصلح من أمرك شيئاً فاشتد عليك، فخل عن جميع أعمال البر من التطوع كلها... واجعل شغلك كله فيه... فإنك تعان عليه إن شاء الله[2].

* * *

---

(١) يعني: خدعها بسياسة لها حتى غلبها، وآثر الآجلة على العاجلة. وفرق بين من يخادع نفسه ومن تخادعه نفسه.

(٢) مذهب المؤلف: أن التطهير من خلائق السوء أفضل من عمل البر من التطوع مع الإقامة على الخلق السيىء، لأن الشر يخالط الخير فيحوله إلى شر كما سبق حديثه عن ذلك.

مراتب العمل لله

وقال: الناس يعملون على أربعة وجوه:

فأشرفها وأفضلها: قوم عملوا لله على التعظيم له، فحسنت أعمالهم، وكرمت فعالهم على وجه عظمته في صدورهم، وعظم قدره في قلوبهم، فلم يكن شيء أحب إليهم، ولا ألذ عندهم من شيء يتقربون به إليه.

وآخرون عملوا على وجه الرغبة، والحرص على جواره، فلم تكن لهم همة إلّا ترك ما نهاهم عنه، لتعظيم ثوابه، وخافوا فوات خير ما عنده من عظيم ما أعد من الثواب لأهل ولايته.

وآخرون عملوا مخافة منه ومن عقابه، فكانت همتهم (في)[1] الرهبة من العقاب قد حالت بينهم وبين الرغبة في الثواب. وكانت الأعمال منهم على وجه الفرار من العقاب، وليس يخطر الثواب على قلوبهم لعظم العقاب في صدورهم، ويقولون في أنفسهم: إن بلغتنا أعمالنا إلى الخلاص من العقاب لقد ظفرنا بالفوز العظيم.

فخرجت الغربة[2] من قلوبهم[3]، من كثرة الرهبة، فما تخطر الجنة بقلوبهم من عظم العقاب في صدورهم.

وآخرون عملوا على وجه الحياء من الله سبحانه... استحيوه في ليلهم ونهارهم، إذا غلقت الأبواب، وأرخيت الستور عليهم، لما أيقنوه أنه هو الذي يلي عرضهم ومساءلتهم.

فانسحيوا من كل قبيح يعملونه في سرائرهم، حتى كأنهم ينظرون إليه... ولما استيقنوا بنظره إليهم قالوا: سواء علينا نظر إلينا أو نظرنا إليه[4]... وأيقنوا أنه أقرب إليهم من حبل الوريد.

فلما أيقنوا بذلك حال يقينهم بينهم وبين مثاقيل الذر، وموازين الخردل، مما يكره المطلع عليهم. وكان الحائل بينهم وبين اعتقاد القلب على شيء مما يكره سيدهم:

---

(١) سقطت من الأصول.

(٢) في الأصول: (الرهبة). والسياق يقتضي ما أثبتناه.

(٣) في أ: (منهم).

(٤) كان هذا شرح للحديث النبوي: «أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ولقوله تعالى: **﴿يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾**. البقرة ٢٣٥.

معرفتهم بأنه مطلع في ضمائرهم، وينظر إليهم في كل حركة تكون منهم، وكل سكون، وكل خطرة، وكل طرفة عين، وكل همة، وكل إرادة، وكل نية، وكل محبة، وكل شهوة.

* * *

وأما نحن فلم يهيجنا على عملنا التعظيم له، ولم تهيجنا[1] رغبتنا في عظيم الثواب، فنتقرب بحسن الفعال. ولم تدعنا الرهبة من العقاب إلى ترك مساوىء الأعمال، ولم يحل الحياء منه بيننا وبين قبيح الأعمال فيما بيننا وبينه.

فنسأل الله المنان الذي منّ عليهم: أن يمن علينا بما منَّ به عليهم، وأن يهب لنا مثل فعالهم، فإنه فعال لما يريد.

وقال: الصدق عند العبد على قدر إرادته، والشكر عنده على قدر موقع النعمة منه.

* * *

(١) في الأصول: (ولم ينهج) وما أثبتناه أوضح.

السلوك السلفي

ذكر الآخرة:

بسم الله الرحمن الرحيم. يروى عن بعض الحكماء أنه كتب إلى أخ له:

سلام عليك... أما بعد... فاذكر ما أنت عنه زائل، وعليه قادم، وإليه صائر، كذكر من نظر فاعتبر، وأخذ حذره فازدجر، وتعوذ بالله من موت القلب عن شدة العناية للسداد والرشاد، وحسن الاستعداد للمعاد.

فلو فكر العباد وعلموا أنهم لا يسعهم أن يردوا على الله إلّا بما له فيه رضا، علموا أو جهلوا، وألّا يطلع الله على ضمائرهم فيرى فيها شيئاً مما يكره، وأن يكونوا نادمين على ما كان منهم ما لم يكن فيه رضاه، مما علموا أو جهلوا، إذن لاجتهد من كان يخاف الله منهم بالغيب أن يكون مجهولهم معلوماً، ومعلومهم معمولاً به، وأن يكونوا نادمين على ما فات منهم من ذلك.

* * *

واعلم يا أخي أن الله سبحانه جعل نجاة العباد برحمته في المعرفة، ثم في الإرادة، ثم في ترك ما أمرهم بتركه، ثم في العمل بما أمرهم به، ثم في شكر نعمه التي أنعم بها عليهم قديماً وحديثاً، ظاهراً وباطناً.

* * *

معرفة الله:

فأول ما أراد الله تعالى من العباد: أن يعرفوه عن الوجوه التي تعرف إليهم منها، فإنه قد تعرف إليهم من خلقه للخلق، وتدبيره في الخلق، ومن قدرته على الخلق، وتكفله بأرزاق الخلق، وإماتته الخلق، وإحيائه الخلق، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله أحسن الخالقين.

* * *

إرادة الله بالعمل:

وأراد منهم بعد المعرفة: أن يريدوه بكل ما عملوا من أعمال البر، ولا يروا غيره، ولا يطلبون الثواب إلّا منه، فلو كان يمكن أن يكون قبل المعرفة شيء لكانت الإرادة قبل

المعرفة، ولو استغنى عن المعرفة بشيء لاستغنت الإرادة عن المعرفة.

فالمعرفة قبل كل شيء، وأصل كل شيء، ثم الإرادة، وهي منها. وهي: تحقيق الترك. وتحقيق العمل، والأخذ والإعطاء، والحب والكره في الأعمال كلها[1].

وهي ولية عقد منافع أهل الأعمال في أعمالهم.

* * *

شكر النعم:

والشكر على قدر المعرفة، فمفتاح النعم وأفضلها كلها وأولها، هي نعمة المعرفة[2]. ولا أعلم بعد نعمة المعرفة أعظم قدراً من نعمة العقل[3]... ونعمة الإرادة نعمة يعسر مبلغ شكرها.

وآخر النعم نعمة الحكمة[4]. فنسأل الله خاتمة خير، ونسأله أن يعرفنا جميع نعمه، وأن يوزعنا الشكر على ذلك، فقد ينال العبد بالمعرفة والإرادة من الخير والقرب من الله سبحانه وتعالى ما لا يناله صاحب العمل الكثير.

* * *

معرفة ما يحب الله وما يكره:

وإنه ليس شيء أولى بالعبد بعد معرفة الله من معرفة ما يكره الله، وهو الذي نهاه عنه، وتقدم فيه بالوعيد، والزجر والتحذير.

ثم معرفة ما أحب الله وهو: الذي أمر به، ورغب فيه.

فأبلغ الأعمال إلى رضوان الله: مفارقة ما يكره الله، ثم مباشرة ما يحب الله تعالى، وما رغب فيه.

---

(١) تحقيق هذه الأعمال يعني: جعلها أعمالاً حقيقية صادرة من العبد لله وحده، فلا تكون مزيفة لإرادة غير الله أو إرادة شيء مع إرادة الله بها.

(٢) في ب: (أولها نعمة المعرفة).

(٣) كتب المؤلف كتاباً مستقلاً عن العقل ومعناه، وحصره في العقل عن الله وقد نشرناه مرفقاً بأعمال القلوب والجوارح.

(٤) لا يقصد التأخر في الفصل، بل إنها آخر ما يمنح من الله للعبد عند التمام والكمال. قال تعالى: ﴿**ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذّكر إلا أولو الألباب**﴾. وهذا الترتيب في هذه الفقرة قصد به ترتيب السلوك في الحكمة من نهاية السلوك. وقد سمّى الله سنة الرسول ﷺ «الحكمة» قال: ﴿**واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله**﴾. الأحزاب آية ٣٣.

فانظر يا أخي، إذا أصبحت فلا يكن شيء أهم إليك من أن تميت خصلة تهواها نفسك مما يكره الله تعالى فإنه يحيا لك مكانها خصلة مما يحب الله، ولك بعد ذلك التضعيف، من النور الساطع في قلبك، والفهم.

واعلم يا أخي أن الدنيا منها حلال مباح، ومنها شبهات، ومنها حرام.

فإذا كان في قلب العبد عقدة متمكنة من عقد حب الحلال المباح، لم تنقطع عنه مواد نوازع الشبهات والمكروهات.

وإذا كان في قلبه عقدة متمكنة من عقد حب الشبهات[1] والمكروهات، لم تنقطع عنه مواد نوازع الحرام. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من وقع في الشبهات فأوشك أن يواقع الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»[2].

فكل من تمكنت الشبهات من قلبه، واطمأن إلى أخذها، وقع في الحرام، لأن الشبهات أقرب إلى الحرام منها إلى الحلال.

قلت: فكيف يصنع الناس بمرافقهم وحوائجهم؟

فقال: إني لم أنهك عن كسبك وحوائجك، وما تحتاج إليه منها، وإنما أحذرك أخذ ما لا تحتاج إليه منها. ونهيتك عن اعتقاد الحب لما تحتاج إليه منها، حتى تكون تأخذها من المباح وهي راغمة، وأنت عالم بها، وبصغر قدرها عند خالقها، إذ يقول لنبيه ﷺ: ﴿**قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى**﴾[3].

وإذ يقول نبيه ﷺ: «لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»[4]

واعلم أن المعتقد لحبها وهو عالم بها لا يؤمن عليه أن تستولي على قلبه، فتملكه، فيأخذ بعد الحلال الشبهات، وبعد الشبهات الحرام.

واعلم أن المعتقد لحبها وغير المعتقد يأتيان على حاجتهما. واعتقاد حب الدنيا من الحلال وهن في قلوب العارفين، ولا يزيد ذلك في رزق المعتقد، ولا ينقص من رزق الذي لا يعتقد المحبة.

---

(١) لعل هذا أول كشف عن العقد النفسية في تراث المحاسبي وفي التحليل النفسي في العالم كله.
(٢) أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود.
(٣) سورة النساء، آية: ٧٦.
(٤) أخرجه مسلم عن ابن عمر.

واعلم أنّ العباد إنما أمروا بالاشتغال بالعمل من الجهل، وبالعمل بالإخلاص ولا تنال هذه الدرجة حتى تكون بحالة لو قدرت أن تترك ما تحتاج إليه منها لتركته.

* * *

آفة حب الجاه عند المخلوقين:

وأما الشبهة الأخرى التي يكرهها الله سبحانه وتعالى، فطمعك في القدر والجاه والثناء عند المخلوقين، وخوفك من سقوط منزلتك عند المخلوقين، وذلك مما يسقط منزلتك عند الله عز وجل.

فأهل المعرفة بالله، وأهل الإرادة، يكرهون أن يراهم الله سبحانه وقد اعتقدوا من ذلك شيئاً.

حملتهم المعرفة بالإجلال لله، وإيثار محبته على ألّا ينظر إليهم سيدهم وفيهم شيء مما يكرهه في مبلغ عملهم، فهم يكرهون ما يكره الله في غيرهم، فكيف يرضون به في أنفسهم؟

أبت معرفة الله أن يساكنها شيء من مكاره الله... وأبت الإرادة أن تشتغل بغير ما أحب الله... قد شغلتهم المعرفة بالفكر في كثرة نعم الله عز وجل عليهم... وعجزهم عن أداء شكرها.. مع عجزهم عن إحصاء عددها... وباستكثار ذنوبهم... وكثرة ذكرهم للحياء من الله أن يسألوا الجنة... فليس تخطر الجنة لهم على بال... وقد حال بينهم وبين مسألتها الحياء من الله... والخوف منه... ومصيبتهم في أنفسهم مما يخافون من فوت رضوان الله عنهم، وسخطه عليهم، أعظم في أنفسهم، وأوجع لقلوبهم من فوت الجنة وخوف النار، ومن الذي يجدون مما يلقي الشيطان من الخطرات، وعوارض الدنيا، وحب التزين لأهلها عند عبادتهم وطاعتهم، وكثرة فساد النية، والآفات التي تعارضها، فهم بذلك مغموصون مكروبون، مخافة أن يراهم الله وقد تزينوا لأحد غيره[1].

فلا تكن يا أخي بشيء أعنى منك بالمعرفة والإرادة، فإن الخير تبع لهما، وهما علامة نظر الله لعبده، وبالله التوفيق.

* * *

(١) يتعجب المخلوقون من هذه العاطفة العميقة نحو الله تعالى، وفي الوقت لفسه يحملون مثل هذه العاطفة لكبير من كبراء الدنيا.. ولكنهم لا ينفذونها. وهذا نفاق. وبعض الصوفية المحدثين يطالبون مريديهم بمثل هذا التعظيم لهم، وفي الوقت ذاته يطلبون منهم على التقصير نحو مولاهم.. والمحاسبي أحد القلائل في تاريخ الإسلام بعد التابعين الذين دانوا بهذا السلوك قولاً وعملاً.

السمع عن الله، والعقل عن الله:

ثم أوصيك يا أخي بعد مراقبة الله عند همتك إذا هممت، وعند كل حركة تكون منك، وكل سكون: أن تستمع من الله، وتعقل عنه، فإن في هذا القرآن الذي أنزل علينا تبيان كل شيء، وعلم كل شيء.

فعليك بتدبره وتأمله في الليل والنهار، وأعمل نفسك في فهمه، والعمل به، أولا تسمع إلى قوله تعالى: **﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ وَلاَ أصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أكْبَرَ﴾**[1].

فلا تغفل عن مراقبة من لا يغرب عنه أصغر من مثقال ذرة، ولا تشبع ولا تمل منها، فإنه تعالى لا يغفل عنها، ينظر إليك، ويطلع على ضميرك، ويحصي عليك مثاقيل الذر، وموازين الخردل، حتى يجزيك بذلك أولا تسمع إلى قول الله: **﴿إنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾**[2].

* * *

كمال المراقبة:

واعلم يا أخي أنه لا يكاد يحسن الشيء إلّا بشيء قبله وشيء بعده.

فأما ما تحسن به المراقبة قبلها: فالانقطاع إلى الله، ولزوم طاعته، بالمراقبة له في السر والعلانية.

وأما ما يحسن [به][3] الانقطاع إلى الله قبل الانقطاع فأربعة أشياء: التوبة، وإيثار ما يحب الله على ما يكره، وأن تكون به أنس منك بخلقه، ولا تفرح بما زادك من الدنيا ولا تحزن على ما نقصك منها وهي درجة أهل الورع[4] والقنوع.

---

(١) سورة: يونس، آية: ٦١.

(٢) سورة: النساء، آية: ٣٩.

(٣) ما بين المعقوفتين سقطت من الأصول.

(٤) الورع مشتق من الخوف كما تقول العرب: راعني فلان، وروعني: خوفني.. ومعناه الاصطلاحي: إسقاط ما حاك في القلب، مع ترك ما اشتبه عليك، وترك ما يريبك الى ما لا يريبك. والذي يزيد فيه علم قوة القلب لقهر الله.. وعلى قدر هيجان الخوف يكون الورع. انظر (القصد والرجوع الى الله ص ٤٦، ٤٧ وأيضاً القلوب والجوارح ص ٢٠٧).

والذي يقويك على ذلك: التصديق بوعد الله تعالى، والثقة بضمانه، والترجي بما يكفيك منها، ولزوم سرعة الانتقال عن الدنيا.

وأما إيثار ما يحب الله على ما يكره، فسبحانه ليس أحد أحق ولا أولى بذلك منه تبارك اسمه. وهو إيثار محبته على هواك، وهو فرض على المدبرين عنه والأبّاق[1]، أن يرجعوا إليه ويعاملوه. وكيف لا يؤثره من تعوّد القرب منه، والانقطاع إليه؟

أما الأنس به فهو: أن تكون به أشد أنساً منك بخلقه[2]، فمن عرفه وعرف لطفه وكثرة أياديه، وحكمه، وبره وعطفه، وتفضله، أنس به.

وكيف يراقب العبد من لا يعرفه؟ وكيف ينقطع إلى من لا يثق به، ولا يأنس به؟

وأما الذي يحسن الشيء بعده فالشكر. وأشهد أنك لو عقلت ما تقرأ، وكنت مريداً لهذه المنزلة، لنظرت إليه بعين المحزونين الخائفين ألا يقبلك، وأن يستقذر إرادتك وسيرتك، وأن يردّك عن بابه، وأن تقدم عليه وأنت كذلك.

* * *

الاعتبار:

واستعن في أمرك كله بالاعتبار، فإن الأمر لا يزال مستوراً منك، أو غائباً عنك. فإذا نظرت إليه نظر المعتبر كاد أن يقوم لك الاعتبار مقام المخبر المعاين لما قد غاب عنك، ومقام الكاشف لك عن المستور عنك، حتى تنظر إلى زين الأمور وشينها، وحسنها وقبيحها، وتعرف من أين صار الحسن حسناً، والقبيح قبيحاً، فتتبع من ذلك ما فيه نجاتك، وتجتنب ما فيه هلكتك، وتعرف الناس بالاعتبار على منازلهم في لحن القول، ولحن الفعل، وتعرفهم، وتعرف منازلهم، ومذاهبهم، بنور الاعتبار[3]، ومواهب الإلهام إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(١) **الأبّاق** جمع آبق، وهو الهارب.

(٢) يعبر المحاسبي عن هذا المذهب في خاصة نفسه بقوله: «لو ان نصف الخلق بعد مني ما استوحشت لبعدهم، ولو أن النصف الآخر اقترب مني ما أنست بقربهم».

(٣) الاعتبار هو الاستدلال بالشيء على الشيء. وهو: أن تنظر الى الشيء المتقن بقلبك، فبالنظر عليك التعجب من نفاد القدرة، واتقان الصنع، وحسن التدبير، ثم لا تقع عينيك على شيء إلا دلك هذا الشيء على غيره، وعلى قدر صحة العقل وقوة الإيمان تكون قوة الاعتبار. انظر (القصد والرجوع الى الله) ص ٨٥.

الاقتصاد والحزم:

وعليك يا أخي بالاقتصاد والحزم في أمورك كلها، فإن الاقتصاد أرجا للثبات[1]، وأسلم من الآفات، والحزم ينفع أهله عنده الشدة، ولا يضرهم عند الرخاء.

فاستكثر من المعرفة ما قدرت، فليست المعرفة كالعمل، للعمل حد ينتهي إليه، وليس للمعرفة حد تنتهي إليه، لأنك تريد بالمعرفة استكمال أمر الله، وإقامة حقه، ولا يبلغ ذلك أحد، لأنه سبحانه وتعالى أجلّ وأعظم من أن يبلغ الآدميون كنه حقه.

غير أنهم يتباينون فيه بزيادة المعرفة ونقصانها، مع المعرفة والأنس، والروح والفرح والراحة، لزيادتها نعمة من الله، ونقصانها عقوبة من الله بذنب، أو تضييع شكر.

* * *

إحذر صغائر الذنوب، وارغب في صغائر الخير:

واحذر ما يكره الله من عملك ونيتك، وسرك وعلانيتك، في الصغير، كما تحذره في الكبير، وإن كل شيء يفسد عليك مثقال ذرة قدمته لله يفسد عليك مائة ألف دينار... والدنيا كلها مثل ما أفسد عليك مثقال ذرة، فساداً سواء، لا فضل بينهما.

ثم هكذا في سائر الأعمال. يأتي الفساد على كثرتها كما يأتي على قلتها سواء.

وارغب في الصغير من الخير[2]، كما ترغب في الكبير، رغبة واحدة، لأنه يقبل القليل من العبد كما يقبل الكثير قبولاً واحداً سواء، وهكذا في سائر الأعمال.

وكفى بقبول الله الصغير من عبده لعبده فوزاً، مع أن أعمال بني آدم كلها صغاراً، إلاَّ ما قبل الله منها، فإذا قبل منها شيئاً صار عظيماً، وإن كان قبل ذلك صغيراً.

واعلم أن صغارها أسلم من كبارها في الرياء والإعجاب والامتنان. فانتبه لذلك[3]، ولا تغفل عنه.

واعلم أن لك في عملك إرادة وأملاً، فانظر إرادتك في أعمالك كلها، كإرادة أهل

---

(١) حدد المؤلف معنى الاقتصاد في متناول الحلال في (الوصايا ص ٦٣) وهنا يجعله عاماً في كل شيء على الثبات والدوام.

(٢) حرَّض الرسول ﷺ الأمة على عدم احتقار عمل البر الصغير، كما في قوله: «تصدق ولو بتمرة». وقوله: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق».

(٣) في أ: (وانتبه في ذلك).

الشكر والرضا، وأملك فيه كأمل المسرفين على أنفسهم، فليس شيء أحب إلى أهل الرضا من شيء يرضى الله به، ولا شيء أحب إلى أهل الشكر من شيء يشكرون الله عليه، ولا شيء أولى بأهل الإسراف على أنفسهم من شيء يرجون به عفو الله.

واعلم أني لست من قلة العمل أخاف عليك وعلى مثلك، ولكن أخاف عليك من قلة المعرفة، وضعف الإرادة.

لا أجدني أخاف عليك وعلى مثلك من قلة التطوع، ولست أخاف من الورع ألا تنظر فيه كما ينظر غيرك، أو لا تترك شهوات أحلها الله لك، وتؤثر بها عليك غيرك.

إلّا أني أخاف عليك: أن تنازع في أمر يكرهه الله ولا ينفعك، قد خفي عن الناس، وهو عند الله ظاهر، فيفسد عليك جميع ما أردت... أو ترى أن لك فضلاً على غيرك، فيخبط ذلك جميع ما كنت فيه.

وأخاف عليك ألّا تقوم بصيانها، كما قمت بعلمها، فيهدم ذلك جميع ما كنت فيه، وما بنيت عليه. أو لا تؤدي ما يجب عليك من الشكر فيها، فيلزمك من الذم في كفران النعم أكثر مما رجوت من الحمد فيها.

أو تكون تدل[1] على الله عز وجل بعملك، فيسقطك ذلك من عند الله.

أو تمنّ به على أحد، أو تؤذي بسببه أحداً. فقد علمت ما قال الله عز وجل في ذلك:
﴿يَآأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تُبطِلوا صَدَقاتِكُمْ بالمنِّ والأذى كالَّذي ينفِقُ مالَهُ رئَآءَ النَّاسِ ولا يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فمثلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عليهِ تُرابٌ فأَصَابَهُ وابِلٌ فتركَهُ صَلْداً﴾[2].

وربما يعزم على العمل الذي أراده فلا يجده كما وجده بغير عزم عليه.

* * *

كمال العزم:

قلت: فما بال الرجل يأتيه الأمر مما يحب من غير طلب ولا عزم عليه، حتى ربما أخاف من عزمه أن يكون عليه أكثر مما يكون له؟

---

(١) تدل: من الادلال: وهو استكثار العمل واستحسانه عند نفسك، مع نسيان النعم، من الله، ونسيان توفيقه، مع الرجوع بالحسن الى الله هو الذي ابتداك يزيل الادلال والاعجاب من القلب هو: ان تعلم ان الله هو الذي ابتداك بالعمل موهبة منه لك، وخصك به بلا استحقاق انظر (القصد والرجوع الى الله ص ٦٨).

(٢) سورة: البقرة، آية: ٢٦٤.

قال: هذا من الذي قلنا: لا يصلح الشيء إلّا بشيء قبله وشيء بعده، فإذا لم يكن عزم بمعرفة كان عاقبته نحو الذي ذكرت.

ومعرفته: أن يكون بدؤه بالافتقار إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يكون كالتّألّي[1] على الله.

والتوكل: أن ينفرد بإشعار قلبه في تفويض المقدرة إلى الله سبحانه وتعالى، والتبري من الحول والقوة، أولا تسمع إلى قوله تعالى: **﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾**[2]. فهذا زيادة على التوكل أمر أمرك الله به. وقوله تعالى: **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾**[3]. والمشورة من الحاجة لا من الغنى. أمر الله نبيه ﷺ أن يستعين بمن ليس هو مثله، وأن تبقى سنّته سنّة لمن هو بعده[4].

فكيف بمن هو مثلي ومثلك إذا سها عن الله فيما لا يسعه إلّا التضرع إليه؟

أولا تسمع إلى قوله عز وجل في قصة يعقوب: **﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾**[5]. فكان عاقبة يعقوب تمام ما أراد.

وقول يوسف في القرآن: **﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ. فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾**[6]. وتمم له أمره حين أخرج نفسه من القدرة، وأقر بالافتقار، وفوض الأمر إلى ربه.

وقول الآخر في القرآن: **﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾**[7]. فسألوه ولم يفوضوا إليه أمرهم، لا قبل المسألة ولا بعدها. قال: **﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾**[8]. ولم يتمم لهم أمرهم.

وقول الآخر أيضاً في القرآن: **﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمَا**

---

(١) التألي على الله يشبه إلزامه بفعل شيء على مقتضى قوانين البشر. والافتقار: اعتراف العبد ويقينه انه لا يتحرك ولا يسكن إلا بإذنه ولا يملك من أمره شيئاً.

(٢) سورة: الكهف، آية: ٢٣.

(٣) سورة: آل عمران، آية: ١٥٩.

(٤) فكأن المشورة من مقدمات العزم وهو الافتقار الى الله تعالى، ومن التدريب عليه فيما بين البشر بعضهم مع بعض، وتلك إحدى فرائد المحاسبي في فهم القرآن.

(٥) سورة: يوسف، آية ٦٧.

(٦) سورة: يوسف، آية ٣٣ - ٣٥.

(٧) سورة: يونس، آية: ٢٢.

(٨) سورة: يونس، آية: ٢٣.

صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ فيمَآ آتاهُما﴾[1].

ثم انظر إلى قول آدم حين تقدم على حمل الأمانة بغير افتقار ولا استكانة، فلم يتمم له أمره، وعير بالجهل والظلم[2].

وماذا يغني العزم من الذي ليس بيده الأمر؟

* * *

(1) سورة: الأعراف، آية: ١٨٨، ١٨٩.

(2) وذلك قوله تعالى: **﴿إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾**. الأحزاب آية ٧٢.

من فرائد الحكمة

قال: ومن لا يكون عالماً بما ورد عليه من الله يوشك ألا يكون عالماً بما ورد على الله تعالى منه.

اعلم يا أخي أنه من أطاع الله ولم يَخَفْه فقد أطاعه في العمل، وعصاه في ترك الخوف، فكيف بمن يعصيه ولا يخافه؟

وقال: لو أنك لم تأخذ من الدنيا إلاَّ قوتك، غير أنك لم ترد الله به، قطع بك، ولو تركت قوتك من الدنيا، ولم ترد الله به، قطع بك[1].

وقال: لو عقلت عن الله أمرين، لنظرت إليه بعظيم الشكر له، حيث لم يجعل دعاءه إلى الجنة في ترك ما تحتاج إليه في الدنيا، ولم يجعل دعاءه إلى النار في حاجتك منها.

وقال: اعرف النعمة تكن من أهلها، فإن البهيمة لا تجد رائحة المسك، وإن حشى به منخراها.

وقال: كن من أبناء الحق، يحبك الحق.

وقال: اجعل نفسك تابعاً في طريق الهدى، ولا تجعلها قائداً إلى طريق الهوى.

وقال: احذر شهوة لا تبقى، وندامة لا تفنى.

وقال: أنيسك اليوم هو أنيسك غداً في قبرك، وعملك اليوم هو عملك غداً، فانظر من أنيسك، وما عملك؟

وقال: احفظ الله عند هواك، يحفظك عند لقاك[2].

وقال: تَعَوَّذْ بالله من عمل ظاهره طاعة، وباطنه معصية[3].

وقال: ما ترك الحق لأهله سروراً، ولا أبقى الباطل لأهله من الآخرة نصيباً.

وقال: من علم ما بين يديه، هان عليه ما في يديه[4].

---

(١) معنى هذا: أن أخذ المباح لا بد أن يقترن بنية وإرادة الله وحده حتى يكون طاعة لها وبها، وإلا انقطع العبد عن الله. وكذلك **الزهد** في المباح.

(٢) أي عند لقائك له يوم القيامة. وحفظ الله عنه الهوى: عدم متابعة الهوى في المعصية.

(٣) وذلك كالعمل المقترن بالإعجاب، أو الرياء والسمعة.

(٤) ما بين يديه: يعني ما ينتظره من الحساب يوم القيامة، وما في يديه يعني: الدنيا وزينتها.

وقال: إذا أكملت معرفة الرجل بالدنيا تعجب من أبنائها، وإذا عمي عن معرفة الآخرة تعجب من أبنائها.

وقال: من عرف الدنيا قاطعها، ومن لم يعرفها انقطع إليها. ومن عرف الآخرة انقطع إليها، ومن لم يعرفها قاطعها.

وقال: أقل الشهوات لك نفعاً في الدنيا أضرها عليك في الآخرة، وأقل شهوات الآخرة مؤنة عليك في الدنيا أردها عليك في الآخرة.

وقال: [ما] أيسر الأمر على من احتسب بنفسه عن منافسة أهل العز في عزهم، فقد هدي إلى المرتقى الذي ارتقى منه المحبون لقرب الله عز وجل.

وقال: اختيار العبد للعبودية[1] شفاء، وبرد على الفؤاد، وجلاء للبصر.

وقال: طلب العبد للحرية[2] بلاء يغشى منه البصر.

وقال: العامل الناظر عمله على المحبة، والعامل السامع غير الناظر عمله على الاستثقال. فاعمل عمل من سمع ففهم، ونظر فأبصر، ولا تعمل عمل من سمع ولم ينظر.

وقال: رب نعمة تصير عقوبة ونقمة، ورب عقوبة تصير نعمة[3].

وقال: إذا أردت أن تحب شيئاً فأكثر ذكره، فإن الذكر والنسيان لا يجتمعان.

وقال: الحسنة الصادقة المشكورة يثاب عليها صاحبها في الآخرة، ويزاد منها في الدنيا، يزاد للشكر، ويثاب للصدق.

وقال: من أنفع العبادة أن يعامل العبد نفسه باستصغار الدنيا عندها.

وقال: ومن أحسن العبادة: أن يمتلىء قلب العبد من حب الطاعة، فإذا فاض عملت الجوارح على قدر ما رأت من القلب، فربما كانت الجوارح في العبادة والقلب في البطالة.

---

(١) العبودية: عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح. والعبودية هي: سكون القلب إلى كل ما ورد عن الله من أمر ونهي دون بحث عن حكمة الأمر والنهي، وسكون القلب الى كل ما يرد عن الله من أقدار، ثقة باختياره ويعلم بصلاح عبده، دون منازعة ولا مغالبة. انظر أحسن ما كتب في هذا الباب: باب العبودية من (**الأمد الأقصى**) للدبوسي تحت الطبع لنا.

(٢) الحرية هي: استقلال الإنسان بالعمل دون افتقار الى الغير. وهي مستحيلة من بداية الإنسان الى نهايته، فالإنسان محتاج في وجوده الى موجد، وفي نمائه الى مسخر يسخر له أجهزة النماء. ويرى الدبوسي أن الملوك عبيد لحراسهم وجندهم بالقلوب، والجنود عبيد بالأجساد وفرق بين العبوديتين. انظر باب الفقر من (من **الأمد الأقصى**).

(٣) النعمة تصير نقمة إذا طغى الإنسان وعصى بها. والعقوبة تصير نعمة إذا ردت الإنسان الى الحق.

قلت: وكيف عبادة القلب دون الجوارح؟ وكيف يفيض القلب بالعبادة إلى الجوارح؟

قال: أن يصير وعاء للهم والحزن، والافتقار والخوف، والندامة والتواضع والاضطرار إلى الله عز وجل، والنصح له وحب ما يحب الله، وبغض ما يبغض الله.

فإذا عامل الله على هذا بقلبه، هاجت الجوارح بمثل ما رأت من القلب، فانبعث على الطاعة، وإنما يكون ذلك من القلب إذا خالط سويداءه ما تأتي به القيامة.

والباب الآخر: أن يمتلىء قلبه من معرفة نعم الله عز وجل، وسروره بالله، وأنسه بعبادة الله، وشوقه إلى محاب الله، وحبه للشكر لله، ورجائه مغفرة الله.

فإذا عامل الله بهذا من قلبه، اشتاق إلى عبادة الجوارح معه، فيكون عاملاً، وفي عمله أنس وسرور وحلاوة[1].

وقال: ومن أشرف العبادة أن تراقب الله بما يحب الله، فإذا فترت عن ذلك راقبه فيما يكره[2]، ملتمساً العود إلى الحالة الأولى التي كنت عليها، حريصاً على ذلك، [فيحدث لك حينئذ][3] إليها حنين شديد، فإنه إذا رآك كذلك تحن وتحرص، رد عليك ما سلبك.

قال: وفي هذه المسألة والتي قبلها، وفي جميع الأعمال، على العامل أن يعقل ما على القلب، وما على جوارح، فيبدأ بما على القلب، ثم بما على الجوارح... فإن القلب هو الأصل، والجوارح أغصان، ولا تقوم الأغصان إلاَّ بالأصل[4].

قال: ومن أحسن الأخلاق أن تكون سجية العبد التواضع، ومن أحسن الفعال الإحسان إلى من أساء إليك.

وقال: اجتهد ولا تيأس، ولا تقل عند ذكر الصالحين: لولا ذنوبي لرجوت طريقة الصالحين، فيُفَتِّرك ذكر ذنوبك عن العمل، فإن صاحب الحمل الثقيل أولى أن يجتهد في إسقاط ما قد حمل من المخف الذي ليس على ظهره شيء.

---

(١) هذه عبادة الإيمان واليقين، لأن القلب المؤمن الموقن الذي يشهد الغيب كأنه منظور، تفيض من قلبه صور الإيمان، وصور الإيمان في اللسان تصديقه، وفي الجوارح قيام بالفرائض، وبعد عن المكاره، وفي اليد بذل وصدقة، وفي الرجل سعي الى اغراض الله، وفي النفس موافقة للقلب، وهذا كل الأعمال. انظر عبد الغني النابلسي في (الفيض الرباني ورقة ٢٧ أ) نسخة الظاهرية بخط المؤلف.

(٢) في الأصول: (بما يكره، وما أثبتناه أوضح. ومراقبته فيما يكره: البعد عنه، والنصح للمسلمين ألا يعصوه.

(٣) سقطت من أ.

(٤) هذا تذكير عبر عنه المؤلف، وهو اعتبار الأصل في الأمر والنهي، وكذلك من وسائل إصلاح الخلل الحادث في المجتمع، فلا يكون الأصلاح في الفروع وبقاء الأصول على ما هي عليه.

وقال: إن أردت أن ينظر الله إليك بالرحمة، فانظر أنت إلى الصالحين بالغبطة[1]، وإلى العاصين بالرأفة.

وقال: إذا وقع في قلب العبد الاهتمام بالنفس اشتد خوفه عليها، وعظم رجاؤه للناس[2]، وإذا خلا قلبه من هم نفسه، حسن ظنه بها، وعظم رجاؤه لها، وخاف على الناس[3].

وقال: من طالت فكرته في أربعة أشياء أورثته الحزن والهم، وهي تؤدي بعضها إلى بعض، وكل خصلة منها كافية: إذا فكرت في علم الله فيك، وأين اسمك في أم الكتاب، وبم يختم لك، وذكرت ذنوبك.

وقال: من طالت فكرته في أربعة أشياء أورثته الخوف والخشية، وهي تؤدي بعضها إلى بعض، وكل واحدة منها كافية، من فكر في الموت، وسرعة انقضاء الأجل، والمصير إلى القبر، والوقوف للحساب والنار التي لا صبر لأحد عليها.

وقال: لا تنازع الله في محبته، فتكون قد عاملته بالغلبة[4].

وقال: لا تؤثر على الله أحداً، فيكلك إلى من آثرته عليه.

وقال: إلى متى تعد الشغل عوناً[5].

وقال: إن لم تترك ما يرديك[6]، أقبل عليك من يغويك.

وقال: إذا أردت أن تقسم صدقة أو معروفاً في الناس، أو في سواك قريب منك، فإنما تبدأ أقربهم منك منزلاً، وأشدهم إلى صدقتك فقراً، ثم الذي يليه، ولم تذكر بصدقتك من بعد منك، أو استغنى عن صدقتك.

فقرب يا أخي منزلتك من الله، واكشف له عن فقرك إليه، ينلك معروفه في أول من ينال. فافهم يا أخي إن كنت تفهم.

---

(١) الغبطة: رجاء أن يكون لك مثلهم من الطاعات، مع عدم التمني زوال تلك النعمة عنهم، بل بالنصح، وهو رجاء قاومتهم من الطاعة، وهي غير الحسد الذي يتمنى فيه الحاسد زوال النعمة عن المحسود.

(٢) يعني: رجا للناس الخير، وهو النصيح الإسلامي. أو حسن ظنه بالناس، ورجاء عودة المذنبين الى التوبة.

(٣) يعني: عظم أمله في نفسه.. وخاف على الناس الا يبلغوا مبلغه.

(٤) يعني: ليكن هواك تابعاً لمحاب الله تعالى، ولا تنازعه في شيء يحبه فلا تحبه، لانك حينئذ تضع نفسك موضع المغالبة أمام الله.

(٥) أي: لا يبلغ الإنسان بعمله شيئاً إلا بالتوفيق والقبول والرحمة.

(٦) في الأصول: (ما لا يرويك). خطأ.

وقال: لو كان لك عبيد أردت عتق بعضهم، أليس كنت تبدأ بأعدلهم سيرة، وأنصحهم لك وأخدمهم؟

وقال: إنك إن لم تترك ما يكرهه الله لم يذكرك فيمن يحبه(١).

وقال: ابذل الله ما أغناك عنه، يبذل لك لا غنى بك عنه(٢).

وقال: من كان يحب القرب من الله، فليترك ما يباعد من الله تعالى.

وقال: اجعل بصرك بين يديك، فإن الذي وراءك قد جزته.

وقال: إنك لو رأيت من باع نصيبه من الآخرة بنصيب غيره من الدنيا، لعجبت منه، فبع أنت نصيب غيرك من الدنيا بنصيبك من الجنة، فإن الذي يبقى منك إنما هو رزق غيرك.

وقال: لا تطلب المحمدة ممن يموت، فتلحقك المذمة ممن لا يموت.

وقال: اترك خوف الدنيا، تأمن الآخرة، واطلب أمن الآخرة بخوف الدنيا(٣).

وقال: إذا عرضت لك شهوة فاذكر العاقبة، فكم من شهوة ذهبت عنك لذتها، وبقيت عليك حسرتها.

وقال: إن الذي يفسد عليك الآخرة هو الذي لا تحتاج إليه في الدنيا(٤)، فما راحتك إليه؟

وقال: لو رأيت رجلاً بين جماعة، وكل واحد يكيده بألوان المكايد، ثم لم تره يتضرع ويستكين، وينقطع إلى من يرجو نجاته، لسفّهت رأيه وعقله، فلا تكونن أنت هو.

وقال: ما وجد أحد من صاحبه رائحة أطيب من رائحة حسن الخلق.

وقال: إن لك في خصال ثلاث شغلاً عما سواها: في مراقبتك ربك، ومحاسبتك نفسك ومذاكرتك ذنبك.

وقال: أصرف عنك عوارض الشهوات بالحزن والندامة على الشهوات الماضية، التي قد انقضت عنك لذتها، وبقيت عليك تبعاتها، وألق عن قلبك الهم، تصديق بوعد الله

---

(١) يعني: حتى ولو ذكر الله بلسانه وقلبه. وعليه يكون معنى الذكر عند المؤلف: ذكره عند الله بالحياء منه. وهذا القول يسير على مذهب المؤلف من وجوب التطهير قبل عمل البر من النوافل.

(٢) يعني: أن بذل الدنيا التي ضمن الله لك منها كفايتك يبذل الله لك ما لا تستغني عنه وهو الرحمة.

(٣) خوف الدنيا الأول يعني: الخوف على ما قسم لك من الرزق الا ينالك وخوف الدنيا الثاني يعني: الخوف من زينتها، والزهد فيها.

(٤) وهذا معنى الزهد: ان تبذل ما لا تحتاج اليه. وقدر الحاجة في الشريعة هو الكفاية لا أكثر.

تعالى، وألزم قلبك الخوف، حذر الوعيد لله تعالى، وتواضع له افتقاراً إلى رحمته، واستصغاراً لنفسك عند ذكر عظمته، وانف عنك التزين للناس، إيثاراً لمحبته، واستوجب اسم الشكر له على إحسانه إليك بالمحبة منك لعبادته، واستوجب اسم الخوف منه بالكراهة منك لمعاصيه، واستوجب نعمة معرفته بحبك لمراقبته، واستوجب اسم الحب لمراقبته بالأنس به دون خلقه.

وقال: إن للناس منازل ودرجات، فمن نظر بعيني قلبه أبصر درجاتهم ومنازلهم في طريق الآخرة، كما أبصر بعيني رأسه منازل ودرجات أهل الدنيا.

ولا يستحق أحد منزلة من منازل الدنيا والآخرة بمعرفة قلبه، ولا بذكر لسانه، ولكن بعمل أهلها، والقيام بشروطها، وكما لا ينفع الفقير معرفته بيسار الموسر، وما يملك من النعيم، وألوان الأطعمة والأفرشة واللباس، كذلك لا تنفعك معرفتك بأعمال الصالحين وأنت غير عامل بمثل عملهم، بل هو حجة عليك، والله نسأل التوفيق برحمته.

* * *

من عيون المعرفة

اختبار النفس :

يروى عن حكيم أنه سئل عن امتحان النفس في الصدق، حتى يعلم العبد أصادقة هي أم غير صادقة، فقال:

إذا علم العبد أن أحسد حاسد له، وأعدى عدو له، نال بعلمه ثناء وجاهاً في الناس، ويكون مستوراً على الناس عمله، ويلزمه هو بعمله الخالص رياء عند الناس، وسقوط منزلته عندهم . . فإن سَخَتْ نفسه بذلك، وأحبت إنفاذ العمل، فهو علامة الصدق، حتى يرد عليه من ذم الناس له، وإقامة جاه حاسده وعدوه ما يعلم بطلانه.

فإن لم تُحدِث النفس عند ذلك خواطر الندامة، ومضت على محبتها للعمل، فبارك الله فيها، وهو والله الصدق بعينه، وهو عامل لله حقاً، وعمله لما بعد الموت مخلصاً.

* * *

كيف يكون شكر النعم :

قلت: أخبرني عن قول الناس: شكر النعمة معرفتها.

قال؛ شكرها: معرفتها على قدر موقعها من قلبه، بتعظيمها وتعظيم إحسان المنعم عليه بها، ولا يكون معظماً لها حتى يكون راغباً فيها، ولا يكون راغباً فيها حتى يعرف حاجته إليها، ولا يعقل حاجته إليها إلاّ بتدبر عواقب الأمور، وسرعة المصير إليها، وشدة حاجته إلى ما يقدم عليه.

فعند ذلك تعظم النعمة عنده من المنعم عليه بها، ويعرف امتنانه وإحسانه إليه فيها، فعند ذلك يشتهي الزيادة منها، وإذا علم الله تبارك وتعالى ذلك منه زاده منها.

وفي الجملة: إنه من رزق شيئاً يرجو به مرضاة ربه، والنجاة من النار، عظم في عينه، وتشوق القلب إلى المعطي.

ولا يكون شاكراً لنعم الدنيا كلها حتى يكون شاكراً لنعم الآخرة، و [لا] لما تحب نفسه حتى يكون شاكراً لما يحب الله، ولا يكون شاكراً للناس، وليس بشاكر لله.

الاعتبار بما قبل الولادة وما بعد الموت:

من علم أنه لا يملك من نفسه إلَّا كما كان يملك قبل أن يولد، وكما يملك بعد أن يموت، فقد أنزل نفسه منزلة الضعف والفقر في التواضع والاستكانة، ومن لم ينزل نفسه ذلك المنزل، ولم يعلم أن ذلك كذلك علماً يقيناً، فقد استحق طريقة الجاهلين، واستوجب عقوبة المستدرجين.

استحيي من الله وحده:

وقال: إذا حملت وعاء من أوعية الشر، [فإنك] ترتعد خوفاً أن يبدو للناس شيء مما فيه من الشر... فمتى يصلح ما بينك وبين الله؟ هيهات.

اذكر الموت كالعبد السوء الذي لا يستحيي من مولاه، ولا يرجع عن مساويه، ولا يعرف إحسانه إليه إلَّا عند الحساب والعقاب، واذكر الموت وما بعد الموت.

وقال: ما ظنك بمن يكره أن يطلع الناس منه على ما يكره الله، ولا يستحيي أن يطلع الله منه على ما يكره.

سوءة لمن كان هكذا، وعجباً له!! حيث يترك، ويضيع الفرص، ويركب من الأشياء ما كره الله، ثم يتقرب إلى الله بما لم يفرضه عليه، ويتعاطى النوافل، من الحج والعمرة، ويأمر وينهي، ويدعو الناس بزعمه إلى الله، ويأبق منه، ويأمر ولا يعمل، وينهى ولا ينتهي.

أترى مَن كان هكذا عرف الله؟ أو يعتد بنظره إليه؟ أو صدق في أن عند الله ثواباً للمطيعين، وعقاباً للعاصين؟

سوءة لمن كان هكذا.

* * *

حقيقة التواضع:

قلت: أخبرني عن قول القائل: التواضع هو: أن تكون إذا خرجت من بيتك فكل من استقبلك رأيت أن له عليك الفضل. فإذا كان الرجل يدعي هذا، ويقربه بلسانه، غير أنه إذا صار إلى احتمال شروطه وَمِحَنِهِ لم يتحملها إلّا بالكره من نفسه، أيكون هذا متواضعاً؟

قال: إذا كانت تلك الشروط من الحقوق الواجبة فلم يقبلها إلّا بالكره من نفسه، فلم يبلغ هذا درجة المتواضعين.

وإن كانت شروطاً دون الحقوق الواجبة، مما لا يحرج العبد ترك قبولها من أحد، وكان طيباً بقبول الواجب منها، فهو طريق المتواضعين، وعلى منهاجهم.

* * *

أصلح ما بينك وبين الله:

ويروى عن بعض الحكماء أنه كتب إلى أخ له: أوصيك يا أخي بإصلاح ما بينك وبين الله، وإيثار محبته على هواك، والإقبال على عمل من إليه معاملتك، وقبله حاجتك.

واعلم أن أيامك قليلة، ونفسك واحدة، فإن فنيت أيامك فلا رجعة لك فيها، ولا عوض لك منها، وإن عطبت نفسك فلا نفس لك سواها.

وهل تدري يا أخي ما إصلاح ما بينك وبين الله؟

ألّا يأتيه منك شيء إلّا كان فيه له رضى، ولا يأتيك منه شيء إلّا كان لك به رضى. فإن ضعفت عن الرضى[1] بكل ما يأتيك من حكم الله وأمره، فلا تضعفن عن الصبر، فإن له الرضا بحال عبده ما دام العبد راضياً بحكمه.

وله الرضى بصبر عبده على أمره وحكمه ما دام العبد صابراً على ذلك[2]، فله فيهما الرضى جميعاً.

وأما عملك فالوفاء بعهده، والشكر على نعمه.

وأما حاجتك فمعرفته وعفوه، فإن الله سبحانه خلق آدم وذربته، وخلق الجنة ثواباً لأهل طاعته ورحمته، وخلق النار عقاباً لأهل معصيته وسخطه، فنعوذ بالله من سخطه وعقابه.

فتعاهد يا أخي أيامك، في ليلك ونهارك، وجميع أحوالك، ما أنت فيه، وما أنت عليه.

وتعاهد ضميرك فنقّه وخلصه وسلمه، حتى يكون نقياً مما تخاف عليه العقاب، فارغاً لما تؤمل فيه من الثواب، فإنك غير غائب عن الله طرفة عين، يراك ويحصي عليك مثاقيل الذر، وموازين الخردل، ليجزيك بذلك يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

فلا يغيبن عنك ذكره، فإن حاجتك إليه، إذ لا حاجة له إليك.

واعلم يا أخي أن أصل كل قول العلم، وأصل كل عمل العلم، وأصل كل ذلك

---

(١) قارن بما جاء في ص ٧١ من كتاب (القصد والرجوع الى الله). عن الرضا. وفيه أن: سرور القلب عبر القضاء السبيل اليه: علم القلب بأن الله عدل في قضائه، غير متهم فيما يحكم. ويساعد على الرضا معرفة عواقب الأمور، فاختيار الله خير من اختيارك لنفسك. ولا يعني قوله: «فإن ضعفت عن الرضى...» أنه يجوز لك الاعتراض على حكم الله وأمره بل يجب الرضى بذلك مطلقاً.

(٢) قارن بما جاء في ص ٧١ من (القصد والرجوع الى الله). عن الصبر وفيه: إن المقام على ما يرضي المولى فرع. فالصبر هو: حبس النفس في موضع العبودية من الصبر مع نفي الجزع، لأنه ضد الصبر والجزع فإذا جزع: نفى الصبر الجزع فهو في مقام العبودية.

التوفيق، مع صحة تركيب العقل، وكثرة الفكر. فإن قدرت ألّا تكون بشيء أعلم منك بالله فافعل، فإن القول والعلم والعمل وغير ذلك هو المراد به تبارك وتعالى، وأن أفضل الناس أقربهم من الله، وأقربهم منه أعلمهم به.

وقد بلغنا أن النبي ﷺ قال: «يتفاضل الناس بالمعرفة».

وقال ابن مسعود: «ذهب عمر بتسعة أعشار العلم». وإنما يغني بذلك العلم بالله.

واعلم يا أخي أن الناس إنما يخلصون في أعمالهم على قدر معرفتهم به، ويتواضعون لله على قدر معرفتهم به، ويشكرون الله على نعمه على قدر معرفتهم به، ويرجون الله ويخافون على قدر معرفتهم به، ويحسنون الظن على قدر معرفتهم به، ويصبرون على طاعته وعن معصيته وعلى كتمان طاعته وعلى المصائب التي تنزل بها أحكامه على قدر معرفتهم به، ويحبون ما أحب ويبغضون ما أبغض على قدر معرفتهم به.

فمن فاتته المعرفة بالله دخله النقص في جميع ما ذكرنا على حسب ما فاته من المعرفة، وعلى حسب ما رزق منها، فكذلك حظه من الخير والشر.

فالتمسها يا أخي من مليكها التماس من لا يستأهل أن يعطاها، فإن العلماء قد صاروا إلى ما صاروا إليه من العلم على قدر ما أحسنوا من الطلب، ووضع الأشياء مواضعها.

فإذا أصبحت وأردت شيئاً من الخير فانظر كيف شكرك على ما أنعم به عليك ربك في ليلتك، وكيف توبتك مما يتاب منه، فقد قال تبارك وتعالى ﴿لئنْ شكرتُم لأزيدنَّكُمْ﴾[1] وقال: ﴿وتُوبُوا إلى الله جَميعاً أيُّها المُؤْمِنُون لعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

وإذا دخلت في شيء من الخير فانظر ممن كان بدؤه، وعلى من إتمامه، وأنه لو قيل لك: من أحب إليك أن تعمل له؟ لقلت: الله... فليحقق ضمير قلبك ما عبر وأقر به لسانك.

واعلم يا أخي أن أهل الدنيا والاخرة بين سرور وهموم. فأهل سرور الآخرة أهل الجنة... وإن أفضل سرورهم النظر إلى الله... وإن أفضل سرور المؤمن في الدنيا سروره بربه... وبأنه عبده... وتصديق ذلك أنه بمراقبته ومناجاته... وبكل ما يعمل له... وعلامة أنسه بعمله وجود حلاوة العمل له... وشدة الحب لخدمته.

ومحال أن يستأنس العامل بعمله، وهو غير مستأنس بمن يعمل له، أو غير خائف منه.

(١) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٢) سورة النور، آية: ٣١.

واعلم يا أخي لو أن الذي تطلب وتعالجه من نفسك من الطاعة والاستقامة لله كنت تعالجه من جميع أنفس ولد آدم لكان في الله قليلاً . . . فكيف وهي نفيسة واحدة في أيام قليلة .

فالزم يا أخي المحافظة، والمداومة على التعاهد في المراقبة . فلو كانت الدنيا كلها لك، فبذلتها ونفسك معها، شكراً لما أنعم عليك من معرفة، وأنه ربك، وأنت عبده، وأنه هو أمرك بعبوديته، ونهاك عن عبودية غيره، لكان ذلك كله قليلاً حقيراً في جنب نعمته عليك في ذلك .

فلا تضيعها بشغل ما لا حاجة لك فيه . . . فإنه لا غنى بك عن معرفة إحسانه إليك . . . كما لا غنى بك عن إساءة نفسك . . . فإن العبد بين ذنب ونعمة، وبين شكر واستغفار .

والحمد لله على ما أنعم علينا وعلمنا، وكان فضل الله علينا عظيماً .

❊ ❊ ❊

حقائق التوكل

ويروى عن بعض الحكماء أنه قال: أحمد الله إليكم حمد من لا يعرف إحساناً إلاّ منه، ولا يعرف معبوداً غيره، وأسأله توكل المنقطعين بصدق الانقطاع إليه.

أما بعد:

فإن الله تعالى خص أهل ولايته بغبطة الانقطاع إليه، ليعرِّفهم تواتر نعمه، ودوام إحسانه وفضله، فانصرفت هموم الدنيا في قلوبهم، وعظم شغل الآخرة في صدورهم، لما سكنها من هيبة ربهم، فألزموا قلوبهم ذل العبودية، وطرحوا أنفسهم في محجة التوكل على الله.

واعلم يا أخي أنك لا تكون متوكلاً على الله إلاَّ بقطع كل مؤمَّل دون الله.

وكيف لا تسخو نفسك بقطع كل علاقة من قلبك، وتفرغ قلبك للإقبال على الله، وصدق التوكل عليه، والله حسب من توكل عليه.

والمتوكل الصادق من توكله لا يجد قلبه يخضع لمخلوق، لأن قلبه مملوء بالثقة بضمان الله.

والمتوكل الصادق في توكله: القليل من عطايا الله عظيم عنده عند صغر قدره، لمعرفته بعظيم قدر الله، فهو ساكن إلى روح اليقين، وهي المنزلة التي يغبطه بها أهل الحرص على الدنيا.

فمن سكن قلبه إلى أنه ليس نعمة في السماء والأرض إلاَّ وهي لله، استراح قلبه من عذاب الحرص. أما سمعته يقول: **﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ﴾**[1]. وقال: **﴿ألا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ﴾**[2].

فإذا ألزمت الثقة قلبك، فإنما أنت ناظر إلى الله، لأن الملك لله دون خلقه، وبقدر تركك الثقة يعظم حرصك على الدنيا...

فخالف حرصك على الدنيا بالقنوع بما قسم لك، فإنك تسرع في عداوة الحرص على الدنيا، لأن الحرص لا يعطي ولا يمنع.

---

(١) سورة: فاطر، آية: ٣.

(٢) سورة: الأعراف، آية: ٥٣.

والمتوكل على الله استغنى بالمعطي المانع عمن ليس بمانع ولا معط ، فهو غني بالله عمن سواه، فقير إلى الله، قد سكن قلبه عن الاضطراب، فليس لمخلوق في قلبه خطر. . .

فمن وثق بغير الله لا يغنيه. . . والمتوكل لزم التقوى، فجعل الله له مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب ولم يقل من حيث يحتسب. وقال: **﴿وَمَنْ يَتوكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾**(١).

فالمتوكل توكل على الله في حاجاته كلها، من أمور آخرته ودنياه، وقطع رجاءه ممن سواه، ولم يرَ نفسه موضعاً لاختيار نفسه، لأن الله حسبه، ومن كان كذلك فقد سكن إلى روح اليقين.

وهذه المنزلة التي لا منزلة أرفع منها في سكون القلب إلى الله، والطمأنينة بموعود الله، لأنه قد جعل الله حسبه من جميع خلقه، ومن كان الله حسبه فلا يجد فقد شيء، لأن الله قد ضمن له، وهو بالغ أمره.

واعلم أنك والخلق جميعاً مضطرون إلى الله، في كل حال، وفي كل حركة، وكل سكون، لأنه الغني وحده، ومن وثق بغير الله فقد رأى أن ملكاً أكبر من ملك الله، ومن وثق بالله استغنى به، لأن الله حسبه، وفي الله خلف من جميع الخلق، وليس في أحد من الخلق خلف من الله، لأن الله هو الغني وحده.

فإذا علمت أن الله حسب من توكل عليه، فكيف لا تطلب الكفاية بالتوكل على الله عز وجل؟

ألست تعلم أن الرزاق قد قسم بين عباده معايشهم، وقد فضل بعضهم على بعض في الرزق، وقد فرغ مما قضى وقدر من ذلك؟

فكيف تعني بعد علمك بطلب ما قد فرغ لك من مقداره؟

ألا تسمع إلى قول الله عز وجل: **﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**(٢). فكيف تطلب كشف الضر من غير الله، أو تطلب المنفعة من عند غير الله؟.

وكيف لا يكون الغالب على قلبك طلب كشف الضر وطلب النفع من عنده وحده، إذ علمت أن ذلك كله إنما هو بيده وحده؟

(١) سورة: الطلاق، آية: ٣.

(٢) سورة: الأنعام، آية : ١٧.

وكيف تخاف فوت شيء من الخير يريده الله بك؟ وإن لم يرده بك فمن يعطيك ذلك؟ أو ينيلك إياه؟

والمتوكل على الله لا يلتفت إلى الدنيا، لأنه لا يراها لنفسه خطراً، ولا يراها ونفسه وجميع ما فيها إلاَّ لله. ويستوي عنده ركوب البحر، والمشي في البر، والأنس والوحشة، والعمل والجلوس، لأن الله تعالى كاف من توكل عليه. أولا تسمع لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾(1).

فالمتوكل على الله اكتفى بعلمه بالله عن الاشتغال بغيره، لأنه علم أن الذي يوصل إليه المنافع هو الله وحده لا شريك له.

وأيضاً إذا سكن قلبك إلى الله لم تخف غيره، لأن الله حسب من توكل عليه.

ومن علامة المتوكل: أنه يؤثر الصدق حيث يضره على الكذب حيث ينفعه، لأنه لم يصح لمن توكل عليه أن يخاف غيره.

وكذلك إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر لم يخشَ الاَّ الله، لأن رجاءه من الله أكثر من خوفه من توعد المخلوقين، لأن المتوكل على الله أخرج من قلبه كل مخوف ومحذور ومحزون دون الله، حتى اتصل خوفه ورجاؤه بالله.

واعلم أن المعاون إنما تحضر عند إخراج العالم من قلبك، فتنحاش عند ذلك إلى مسالك العز، والغنى بالله، لأنك تعلم أنه لا مانع ولا معطي ولا ضار ولا نافع إلاَّ الله وحده.

ولا ترغب عن الله بجهلك، فتخضع لمن دونه عند تخويف الشيطان، فيستولي عليك عند ذلك. أولا تسمع قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ واللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنهُ وَفَضْلاً﴾(2).

فما يضرك من مواعيد الشيطان مع ضمان الرحمن؟

واعلم أنك لا تكون متوكلاً على الله تعالى حتى تسلك منهاج المضي إليه على السكون والاطمئنانية إلى الله، وحتى تعبد الله راضياً بما صيرك إليه، لأنك لا تعرف غيره.

فإذا صرت إلى هذه المنزلة على قلبك عظمة الله وجلاله، لأن الخلق كلهم مقصرون عن حقه عليهم جل جلاله.

---

(1) سورة: الزمر، آية: ٣٦.

(2) سورة: البقرة، آية: ٢٦٨.

واعلم أن الله سبحانه خص المتوكلين عليه بمنازل السلامة، وحجب عنهم كل ندامة، فهم ينظرون إلى الله فيما يأملون.

قد حجب قلوبهم عما سواه، لما يرجون من إحسانه، واستغنوا بذكره عن ذكر غيره.

واعلم أنك لا تكون متوكلاً حتى تصفو من كل ملك لنفسك، مع ملك الدنيا[1]، وحتى لا تثق إلا في الله وحده لا شريك له، وحتى ترى مؤنتك على الله وحده، فلا يذهبن بك الطمع إلى غير الله.

ألا ترى أن الذي طمعت فيما في يديه أليس هو في ملك الله؟

هل في السماء حاجز يحجزك عن الله؟

فاعلم أنك لا تقدر أن تفرض رزقك، كما لا تقدر أن تفرض الموت. أما سمعت الله يقول: **﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثمَّ رَزَقَكُمْ ثم يُمِيتُكُمْ ثمَّ يُحْيِيكُمْ﴾**[2].

فاسكن يا أخي إلى موعود الله تعالى في رزقه، كما تسكن إلى أنك ميت، واقطع الاشتغال بذكر الأسباب من قلبك[3].

واعلم أن الله يرزقك لسبب وبغير سبب، وكل سبب فهو ثابت، لا تعلم متى يأتيك رزقك، كما لا تعلم متى يأتيك الموت.

ألا ترى أن الله وعدك أن يرزقك وغيب رزقك عنك بالقضاء، وله وقت ينزل فيه؟ فلو احتلت بكل حيلة أن يأتيك قبل وقته لم تقدر على ذلك، حتى ينزل في وقته.

أما سمعت الله عز وجل يقول: **﴿وَفِي السَّمآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ. فَوَرَبِّ السمآءِ والأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مآ أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾**[4].

واعلم أن الواثق بالله نفى عن قلبه التهمة لله، وإن كنت في ظل سبب فلا يميلن قلبك إلى السبب، وليكن قلبك مع الله عز وجل.

واعلم أن القهرمان لا ينفق إلَّا بإذن السيد، فاعقد قلبك لسيدك، لأنه إن أعطاك لم

(١) أي: إنك لو ملكت الدنيا كلها وجب عليك أن تصفي قلبك من هذا الملك. أي أن يخرجها ويضعها في يده. فليس التوكل السفلي هو عدم الملكية ولا عدم مباشرة الأسباب، ولكن وإن الله الفعال دون الأسباب.

(٢) سورة: الروم، آية: ٤٠.

(٣) المراد قطع الأسباب من القلب، لا قطعها عن الجوارح. أي أن تعمل في السبب وقلبك معلق بالله كما سيأتي بعد قليل.

(٤) سورة: الذريات، آية: ٢٢، ٢٣.

يقـدر أهل الأرض أن يمنعـوك، وإن منعك لم يقـدر أهل الأرض أن يعـطوك، لأن سلطانه عظيم، وبتوكلك عليه يكفيك.

فالمتوكل ساكن القلب إلى المضمون، فمن قطع القلب بالأسباب، لم يرَ شيئاً إلاّ الله، لأن قدر الله جار على المتوكل وغيره، ألا تسمع إلى قوله تعالى: **﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَآبَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَها اللهُ يَرْزُقُها وإيَّاكُمْ وهو السميعُ العَلِيمُ﴾**[1].

وقد علم المتوكل علماً يقينـاً، وسكن قلبه إلى ذلك: أن ما قسم له وقدر، أو كان في مهب الريح لأدركه، وأن ما لم يقسم له ولم يقدر، لو كان بين يديه وجهـد أهل السمـوات والأرض أن يوصلوا إليه مثـل ذرة أو خردلـة لم يقدروا على ذلـك. وقد قـال: **﴿ولاَ تَقْتُلُوآ أَوْلاَدَكُم خَشْيَـةَ إِمْـلاَقٍ نَحْنُ نَـرْزُقُهُمْ وَإِيَّـاكُمْ﴾**[2]. وقـال: **﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُـوآ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**[3]. فلم يحق لهم إيماناً إلاَّ بتوكلهم عليه.

وقـال: **﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنـا﴾**[4]. وقال: **﴿وَمَـا لَنَـآ أَلاَّ نَتَـوَكَّـلَ عَلَى اللهِ وَقَـدْ هَـدانَـا سُبُلَنَا﴾**[5].

فالتوكـل محض الإيمان، لأنـه فريضـة على العباد، ولا يكـون الإيمان إلاّ بتـوكل، والتوكل يزيد وينقص، كما أن الإيمان يزيد وينقص، والناس يتفاضلون في التوكل والإيمان على قدر اليقين.

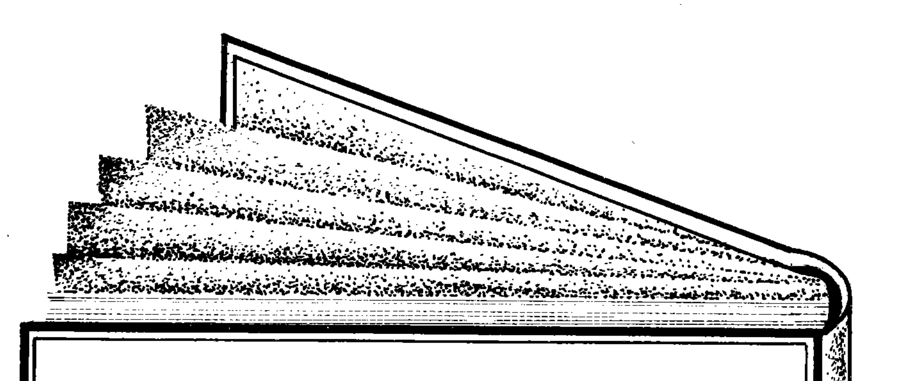
* * *

آخر كتاب (آداب النفوس) للمحاسبي، رحمة الله عليه، والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلامه، وهو حسبنا ونعم الوكيل. وكان الفراغ منه في الخامس من ذي القعدة، سنة اثنين وعشرين وخمسمائة.

---

(١) سورة: العنكبوت، آية: ٦٠.
(٢) سورة: الاسراء، آية: ٣١.
(٣) سورة: المائدة، آية: ٢٣.
(٤) سورة: يونس، آية: ٨٥.
(٥) سورة: إبراهيم، آية: ١٢.





كتاب التوهم

للحارث المحاسبي

أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هو الحارث بن أسد المحاسبي، قطب العارفين في وقته، وأستاذ السائرين في أوانه، برع في عدة علوم، وتكلم على الناس فأراهم الجوهر المكنون، أحد كبار الزهاد، ولسان القوم في ذلك العصر. وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال. وعرف بالمحاسبي لكثرة محاسبته نفسه، يرجح تاريخ ولادته سنة ١٦٥ هـ بالبصرة، وتوفي ببغداد سنة ٢٤٣ هـ رحمه الله. وهو شيخ الجنيد. وكان امام المسلمين في الفقه والتصوف والكلام وقد روى الحديث وأخذ عن الامام الشافعي.

كان المحاسبي شديد الورع، خالص التقوى، كثير العبادة، وقيام الليالي والتهجد، متقشفاً زاهداً إلى جانب فقهه وغزارة علمه وتمكنه من الوعظ والارشاد والترغيب والترهيب ببيان بليغ. وأسلوب فصيح، وخيال واسع يجعلك تتخيل المشهد وهو مجسم أمامك. مع قوة عقيدة.

كانت أسرة المحاسبي أسرة ميسورة الحال، ويوم مات أبوه خلف سبعين ألف درهم، فلم يأخذ منها شيئاً ولا حبة واحدة. وانه لمحتاج إلى دانق، لأن أباه كان يقول بالقدر، فرأى من الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئاً، وعاش حياته زاهداً صابراً محتسباً، ورعاً تقياً، وقال: أهل ملتين لا يتوارثان.

ولما وجد سيل المعتزلة قد تعاظم وقوى، نهض بالذب عن السنة وألف في الرد عليهم كتب فقد معظمها، الا أن أكثر آرائه نقلها الشهرستاني في

الملل والنحـل. كما ألف كتبـاً في الرد على الـرافضة والقـدريـة وفي السلوك والتصوف، والفقه والأحكام.

وتوجد علاقة بين المحاسبي، والغزالي.

فان المحاسبي قد نهض بالدفاع عن السنة بعد أن استوعب ثقافـة عصره وخلا بنفسه، ودرس وضع الاسلام حينئذ. والامام الغـزالي رد على الفلاسفـة والمتكلمين بعد خلوته ومنقذه من الضلال واستيعابه لعلوم وثقافة عصره، فكان أثر المحاسبي على الغزالي واضحاً حتى لقد تبطن الامام الغزالي كتبه في كتابه الاحياء، وقال عنـه المحاسبي: خيـر الأمة في علم المعـاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال.

وقـال التميمي عنه: هـو امام المسلمين في الفقـه والتصـوف والحـديث والكلام.

وقـال ابن الأثير: هـو أول من تكلم في اثبـات الصفـات. ومن فـوائـده البديعة: من صحح باطنه بالمراقبة والاخلاص، زين الله ظاهره بالمجاهدة.

وقال الحافظ الذهبي: والمحاسبي العـارف صاحب التـواليف: «صدوق في نفسه، وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه».

وسبب النقمة عليه يعود لأمرين:

أولهمـا: ان عصره كـان عصـر نقـل وتـدوين، وكـان يقتصـر على نقـل النصوص دون اعمال الرأي فيها، فلما نهض المحاسبي باعمال الرأي وتمحيص المسـائل في استيعـاب وفهم الآثار وبحث واجتهـد، نقم عليـه علمـاء عصـره وجرحوه.

وثانيهما: نقله لنصوص علماء الكلام والرد عليها لأنه كان يرى أن القيام بالرد على البدع فرض، ولكن الإمام أحمد بن حنبل انكر عليه ذلك وقال: انك

حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها، فبم تأمن أن يطلع الشبهة من تعلق بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه؟

ومن هنا حمل الإمام أحمد على كتب الإمام المحاسبي في علم الكلام، فلم يعتن بها أهل السنة واختفت، الا ما نقله الشهرستاني في الملل، الا أن مسلك الإمام المحاسبي في التصوف والزهد ومحاسبته النفس لم يعترض عليه أحد، لا بل أثنى عليه كثير من الأئمة ـ رحمهم الله ـ ومنهم الشيخ ابن تيمية.

ويوجد أثر روحي آخر ينقله السبكي في الطبقات: كان المحاسبي اذا مد يده إلى الطعام فيه شبهة تحرك له عرق في أصبعه، فيمتنع عنه وقد نقل عن الحارث المحاسبي قوله: بيني وبين الله علاقة، اذا لم يكن الطعام مرضياً ارتفع إلى أنفي منه زفرة فلم تقبله نفسي.

وكتابه «التوهم» كتاب نفيس ليس له نظير، فهو يبدأ بوصف نزع الموت وكربه وسكراته، ومعاينة وجه ملك الموت وما يحمل من بشرى بالثواب أو العقاب، ثم يصف الجلوس لسؤال الملكين، وانفراج القبر عن الجنة أو النار.

وبعد ذلك يأخذ في وصف الحشر. ونداء المنادي للعرض على الله عز وجل، وانشقاق السماء، واجتماع حر الشمس وفيضان العرق، وانشغال كل فرد بنفسه، وفرار الانسان من أهله وكانوا مؤنسيه وقرة عينه في الدنيا.

وطلب الخلائق الشفاعة من الأنبياء ومن سيدنا محمد ﷺ ووقوف العبد بقلب مرعوب وجوارح مرتعدة بين يدي رب عظيم.

ثم ينتقل إلى وصف المرور بالصراط، وعذاب جهنم، واستغاثة أهل جهنم ولا مغيث.

ثم يصف بعد ذلك ما أعد الله للمؤمنين من الجنات، وأراييحها، واجتماع الأهل والولدان، ومواكب الحور العين، والخيام وفرشها وزرابيها، والأرائك،

والاستبرق والديباج، واكتمال المسرات، والاشتغال بالنعيم المقيم، وما أعد الله لأهل عباده، وأحبائه من خلقه، ووصف مائدة الرحمن، ورفع الحجاب وظهور ربنا عز وجل ـ بكماله على صفوته، وأثر ذلك في مضاعفة حسن واشراق أحباء الله.

ويختمه في طلب الرضا من الله بالعمل الصالح لكي ننال ثواب المتقين.

وقد قال الدكتور أحمد أمين عن كتاب «التوهم» ومؤلفه:

«نحا فيه منحى طريفاً يدل عليه اسمه فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار في الخوف والرجاء كما فعل غيره بل استعمل توهمه ـ وبعبارة أخرى خياله ـ في وصف شعور أهل الجنة وأهل النار وما يلقون من: سعادة وشقاء وعذاب، وأسلس لخياله القيادة فتخيل ما تخيل، وصور ما صور فهي لوحة جميلة لفنان أجاد ألوانها أو رواية رائعة لكاتب جمل منظرها وفصل مواقفها وصقل لغتها حتى يؤثر بالحقيقة التي تتضمنها في نفوس القارئين والسامعين أكبر الأثر وأبلغه».

وقال فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غده عن كتاب «التوهم»:

«هذا، وللمؤلف المحاسبي ـ رحمه الله تعالى ـ: كتاب نفيس في هذا المعنى، سماه (التوهم) تحدث فيه عن شعور أهل النار وما يلقون قبلها وبعد الدخول فيها من أهوال وعذاب، كما تحدث فيه عن شعور أهل الجنة وما يلقون قبلها وما يجدون قبلها وبعد الدخول فيها من شعور وتكريم وثواب، وبين هذا وذاك مرحلة مرحلة، حتى لكأنك تراه رأي العين وتحسه احساس المباشر له، واستعرضه بلغة عالية مشرقة، وبيان مؤثر بليغ، يفيد قارئه خشعة وعبرة، ويورثه يقظة لعمل الآخرة، فعليك بقراءته، والله يتولانا واياك».

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

الحمد لله الواحد القهار، العظيم الجبار، الكبير المتعال، الذي جعلنا للبلوى(٢) والاختبار، وأعد لنا الجنة والنار، فعظم لذلك الخطر، وطال لذلك الحزن لمن عقل وادكر، حتى يعلم أين المصير وأين المستقر، لأنه قد عصى الرب وخالف المولى، وأصبح وأمسى بين الغضب والرضا، لا يدري أيهما قد حل ووقع له، فعظم لذلك غمه وطال لذلك حزنه، واشتد كربه حتى يعلم كيف عند الله حاله، فالى الله فارغب في التوفيق، واياه فسل العفو عن الذنوب، وبه فاستعن في كل الأمور. فعجبت كيف تقر عينك أو كيف يزايل الوجل والاشفاق قلبك، وقد عصيت ربك واستوجبت بعصيانك غضبه وعقابه، والموت لا محالة نازل بك بكربه وغصصه ونزعه وسكراته، فكأنك قد نزل بك وشيكاً سريعاً.

فتوهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها الا إلى الحشر إلى ربك، فتوهم نفسك في نزع الموت وكربه وغصصه وسكراته وغمه وقلقه، وقد بدأ الملك يجذب روحك من قدمك فوجدت ألم جذبه من أسفل قدميك، ثم تدارك الجذب واستحث النزع وجذبت الروح من جميع بدنك، فنشطت من أسفلك متصاعدة إلى أعلاك حتى اذا بلغ منك الكرب منتهاه وعمت آلام(٣)

---

(١) كتاب «التوهم» للحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله. زائد في الأصل.

(٢) للبلوا.

(٣) في الهامش.

الموت جميع جسمك، وقلبك وجل محزون مرتقب منتظر للبشرى[1] من الله عز وجل بالغضب أو الرضا، وقد علمت انه لا محيص لك دون أن تسمع احدى البشريين من الملك الموكل بقبض روحك، فبينا أنت في كربك وغمومك وألم الموت بسكراته وشدة حزنك لارتقابك احدى البشريين من ربك، اذ نظرت إلى صفحة وجه ملك الموت بأحسن الصورة أو بأقبحها، ونظرت إليه ماداً يده إلى فيك ليخرج روحك من بدنك، فذلت نفسك لما عاينت ذلك وعاينت وجه ملك الموت، وتعلق قلبك بماذا يفجأك من البشرى منه اذا سمعت صوته بنغمته أبشر يا ولي الله برضا الله وثوابه أو أبشر يا عدو الله بغضبه وعقابه، فتستقين حينئذ بنجاتك وفوزك ويستقر الأمر في قلبك فتطمئن إلى[2] الله نفسك، أو تستقين بعطبك وهلاكك ويحل الاياس قلبك وينقطع من الله عز وجل رجاؤك وأملك، فيلزم حينئذ غاية الهم والحزن أو الفرح والسرور قلبك حين انقضت من الدنيا مدتك وانقطع منها أثرك وحملت إلى دار من سلف من الأمم قبلك.

فتوهم نفسك حين استطار قلبك فرحاً وسروراً، أو ملىء حزناً وعبرة، وبفترة القبر وهول مطلعه وروعة الملكين وسؤالهما فيه عن ايمانك بربك، فمثبت من الله جل ثناؤه بالقول الثابت أو متحير شاك مخذول . فتوهم أصواتهما حين يناديانك لتجلس لسؤالهما اياك ليوقفاك على مسائلتهما، فتوهم جلستك في ضيق لحدك، وقد سقطت أكفانك على حقويك والقطنة من عينيك عند قدميك. فتوهم ذلك ثم شخوصك ببصرك إلى صورتهما وعظم أجسامهما، فان رأيتهما بحسن الصورة أيقن قلبك بالفوز والنجاة، وان رأيتهما بقبح الصورة أيقن قلبك بالهلاك والعطب، فتوهم أصواتهما وكلامهما بنغماتهما وسؤالهما ثم هو تثبيت الله اياك ان ثبتك أو تحييره[3] ان خذلك.

---

(١) للبشرا.

(٢) ناقص في الأصل.

(٣) تحيره.

فتوهم جوابك باليقين أو بالتحير أو بالتلديد والشك، وتوهم اقبالهما عليك ان ثبتك الله عز وجل بالسرور وضربهما بأرجلهما جوانب قبرك بانفراج القبر عن النار بضعفك. ثم توهم وهي تتأجج بحريقها، واقبالهما عليك بالقول، وأنت تنظر إلى ما صرف الله عنك فيزداد لذلك قلبك سروراً وفرحاً ونوقن بسلامتك من النار بضعفك. ثم توهم ضربهما بأرجلهما جوانب قبرك[1] وانفراجه عن الجنة بزينتها ونعيمها وقولهما لك: يا عبد الله انظر إلى ما أعد الله لك، فهذا منزلك وهذا مصيرك. فتوهم سرور قلبك وفرحك بما عاينت من نعيم الجنان وبهجة ملكها وعلمك أنك صائر إلى ما عاينت من نعيمها وحسن بهجتها. وان تكن الأخرى فتوهم خلاف ذلك كله من الانتهار لك ومن معاينتك الجنة وقولهما لك[2]: انظر إلى ما حرمك الله عز وجل، ومعاينتك النار وقولهما لك: انظر إلى ما أعد الله لك، فهذا منزلك ومصيرك. فأعظم بهذا خطراً، وأعظم به عليك في الدنيا غماً وحزناً حتى تعلم أي الحالتين في القبر حالك، ثم الفناء والبلاء بعد ذلك، حتى تنقطع الأوصال فتفنى عظامك ويبلى[3] بدنك ولا يبلى حزن البشرى أو الفرح من روحك متوقع روحك(؟) متطلع للقيام عند النشور إلى غضب الله عز وجل وعقابه، أو إلى رضا الله عز وجل وثوابه، وأنت مع توقع ذلك معروضة روحك على منزلك من الجنة أو مأواك من النار، فياحسرات روحك وغمومها، ويا غبطتها وسرورها حتى اذا تكاملت عدة الموتى وخلت من سكانها الأرض والسماء فصاروا خامدين بعد حركاتهم، فلا حس يسمع، ولا شخص يرى[4] وقد بقي الجبار الأعلى[5] كما لم يزل أزلياً واحداً منفرداً بعظمته وجلاله، ثم لم يفجأ روحك الا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عز وجل بالذل والصغار منك ومنهم.

---

(١) كذا في الهامش، وفي الأصل: القبر.
(٢) في الهامش.
(٣) ويبلا.
(٤) يرى.
(٥) الأعلا.

فتـوهم كيف وقوع الصـوت في مسامعـك وعقلك وتفهم بعقلك بـأنـك تدعى[1] إلى العرض على الملك الأعلى[2] فـطار فؤادك وشاب رأسـك للنداء لأنها صيحة واحدة بالعرض على ذى الجلال والاكرام والعظمة والكبرياء. فبينا أنت فزع للصوت اذ سمعت بانفراج الأرض عن رأسك،فوثبت مغبراً من قـرنك إلى قدمك بغبار قبرك، قائم على قدميك شاخص ببصرك نحو النداء، وقد ثـار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة وهم مغبرون[3] من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم[4]. فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم، فتوهم نفسك بعـريك ومـذلتك وانفـرادك بخوفـك وأحزانـك وغمومـك وهمومـك في زحمة الخلائق، عراة حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبـة، فلا تسمع الا همس أقدامهم والصوت لمدة المنادى، والخلائق مقبلون نحوه وأنت فيهم مقبل نحو الصوت، ساع[5] بـالخشوع والـذلة، حتى اذا وافيت المـوقف ازدحمت الأمم كلهـا من الجن والانس عراة حفـاة، قـد نـزع الملك من ملوك الأرض ولزمتهم الذلة والصغار، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدراً بعد عتـوهم وتجبرهم على عبـاد الله عز وجـل في أرضه. ثم أقبلت الـوحـوش من البراري وذرى الجبال منكسة رؤوسها[6] لذل يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها ولا خطية أصابتها، فتوهم اقبـالها بـذلها في اليـوم العظيم ليـوم العرض والنشـور، وأقبلت السباع بعـد ضراوتهـا وشهامتها منكسة رؤوسها[6] ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنـة والانكسار للملك الجبـار، وأقبلت الشياطين بعـد عتوهـا وتمـردهـا خاشعة لذل العرض على الله سبحانه، فسبحان الذي جمعهم بعد طول البـلاء

---

(1) تدعا.

(2) الأعلا.

(3) مغبرين.

(4) بلاهم.

(5) ساعي.

(6) روسها.

واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض قد أذلهم البعث وجمع بينهم النشور. حتى اذا تكاملت عـدة أهل الأرض من انسهـا وجنها وشياطينها ووحـوشها وسباعها وأنعـامها وهـوامهـا، واستـووا جميعـاً في مـوقف العـرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمـر، وأظلمت الأرض بخمود سراجها واطفاء نورها. فبينا أنت والخلائق على ذلك اذ صارت السماء الدنيا من فوقهم، فدارت بعظمهـا من فوق رؤوسهم[1]، وذلـك بعينك تنظر إلى هول ذلك، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام، فياهول صوت انشقاقها في سمعك، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيـام على أرجـائها وهي حـافات مـا يتشقق ويتفطر، فمـا ظنك بهـول تنشق فيـه السمـاء بعظمها، فأذابها ربها حتى صارت كالفضة المـذابة تخـالطهـا صفرة لفـزع يوم القيامة، كما قال الجليـل الكبير: فصـارت **﴿وردة كالـدهان﴾**[2]، و**﴿يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن﴾**[3].(فقـال المفسرون أن المهـل هي الفضة المذابة يخالطها صفـرة، وان العهن هو الصـوف المنفوش، وقـوله وردة كالدهان كلون الفرس الورد). فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها اذ انحدروا محشـورين إلى الأرض للعـرض والحسـاب، وانحـدروا من حـافتيهـا بعـظم أجسـامهم وأخـطارهم وعلو أصـواتهم بتقـديس الملك الأعلى الـذي أنـزلهم محشورين إلى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه. فتوهم تحدرهم[4] من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العـرض على الله عز وجـل ـ كما حـدثني يحيى بن غيلان الأسلمي قال: حدثنا رشدين بن سعيد عن أبى السمح عن أبي قبيل عن عبد الله ابن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنـه قال: «**لله ملك مـا بين مـواقي عينيه إلى**

---

(1) روسهم.
(2) الرحمن: ٣٧.
(3) المعارج: ٨، ٩.
(4) يحذرهم.

آخر[1] **شفره مسيرة مائة عام**»[2]، حدثني يحيى بن غيلان قال: حدثنا رشدين ابن سعيد عن ابن عباس بن ميمون اللخمي عن أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو ابن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «**لله عز وجل ملك ما بين شفري عينيه مائة عام**» - فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم، ومسئلتهم اياهم: أفيكم ربنا؟ ففزع الملائكة من سؤالهم اجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم تنزيها لما توهمه أهل الأرض: سبحان ربنا ليس هو بيننا فهو آت، حتى أخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم[3] لذل يومهم. فتوهمهم، وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم[3] في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم، ثم كل شيء على ذلك وكذلك إلى السماء السابعة كل أهل سماء مضعفين بالعدد، وعظم الأجسام، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفا واحداً، حتى اذا وافى[4] الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين وادنيت من رؤوس[5] الخلائق قاب قوس أو قوسين، ولا ظل لأحد إلا ظل عرش رب العالمين، فمن بين مستظل بظل العرش، وبين مضحو بحر الشمس، قد صهرته بحرها واشتد كربه وقلقه من[6] وهجها، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت، فدفع بعضها بعضاً وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز بالسعادة والشقاء، حتى اذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلى

---

(١) أحر.

(٢) قال القاري: لا يوجد له أصل، وفي المغني على الاحياء قال: لم أره بهذا اللفظ. كشف الخفا: ١/٢٩٤، احياء علوم الدين: ٢٩٦١.

(٣) روسهم.

(٤) وافا.

(٥) روس.

(٦) فوق.

شحمة أذنيه، ومنهم من قد[1] كاد أن يغيب في عرقه ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه ـ عن عمير بن سعيد قال: جلست إلى ابن عمرو وأبي سعيد الخدري، وذلك يوم الجمعة فقال أحدهما لصاحبه: اني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أين يبلغ العرق من ابن آدم يوم القيامة؟ فقال أحدهم: شحمة أذنيه، فقال: ما أرى ذلك إلا سواء**»[2]. عن خيثمة عن عبد الله قال: «الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها يرون كواعبها وأكوابها، والذي نفس عبد الله بيده ان الرجل ليفيض عرقاً حتى يسيح في الأرض قامته، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب، قال فقالوا: مم ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال فقال: مما يرى الناس يلقون». عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ان الرجل** (وقال علي مرة ان الكافر) **ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلى أنصاف أذنيه من طول القيام**»[3]. عن عبد الله رفعه إلى النبي ﷺ «**ان الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة من طول ذلك اليوم** (وقال على من طول القيام قالا جميعاً) **حتى يقول رب أرحني ولو إلى النار**»[4] ـ وأنت لا محالة أحدهم، فتوهم نفسك لكربك وقد علاك العرق وأطبق عليك الغم وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب، والناس[5] معك منتظرون[6] لفصل القضاء إلى دار السعادة أو

---

(١) في الهامش.

(٢) فتح الباري ٣٩٢/١١، النووي على مسلم ٧١٥/٥، الاحياء: ٢٩٥٥.

(٣) النووي على مسلم ٧١٤/٥ عن ابن عمر عن النبي ﷺ، وأخرجه البخاري عن الإمام مالك عن نافع بلفظ مقارب. فتح الباري ٣٩٢/١١.

وللحديث ألفاظ وتخريجات أخرى ويمكن مراجعة: تفسير ابن كثير ٤٨٣/٤، الجامع الصغير بشرح فيض القدير ٣٣٨/٢. اللؤلؤ والمرجان جـ٣ ص ٢٩٦.

(٤) أخرجه أبو يعلى وابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود وأخرجه الطبراني في الكبير والأوسط للفظ مقارب، ورمز له السيوطي بالحسن في الجامع الصغير، كما أخرجه الطبراني وأبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر. وقال الهيثمي: رجال الكبير رجال الصحيح. وقال المنذري: اسناده جيد. فيض القدير ٣٣٨/٢، فتح الباري ٣٩٤/١١.

(٥) تحت. (٦) منتظر. زائد باليد الأولى.

إلى دار الشقاء، حتى اذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون[1] في أمورهم، فما ظنك بوقوفهم ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يلفح وجوههم روح ولا طيب نسيم، ولا يستريحون من تعب قيامهم ونصب وقوفهم حتى بلغ الجهد منهم مالا طاقة لهم به ـ عن قتادة أو كعب، قال: ﴿**يوم يقوم الناس لرب العلمين**﴾[2] قال: «يقومون مقدار ثلاثمائة عام»، قال سمعت الحسن يقول: «ما ظنك بأقوام قاموا لله عز وجل على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة ولم يشربوا فيها شربة حتى اذا انقطعت أعناقهم من العطش واحترقت أجوافهم من الجوع انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد نفحها، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى[3] النار من وقوفهم ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده ابراهيم، وموسى وعيسى من بعد ابراهيم، كلهم يقول لهم: ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، فكلهم يذكر شدة غضب ربه عز وجل وينادي بالشغل بنفسه فيقول: نفسي نفسي، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم لاهتمامه بنفسه وخلاصها» وكذلك يقول الله عز وجل: ﴿**يوم[4] تأتي كل نفس تجدل عن نفسها**﴾[5] فلم يحاس (؟) من الخلائق أحداً.

فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم، منفرد كل واحد منهم بنفسه ينادي: نفسي نفسي، فلا تسمع الا قول نفسي نفسي. فياهول ذلك وأنت نادي معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه، فما

---

(١) ينظروا.
(٢) المطففين: ٦
(٣) في الهامش.
(٤) القيامة. زائد باليد الأولى.
(٥) النحل: ١١١.

ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم، والخليل ابراهيم، والكليم موسى، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله عز وجل وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل، كل ينادي: نفسي نفسي، شفقاً من شدة غضب ربه، فأين أنت منهم في اشفاقك في ذلك اليوم واشتغالك بذلك[1] اليوم، وبحزنك وبخوفك؟ حتى اذا أيس الخلائق من شفاعتهم لما رأوا[2] من اشتغالهم لأنفسهم أتوا النبي محمداً[3] ﷺ فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم اليها، ثم قام إلى ربه عز وجل واستأذن عليه فأذن له ثم خر لربه عز وجل ساجداً ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله، وذلك كله بسمعك وأسماع الخلائق حتى أجابه ربه عز وجل إلى تعجيل عرضهم، والنظر في أمورهم. فبينما أنت مع الخلائق في ظلم القيامة وشدة كربها منتظر متوقع لفصل القضاء والحلول في دار النعيم أو الحزن اذ سطع نور العرش وأشرقت الأرض بنور ربها، وأيقن[4] قلبك بالجبار، وقد أتى لعرضك عليه حتى كأنه لا يعرض عليه أحد سواك، ولا ينظر الا في أمرك - عن حميد بن هلال: قال: «ذكر لنا أن الرجل يدعى[5] يوم القيامة إلى الحساب فيقال: يا فلان بن فلان هلم إلى الحساب، حتى يقول ما يراد أحد غيري مما يحضر به من الحساب» - ثم نادى: يا جبريل ائتنى بالنار، فتوهمها وقد أتى[6] جبريل فقال لها: يا جهنم أجيبي، فتوهم اضطرابها وارتعادها بفرقها أن يكون الله عز وجل خلق خلقاً يعذبها به، فتوهمها حين اضطربت وفارت ونارت، ونظرت إلى الخلائق من بعد مكانها فشهقت اليهم وزفرت نحوهم وجذبت خزانها متوثبة على الخلائق غضباً لغضب ربها على من خالف أمره وعصاه، فتوهم صوت زفيرها وشهيقها، وترادف قصبتها، وقد امتلأ منه سمعك، وارتفع له فؤادك وطار فزعاً ورعباً، ففر الخلائق هرباً من زفيرها على وجوههم، وذلك

---

(١) في الهامش.
(٢) روا.
(٣) في الهامش.
(٤) ربك. زائد باليد الأولى.
(٥) يدعا.
(٦) أتا.

يوم التنادي، لما سمعوا بدو زفيرها ولوا مدبرين وتساقطوا على ركبهم جثاة حول جهنم فأرسلوا الدموع من أعينهم.

فتوهم اجتماع أصوات بكاء الخلائق عند زفيرها وشهيقها وينادي الظالمون بالويل والثبور وينادي كل مصطفى وصديق ومنتخب وشهيد ومختار وجميع العوام: نفسي نفسي، فتوهم أصوات الخلائق الأنبياء فمن دون كل عبد منهم ينادي: نفسي نفسي وأنت قائلها، فبينا أنت مع الخلائق في شدة الأهوال ووجل القلوب اذ زفرت الثانية فيزداد رعبك ورعبهم وخوفك وخوفهم، ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق لوجوههم[1] وتنتخص بأبصارهم ينظرون من طرف خاشع خفى خوفاً أن تلفهم فتأخذهم بحريقها، وانتصفت عند ذلك قلوب[2] الظالمين فبلغت لدى[3] الحناجر كاظمين فكظموا عليها وقد غصت في حلوقهم وطارت الألباب وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين فلا يبقى رسول ولا عبد صالح مختار الا ذهل لذلك عقله فأقبل الله عز وجل عند ذلك على رسله وهم أكرم الخلائق عليه وأقربهم اليه لأنهم الدعاة إلى الله عز وجل والحجة على عباده، وهم أقرب الخلائق إلى الله عز وجل في الموقف وأكرمهم عليه، فيسألهم عما أرسلهم به إلى عباده وماذا ردوا عليهم من الجواب فقال لهم: ماذا أجبتم؟ فردوا عليه الجواب عن عقول ذاهلة غير ذاكرة فقالوا: **﴿لا علم لنا انك أنت علام الغيوب﴾**[4] فأعظم به من هول تبالغ من رسل الله عز وجل في قربهم منه وكرامتهم حتى أذهل عقولهم، فلم يعلموا بماذا أجابتهم أممهم - عن أبي الحسن الدمشقي، قال: قلت لأبي قرة الأزدى: «كيف صبر قلوبهم على أهوال يوم القيامة؟ قال: انهم اذا بعثوا خلقوا خلقة يقوون عليها». قال أبو الحسن: قلت لاسحق بن خلف قول الله عز وجل للرسل: **﴿ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا﴾**[4]، أليس قد علموا ما رد عليهم في الدنيا؟ قال: من عظم هول السؤال

---

(١) لوجوهم.

(٢) في الهامش.

(٣) لدا.

(٤) المائدة: ١٠٩

حين يسـألون[1] طـاشت عقولهم فلم يـدروا أي شيء أجيبوا في الـدنيـا، فهم صـادقون حتى تجلى[2] عنهم بعـد، فعرفـوا ما أجيبـوا، قال: فحـدثت به أبـا سليمان، فقال: صدق اسحاق هم في ساعتهم تلك صادقـون، حتى تجلى[3] عنهم فعرفوا ما أجيبوا، فقال أبو سليمان: «اذا سمعت الرجل يقول لصاحبه بيني وبينك الصراط فـاعلم أنه لا يعـرف الصراط ولـو عرفـه ما اشتهى[4] أن يتعلق بأحد، فلا يتعلق أحد» عن مجاهد في قوله: ﴿**يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم**﴾[5] قال: فيفزعون فيقولون: ﴿**لا علم لنا**﴾[5] عن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿**وترى كل أمة جاثية**﴾[6] أي مستوفزين على الركب، قال: سمعت عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ: ﴿**كأني أراكم بالكوم جاثين دون جهنم**﴾[7]، قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ** ﴿**إذا الشمس كورت**﴾[8] وعن عمرو بن ذر قال: «من غدا يلتمس الخير وجد الخير، أعلى تحملون جمود أعينكم وقسـوة قلوبكم؟ احملوا العى على ان لم أسمعكم اليوم واعظاً من كتاب الله عز وجل»، ثم قرأ ﴿**إذا الشمس كورت. واذا النجوم انكدرت. واذا الجبال سيرت**﴾[9] ـ حتى اذا بلغ ـ ﴿**علمت نفس ما أحضرت**﴾[10] (أو قال حتى ختمها)، قال ثم قال: اسمعوا الى يا عرض الدنيا ـ فأين أنت منهم في ذلك الموقف؟ هل تطمع أن يبلغ لك الهول ما بلغ

---

(1) يسئلوا.
(2) تحلا.
(3) تجلا.
(4) اشتها.
(5) المائدة: ١٠٩
(6) الجاثية: ٢٨.
(7) قول مجاهد وصله الطبري من طريقه فتح الباري ٥٧٤/٨، ابن كثير ١٥٢/٤، تفسير القرطبي ١٧٤/١٦.
(8) أخرجه أحمد والطبراني وصححه الحاكم ولفظ أحمد مختلف. فتح الباري ٦٩٥/٨، والآية من سورة التكوير: ١.
(9) التكوير: ١ ـ ٣.
(10) التكوير: ١٤.

منهم، بل أعظم مما بلغ منهم مالا يطيقه قلبك فلا يقوم به بدنك فهذه عقولهم ذاهلة في ذلك الموقف، فكيف بعقلك وما حل بـك وأنت الخاطىء العـاصى المتمادي فيما يكره ربك عز وجل؟

فتوهم نفسك لذلك الخوف والفزع والرعب والغربة والتحير اذا تبرأ منك الولد والوالد والأخ والصاحب والعشائر، وفررت أنت[1] منهم أجمعين، فكيف خذلتهم وخذلوك، ولولا عظم هول ذلك اليوم ما كان من الكرم والحفاظ أن تفر من أمك وأبيك وصاحبتك وبينك وأخيك، ولكن عظم الخطر واشتد الهول فلا تلام على فرارك منهم ولا يلامون[2] ولم تخصهم بالفرار دون الأقرباء لبغضـك ايـاهم، وكيف تبغضهم[3] أو يبغضـونـك، وكيف خصصتهم بـالفـرار منهم، أتبغضهم[3] وانهم لهم الذين كانوا في الدنيا مؤانسيك وقرة عينك وراحة قلبك، ولكن خشيت أن يكون لأحد عندك منهم تبعة فيتعلق بك حتى يخاصمك عند ربك عز وجل، ثم لعله أن يحكم له عليك فيأخذ منك ما ترجو[4] أن تنجو به[5] من حسناتك فيفرقك منها فتصير بذلك إلى النار. فبينما أنت في ذلك اذ ارتفعت عنق من النـار فنطقت بلسـان فصيـح بمن وكلت بـأخـذهم من الخـلائق بغيـر حساب، ثم أقبل ذلك العنق فيلقطهم لقط الطير الحب ثم انطوت عليهم فألقتهم في النار فابتلعتهم، ثم خنست بهم في جهنم فيفعل ذلك بهم، ثم ينادي مناد: سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ليقيم الحمادون لله على كل حال، فيقومون فيسرحون إلى الجنة ثم يفعل ذلك بأهـل قيام الليـل، ثم بمن لم يشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر مولاه[6] حتى اذا دخلت هذه الفرق من أهل الجنـة[7]

---

(١) في الهامش.
(٢) يلاموا.
(٣ ـ ٣) في الهامش.
(٤) ترجوا.
(٥) تنجوا.
(٦) راجع سورة النور آية: ٣٧.
(٧) في الهامش.

والنـار، ثم تطايـرت الكتب في الأيمان والشمـائل ونصبت المـوازين، فتـوهم الميزان بعظمه منصوباً وتوهم الكتب المتـطايرة وقلبـك واجف متوقـع أين يقع كتـاب في يمينك أو في شمـالك ـ عن الحسن: «أن رسـول الله ﷺ كان رأسـه في حجـر عـائشـة فنعس، فتـذكـرت الآخـرة، فبكت فسـالت دمـوعهـا على خـد النبي ﷺ، فاستيقظ بدموعها فرفع رأسه، فقال: ما يبكيك يا عائشة؟ فقالت: يا رسول الله ذكرت الآخرة، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال: والذي نفسي بيده في ثلاث مواطن فان أحداً لا يذكر الا نفسه: اذا وضعت الموازين ووزنت أعمال بني آدم عند الموازين حتى ينظر أيخف ميزانه أم يثقـل، وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ أم بشماله، وعند الصراط»[1].

عن أنس بن مالك قال: يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوته بسمع الخلائق: سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى[2] بعدها أبداً، وان خف ميزانه نـادى[3] الملك بصوته بسمع الخلائق: شقي فلان بن فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبـداً». فبينا أنت واقف مع الخلائق اذ نظرت إلى الملك وقد أمر أن يحضر بالزبانية فأقبلوا بأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من النار، فلمـا رأيتهم فهبتهم طار قلبـك فزعاً ورعباً، فبينا أنت كذلك اذ نودي باسمك فنوديت على رؤوس[4] الخلائق الأولين والآخرين: أين فلان بن فلان؟ هلم إلى[5] العرض على الله عز وجل، وقد وكل الملائكة بأخذك حتى يقربوك[6] إلى ربك فلم يمنعها اشتبـاه الأسماء

---

(١) أخرجه أبو داود، وليس فيه ذكر وضع رأسه الشريف في حجر عائشة ولا سيلان الـدموع على الخد، والزيادة في لفظ أبي داوود تظهر في قوله: وعند الكتاب حين يقال: **﴿هاؤم اقرأوا كتبيه﴾** (الحـاقة: ١٩) حتى يعلم أين يقـع كتابـه أفي يمينه أم في شمـاله أم من وراء ظهـره. مختصر السنن للمنذري ١٤٦/٧.

(٢) يشقا.

(٣) نادا.

(٤) روس.

(٥) في الهامش.

(٦) يقربونك.

باسمك أن تعرفك لما ترى بك[1] أنك المراد بالدعاء المطلوب ـ قال حدثنا طلحة بن عمرو قال: قال لي عطاء بن أبي رباح: «يا طلحة ما أكثر الأسماء على اسمك وما أكثر الأسماء على اسمي»، فاذا كان يوم القيامة قيل يا فلان فقام الذي يعني لا يقوم غيره لما لزم قلبك من العلم ـ فوثبت على[2] قدميك ترتعد فرائصك وتضطرب جوارحك متغير لونك فزع مرعوب مرتكض قلبك في صدرك بالخفقان، فلما عاينتك الملائكة الموكلون بأخذك قد حل[3] بك الاضطراب بالارتعاد[4] والمخافة علمت أنك أنت [5] المراد من العباد فأهوت اليك بأيديها فقبضت عليك بعنفها ثم جذبتك إلى ربك عز وجل كما تجذب الدواب المنقادة تتخطى [6] بك الصفوف محثوثاً إلى العرض على الله عز وجل والوقوف بين يديه، وقد رفع الخلائق اليك أبصارهم وأنت مجبوذ إلى ربك عز وجل فيما بينهم.

فتوهم حين وقفت بالاضطراب والارتعاد يرعد قلبك، وتوهم مباشرة أيديهم على عضديك وغلظ أكفهم حين أخذوك، فتوهم نفسك محثوثة في أيديهم وتوهم تخطيك الصفوف، طائر فؤادك متخلع قلبك، فتوهم نفسك في أيديهم كذلك حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فقذفوا بك من أيديهم، وناداك الله عز وجل بعظيم كلامه: أذن مني يا ابن آدم فغيبك في نوره، فوقفت بين يدي رب عظيم جليل كبير كريم بقلب خافق محزون، وجل مرعوب، وطرف خائف، خاشع ذليل، ولون متغير، وجوارح مرتعدة مضطربة، كالحمل الصغير حين تلده أمه، ترتعد بيدك صحيفة محبرة لا تغادر بلية كسبتها ولا مخبأة اسررتها، فقرأت ما فيها بلسان كليل وحجة داحضة وقلب منكسر، فكم لك من حض وخجل

---

(١) يرابك.
(٢) كذا في الهامش، وفي الأصل: بك لك
(٣) فوق.
(٤) بالاردعاد.
(٥) في الهامش.
(٦) تتخطا.

وجبن من المولى الذي لم يزل اليك محسناً، وعليك ساترا[1] فبأي لسان تجيبه حين يسألك عن قبيح فعلك، وعظيم جرمك، وبأي قدم تقف غداً بين يديه، وبأي نظر تنظر اليه، وبأي قلب تحتمل كلامه العظيم الجليل ومساءلته وتوبيخه؟ فتوهم نفسك بصغر جسمك، وارتعاد جوارحك، وخفقان قلبك، وقد سمعت كلامه بتذكير ذنوبك، واظهار مساوئك، وتوقيفك وتقريرك بمخبآتك، فتوهم نفسك بهذه الهيئة والأهوال بك محدقة من خلفك، فكم من بلية قد[2] نسيتها، قد ذكركها، وكم من سريرة قد كنت كتمتها قد أظهرها وأبداها، وكم من عمل قد ظننت أنه قد خلص لك وسلم بالغفلة منك إلى ميل الهوى عما يفسده قد رده في ذلك الموقف عليك وأحبطه، بعد ما كان تأملك فيه عظيماً، فياحسرات قلبك وتأسفك على ما فرطت في طاعة ربك، حتى اذا كرر عليك السؤال بذكر كل بلية ونشر كل مخبأة فأجهدك الكرب، وبلغ منك الحياء منتهاه لأنه الملك الأعلى[3] فلا حياء يكون من أحد أعظم من الحياء منه لأنه القديم الأول الباقي الذي ليس له مثل، المحسن المتعطف المتحنن الكريم الجواد المنعم المتطول، فما ظنك بسؤال من هو هكذا أبان عن مخالفتك اياه، وقلة هيبتك له، وحيائك منه، ومبارزتك له، فما ظنك بتذكيره اياك مخالفته وقلة اكتراثك في الدنيا بالطافة[4] عليك ونظرك اليه، اذ يقول: يا عبدى أما أجللتني أما استحييت مني، أستخففت بنظري اليك، ألم أحسن اليك، ألم أنعم عليك، ما غرك مني، شبابك فيم أبليته، وعمرك فيم أفنيته، ومالك من أين اكتسبته، وفيم أنفقته، وعملك ماذا عملت فيه؟ - قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منك من أحد إلا سيسأله رب العالمين، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان**»[5].

---

(١) ساتر.

(٢) فوق.

(٣) الأعلا.

(٤) بالطاعة.

(٥) أورده العجلوني بلفظ مقارب ولم يعلق عليه بشيء، وأورده الغزالي في الاحياء من قول مجاهد، وفي ابن ماجه حديث رقم ١٨٤٣ بلفظ مختلف.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**فوربك لنسئلنهم أجمعين. عما كانوا يعملون**﴾ (الحجر: ٩٢، ٩٣)، أورد ابن كثير أثراً عن ابن مسعود يقارب معنى الحديث.

قال: سمعت عدي بن حاتم قال: شهدت رسول الله ﷺ في حديث له: «**ليقفن أحدكم بين يدي الله تبارك وتعالى ليس بينه وبينه حجاب ولا بينه وبينه ترجمان يترجم عنه فيقول: ألم أوتك مالا؟ فيقولن: بلى، فيقول: ألم أرسل إليك رسولاً؟ فيقولن: بلى، ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتق آلام النار ولو بشق تمرة فان لم يجد فبكلمة طيبة**»[1]. قال: سمعت عبد الله بن مسعود بدأ باليمين قبل الحديث، فقال: «ما منكم من أحد الا سيخلو[2] الله عز وجل به، كما يخلو[3] أحدكم بالقمر ليلة البدر (أو قال للكلمة)، ثم يقول: يا ابن آدم ما غرك بي، يا ابن آدم ما عملت فيما علمت، يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟» عن ابن مسعود أنه بدأ باليمين، فقال: والله ما منكم من أحد الا سيخلو[4] به الله عز وجل كما يخلو[3] أحدكم بالقمر يراه ثم يقول: يا ابن آدم ما غرك بي، يا ابن آدم ما عملت لي، يا ابن آدم ما استحييت مني، يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين، يا ابن آدم ألم أكن رقيباً على عينيك[5] وأنت تنظر بهما إلى ما لا يحل لك، ألم أكن رقيباً على أذنيك وأنت تستمع بهما[6] إلى ما لا يحل لك، ألم أكن رقيباً على لسانك وأنت تنطق بما لا يحل لك، ألم أكن رقيباً على يديك وأنت تبطش بهما إلى ما لا يحل لك، ألم أكن رقيباً على رجليك وأنت تمشي بهما إلى ما لا يحل لك، ألم أكن رقيباً على قلبك وأنت تهم بما لا يحل لك، أم أنكرت قربي منك وقدرتي عليك وأنت يا ابن آدم بين خطرين عظيمين: أما أن يتلاقاك برحمته ويتطول عليك بجوده،

---

(١) فتح الباري ٣/٢٨١، احياء علوم الدين: ٢٩٦٦.
عن عدي بن حاتم وأوله: كنت عند رسول الله ﷺ فجاءه رجلان.. الخ الحديث.

(٢) سيخلوا.

(٣) يخلوا.

(٤) سيخلوا.

(٥) عينك.

(٦) ناقص في الأصل.

واما أن يناقشك الحساب، فيأمر بـك إلى الهاويـة وبئس المصير. عن مجـاهد قال: «لا يزول قدم عبد يوم القيامة من بين يدي الله عـز وجل حتى يسـأله عن أربع خصال: عن عمـره فيم أفناه، وعن عمله مـا عمل فيـه، وعن جسده فيم أبلاه، وعم ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه» فما ظنـك بنفسك وضعف قلبـك، والله عز وجل يكرر عليك ذكر احسانه اليك، ومخالفتك له، وقلة حيائك[1] منه، فأعظم به موقفاً وأعظم به من سائل لا تخفى عليه خافية، وأعظم بما يـداخلك من الحزن والغم والتأسف على ما فرطت في طاعته وركوبك معصيته، فاذا تبالغ فيك الجهد من الغم والحزن والحياء بدا لك[2] منه أحد الأمـرين: الغضب أو الرضا عنك والحب لك. فاما أن يقول: يا عبدي أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فقد غفرت لك كبير جرمك وكثير سيئاتك، تقبلت منك يسير احسانك، فيستطير بالسرور والفرح قلبك فيشرق لذلك وجهك، فتوهـم نفسك حين قالها لك، فـابتدأ اشراق السرور ونوره في وجهك بعد كآبته وتكسفـه من الحياء من السؤال والحصر من ذكر مساوىء فعلك، فاستبدلت بالكآبة والحزن سروراً في قلبك، فأسفر وجهك وابيض لونك، فتوهـم رضاه عنك حين سمعته منه، فثار في قلبك، فامتلأ سروراً وكدت أن تموت فرحاً وتطير سروراً، ويحق لك، فأي سرور أعظم من السرور والفرح برضا الله عز وجل، فوالله تعالى لـو أنك مت فرحاً في الدنيا حين توهم رضاه في الآخرة لكنت بـذلك حـرياً، وان كنت لم تستيقن برضاه في الآخرة، ولكن آملاً لذلك، فكيـف بك مستيقناً له في الآخرة، ولو توهمت نفسك، وقد بدا لك منه الرحمة والمغفـرة كنت حقيقاً أن تطير روحك من بدنك فرحاً، فكيـف ان لو قد سمعت من الله عز وجل الرضا عنه والمغفرة لك فأمن خوفك وسكن حذرك، وتحقق أملك ورجـاؤك بخلود الأبد،

---

(١) حياك.

(٢) كذا في الهامش وفي الأصل: بدلك.

وأيقنت بفوزك ونعيمك أبداً لا[1] يفنى[2] ولا يبيد بغير تنقيص ولا تكذيب، فتوهم نفسك بين يدي الله عز وجل، وقد بدا لك منه الرضا، وطار قلبك فرحاً، وابيض وجهك، وأشرق وأنار وأحال عن خلقته، فصار كأنه القمر ليل البدر، ثم خرجت على الخلائق مسروراً بوجه محبور قد حل به أكمل الجمال والحسن، يسطع نوراً مشرقاً بتلألائه تتخطاهم بالجمال والحسن والنور والضياء كتابك بيمينك، أخذ بضبعيك ملك ينادي على رؤوس[3] الخلائق: هذا فلان بن فلان سعد سعادة لا يشقى[4] بعدها أبداً، لقد شهرك ربك عز وجل بالرضا عنك عند خلقه، ولقد حقق حسن ظن الظانين وأبطل تهم المتهمين لك، وان في هذه المنزلة غدا على رؤوس الخلائق لعوضاً من المنزلة عند العباد بطاعته والتصنع لهم زهداً في المنزلة عندهم، والتعظيم عندهم بطاعة ربه عز وجل بصدق معاملته وحده لا شريك له، عوضك المنزلة الكبرى على رؤوس الخلائق فشهرك برضاه عنك وموالاته اياك، فتوهم نفسك وأنت تتخطى[5] الخلائق، وكتابك في يمينك بجمال وجهك ونوره، وفرح قلبك وسروره، وقد شخصت أبصارهم اليك غيظة لك وتأسفاً على أن ينالوا من الله عز وجل ما نلت، فليعظم من الله عز وجل في طلب ذلك أملك ورجاؤك فانه عز وجل ان تفضل عليك نلت ذلك، فهذا أحد الأمرين الذي أنت بينهما على خطر ـ عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد عبد الله بن عمر، فأتاه رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يذكر في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ان الله عز وجل يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه يستره من الناس، فيقول: يا عبدي أتعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم يا رب، ثم يقول: يا عبدي أتعرف ذنب كذا وكذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: اني قد سترتها**

---

(1) ألا.

(2) يفنا.

(3) روس.

(4) يشقا.

(5) تتخطا.

عليك في الدنيا وقد غفرتها لك اليوم ثم يعطى[1] **كتاب حسناته**»[2]، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: ﴿**هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظلمين**﴾[3]. قال: بينا عبد الله بن عمر يطوف بالبيت اذ عارضه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فذكر مثله. قال سعيد: قال قتادة: فلم يحزن يومئذ أحد فخفى حزنه على أحد من الخلائق.
عن ابن مسعود أنه قال: «ينشر الله عز وجل كنفه يوم القيامة على عبده المؤمن، ويبسط كفه لظهرها، فيقول: يا ابن آدم هذه حسنة قد عملتها في يوم كذا وكذا قد[4] قبلتها، وهذه خطية قد عملتها في يوم كذا وكذا قد غفرتها لك فيسجد، فيقول الناس: طوبى[5] لهذا العبد الصالح الذي لم يجد في صحيفته الا حسنة» (أو قال: في كتابه). عن عبد الله بن حنظلة قال: «ان الله عز وجل يقف عبده يوم القيامة فيبدي[6] حسناته في ظهر صحيفته فيقول له: أنت عملت هذا، فيقول: نعم أي رب، فيقول: اني لم أفضحك به اليوم واني قد غفرت لك اليوم، فيقول عندها: هلموا[7] اقرأوا[8] كتابيه، ﴿**اني ظننت أني ملٰق حسابيه**﴾، حين نجا من فضيحة يوم القيامة». وأما الأمر الآخر فاما أن يقول لك: عبدي أنا غضبان عليك فعليك لعنتي، فلن أغفر لك عظيم ما آتيت، ولن أتقبل منك ما عملت، فيقول لك في ذلك عند بعض ذنوبك العظيمة (أن يقول لك): أتعرفها؟ فتقول: نعم وعزتك، فيغضب **عليك** فيقول[9]: وعزتي لا تذهب بها منى، فنادى

---

(۱) يعطا.
(۲) رواه أحمد في مسنده ومسلم والبخاري والنسائي وابن ماجه كلهم عن ابن عمر، وهو عند البخاري من رواية قتادة عن صفوان بن محرز المازني: جليل فاضل ورع. فتح الباري ٩٦/٥، فيض القدير ٣٠١/٢، طبقات الحفاظ للسيوطي ٢١.
(۳) هود: ١٨.
(٤) في الهامش.
(٥) طوبا.
(٦) فيبدأ.
(۷) هلوم.
(۸) اقروا ـ والآية من سورة الحاقة: ٢٠.
(۹) في الهامش.

الزبانية فيقول: خذوه، فما ظنك بالله عز وجل يقولها بعظيم كلامه وهيبته وجلاله. فتوهم ان لم يعف عنك، وقد سمعتها من الله عز وجل بالغضب، وأسند اليك الزبانية بغضاضتها وغلظ أكفها مستدفرة بأزمة من النيران غضاباً لغضب[1] الله عز وجل بالعنف عليك والغلظ والتشديد، فلم تشعر حين قالها الا ومجسة غلظ أكفهم في قفاك وعنقك، فتوهم غلظ أكفهم حين قبضوا على عنقك بالعنف يتقربون إلى الله عز وجل بعذابك وهوانك. فتوهم نفسك مستجذباً ذليلاً موقنا بالهلاك وأنت في أيديهم وهم ذاهبون بك إلى النار مسود وجهك تتخطى الخلائق بسواد وجهك وكتابك في شمالك تنادي بالويل والثبور، والملك آخذ بضبيعك ينادي: هذا فلان ابن فلان شقي شقاء لا يسعد بعده أبداً. لقد شهرك بالغضب والسخط عليك، ولقد تمت فضيحتك عند خلقه، فأخلف حسن ظن الظانين بك، وحقق تهم المتهمين لك، ولعله ان فعل ذلك بك فعله بتصنعك لطاعته عند عباده بطلب المنزلة عندهم بسقوط المنزلة والجاه عنده، ففضحك عند من آثرته عليه في المعاملة، ورضيت بحمده على طاعة ربك عز وجل عوضاً من حمده اياك تبارك وتعالى.

فتوهم ذلك ثم توهمه واذكر هذا الخطر، وكن مفكراً حذراً أي الأمرين يرتفع بك وأي الأمرين قد أعد لك ـ عن كعب قال: ان الرجل ليؤمر به إلى النار فيبتدره مائة ألف ملك. قال أبو عبد الله: وقد بلغني أنه اذا وقف العبد بين يدي الله عز وجل فطال وقوفه، تقول الملائكة: مالك من عبد عليك لعنة الله أبكل هذا بارزت الله عز وجل وقد كنت تظهر في الدنيا علانية حسنة؟ قال: أبو عبد الله ولقد بلغني أيضاً أنه اذا حوسب فوبخ بكثرة أعماله الخبيثة، تقول: الملائكة مالك من آدمي عليك لعنة الله، أبكل هذا[2] بارزت الله عز وجل، وقد كنت تظهر الحسن في الدنيا؟ قال: من تحبب إلى الناس بما لا يحب الله عز وجل،

---

(١) بالغضب. (٢) هذا زائد.

وبارز الله عز وجل بما يكره لقي الله عز وجل وهو عليه ساخط وله ماقت، ثم قال أبو عبد الله[1] وهو يحدث: والله عز وجل ما أمسيت آسفاً علي وعليكم - ومع ذلك الجسر بدقته وزلله وهوله وعظيم خطره قدامك.

فتوهم ما حل من الوجل بفؤادك حين رفعت طرفك فنظرت اليه مضروباً على جهنم بدقته ودحوضه، وجهنم تخفق بأمواجها من تحته، فيا له من منظر ما أفظعه وأهوله، وقد علمت أنك راكب فوقه وأنت تنظر إلى سواد جهنم من تحته، وتسمع قصيف أمواجها وجلبة ثورانها من أسفلها، والملائكة تنادي[2]: ربنا من تريد أن تجيزه على هذا؟ وتنادي[3]: ربنا ربنا سلم سلم، فبينا أنت تنظر اليه بفظاعة منظره اذ نودي مروا الساهرة، فلم تشعر الا وقد رفعت الأرض من تحتك وتحت الخلائق لأن تبدل، ثم بدلت بأرض من فضة فاذا الخلائق منشورون على أرض من فضة بيضاء[4]، ثم قيل لك وأنت تنظر إلى الجسر بفظاظته وقيل للخلق معك: اركبوا الجسر فتوهم خفقان فؤادك وفزعه، وقد قيل لك اركب الجسر، فطار عقلك رعباً وفزعاً، ثم رفعت أحد قدميك لتركبه فوجدت بباطن قدميك حدته ودقته فطار قلبك فزعاً، ثم ثنيت الأخرى فاستويت عليه راكباً وقد أثقلتك أوزارك وأنت حاملها على ظهرك، ثم صاعدت عليه بطيران قلبك حتى بلغت ذروته والخلائق من بين يديك ومن ورائك[5] عرفاً واحداً فصاعدت عليه بطيران قلبك حتى بلغت ذروته، ثم انحدرت باضطرابه بك والخلائق عليه عرف واحد يضطرب بهم خفقان جهنم تحته، فتهافت الناس من بين يديك ومن ورائك، فتوهم صعودك بضعفك عليه، وقد نظرت الى الزالين والزالات من بين يديك ومن خلفك وقد تنكست هاماتهم وارتفعت على الصراط أرجلهم وأخذت الملائكة بلحى[6] الرجال وذوائب النساء من الموحدين اذ الأغلال في أعناقهم،

---

(١) أيوب.

(٢-٣) في الهامش.

(٤) في الهامش.

(٥) ولايك.

(٦) بلحا.

وثارت النار بطلبتها وفارت وشهقت على هاماتهم، ورمتهم الملائكة بالكلاليب فجذبتهم وثارت اليهم النار بطلبتها وحريقها، وزفرت[1] وشهقت على هاماتهم وبادرت شرر النار إلى هاماتهم فتناولتها ثم جذبت هاماتهم إلى جوفها، وهم ينادون ويصرخون وقد أيسوا من أنفسهم، وهم لاجتذاب النار لهاماتهم فيها ينحدرون وهم بالويل ينادون، وأنت تنظر اليهم مرعوب خائف أن تتبعهم فتزل قدمك فتهوى[2] من الجسر وتنكسر قامتك وترتفع على الصراط رجلاك.

فتوهم ذلك بعقل فارغ وشفقة على ضعف بدنك مخفف في الدنيا للمرور عليه، فان أهوال القيامة انما تخففت على أولياء الله عز وجل الذين توهموها[3] في الدنيا[3] بعقولهم فعظم خطر النجاة عندهم، فتحملوا من ثقل همومها في الدنيا على قلوبهم وحرقة خوفها على ضرورتهم فخففها في القيامة بذلك عليهم مولاهم، فألزم قلبك توهمها والخوف منها والغم بها لأن يخففها عليك بذلك ويهونها لأنه آلى على نفسه ألا يجمع على أوليائه الخوف في الدنيا والآخرة.

فتوهم ممرك على الجسر بشدة الخوف وضعف البدن، وان يكن مغضوباً عليك غير معفى[4] عنك، ولم تشعر الا وقد زلت[5] قدمك عن الصراط، فتوهم[5] نفسك ان لم يعف عنك أن زلت رجلك عن الصراط فقلت في نفسك مع ذلك ذهبت أبداً هذا الذي كنت أحاذر وأخاف، وطار عقلك، ثم زلت الأخرى فتنكست هامتك، وارتفعت عن الصراط رجلاك فلم تشعر الا والكلوب قد دخل في جلدك ولحمك، فجذبت به وبادرت اليك النار ثائرة غضبانة لغضب مولاها، فهي تجذبك وأنت تهوي من الجسر وتنادي حين وجدت مس نفحها: ويلي ويلي، وقد غلب على قلبك الندم والتأسف الا كنت أرضيت الله عز

---

(١) ورفرت.
(٢) فتهوا.
(٣ـ٣) في الهامش.
(٤) معفا.
(٥ـ٥) في الهامش.

وجل، فرضى عنك وأقلعت عما يكره قبل أن تموت، فغفر لك، حتى اذا صرت في خوفها التحمت عليك بحريقها، وقلبك قد بلغ غاية حرقته ومضيضه، فتورمت في أول ما ألقيت فيها، ونادى[1] الله عز وجل النار وأنت مكبوب على وجهك تنادي بالويل والثبور، فناداها: ﴿هل امتلأت﴾[2]؟فسمعت نداءه وسمعت اجابتها له: ﴿هل من مزيد﴾[3]؟ يقول هل من سعة وأنت في قعرها، وهي تتلهب في بدنك، لها قصيف في جسدك، ثم لم تلبث أن تقطر بدنك وتساقط لحمك، وبقيت عظامك، ثم أطلقت النار على ما في جوفك فأكلت ما فيه، فتوهم كبدك والنار تداخل فيها وأنت تنادي فلا ترحم، وتبكي وتعطي الندم، ان رددت ألا تعود، فلا تقبل توبتك، ولا يجاب نداؤك[4].

فتوهم نفسك وقد طال فيها مكثك وألح العذاب، فبلغت غاية الكرب، واشتد بك العطش فذكرت الشراب في الدنيا، ففزعت الى الجحيم، فتناولت الاناء من يد الخازن الموكل بعذابك، فلما أخذته نشت كفك من تحته، وتفسخت لحرارته، وهيج حريقه، ثم قربته إلى فيك فشوى وجهك، ثم تجرعته فسلخ حلقك، ثم وصل إلى جوفك فقطع أمعاءك، فناديت بالويل والثبور، وذكرت شراب الدنيا وبرده ولذته، ثم أقلعت[5] الحريق، فبادرت إلى حياط الحميم لتبرد بها، كما تعودت في الدنيا الاغتسال والانغماس في الماء اذا اشتد عليك الحر فلما اغتمست في الحميم تسلخ من قرنك إلى قدمك، فبادرت إلى النار رجاء أن تكون هي أهون عليك، ثم اشتد عليك حريق النار فرجعت إلى الحميم وأنت تطوف بينها وبين حميم آن، وهو الذي قد انتهى حره، وتطلب الروح فلا روح بين الحميم وبين النار، تطلب الروح فلا روح أبداً. فلما اشتد

---

(١) ونادا.

(٢) املات.

(٣) سورة ق: ٣٠.

(٤) نداك.

(٥) أقلقت.

بك الكرب والعطش وبلغ منك المجهود ذكرت الجنان فهاجت غصة من فؤادك إلى حلقك أسفا على جوار الله عز وجل، وحزناً على نعيم الجنة، ثم ذكرت شرابها وبرد مائها وطيب عيشها، فتقطع قلبك حسرة لحرمان ذلك، ثم ذكرت أن فيها[1] بعض القرابة من أب أو أم أو أخ، وغيرهم من القرابة فناديتهم بصوت محزون من قلب محترق قلق: يا أماه أو يا أبتاه أو يا أخاه أو يا خالاه أو يا عماه أو يا أختى شربة من ماء، فأجابوك بالخيبة فتقطع قلبك حسرة[2] بما خيبوا من أملك، وبما رأيت من غضبهم عليك لغضب ربك عز وجل، ففزعت إلى الله بالنداء بالمرجع والعتبى أن يردك إلى الدنيا، فمكث عنك دهراً طويلاً لا يجيبك هوانا بك وان صوتك عنده ممقوت، وجاهك عنده ساقط، ثم ناداك بالخيبة منه أن ﴿اخسؤا[3] فيها ولا تكلمون﴾[4]. فلما سمعت نداءه بجلال كلامه بالتخسية لك ابتداء فمثلك (؟) لا تجاب ومناخرك وفيك ملجومة[5] بلجام، فبقي نفسك متردداً في جوفك لا مخرج له فضاقت نفسك في صدرك وبقيت قلقاً تزفر لا تطيق الكلام ولا يخرج منك[6] نفس، ثم أراد أن يزيدك اياساً وحسرة، فأطبق أبواب النار عليك وعلى أعدائه فيها. فما ظنك ان لم يعف عنك، وقد سمعت رجوف بابها قد أغلق؟ فيا اياسك ويا اياس سكان جهنم حين سمعوا وقع أبوابها تطبق عليهم فعلموا عند ذلك أن الله عز وجل انما أطبقها لئلا يخرج منها أحداً أبداً، فتقطعت قلوبهم اياساً وانقطع الرجاء منهم ألا فرج أبداً ولا مخرج منها ولا محيص لهم من عذاب الله عز وجل أبداً خلود فلا موت، وعذاب لا زوال له عن أبدانهم، ودوام حرق قلوبهم ومضيضها، فلا روح ولا راحة تعلق بهم أبداً، أحزان لا تنقضي، وغموم لا تنفد، وسقم لا يبرأ، وقيود لا تحل، وأغلال لا

---

(١) فيهم.
(٢) حسرات.
(٣) أحسا.
(٤) المؤمنون: ١٠٨.
(٥) ملجومين.
(٦) في الهامش.

تفك أبداً، وعطش لا يروون بعده أبداً، وكرب لا يهدأ أبداً، وجوع لا يشبعون بعده أبداً الا بالزقوم ينشب في حلوقهم فيستغيثون بالشراب ليسوغوا به غصصهم فيقطع أمعاءهم، وحسرة فوت رضوان الله عز وجل في قلوبهم، وكمد حرمان جوار الله عز وجل يتردد[1] في صدورهم، لا يرحم بكاؤهم، ولا يجاب دعاؤهم، ولا يغاثون[2] عند تضرعهم، ولا تقبل توبتهم، ولا تقال عثرتهم غضب الله عز وجل عليهم فلا يرضى عنهم أبداً، اذ أبغضهم ومقتهم، وسقطوا من عينه، وهانوا عليه فأعرض عنهم. فلو رأيتهم وقد عطشوا وجاعوا فنادوا من أهل الجنة الأقرباء فقالوا جميعاً: يا أهل الجنة يا معشر الآباء والأمهات والأخوة والأخوات خرجنا من قبورنا عطاشاً وأوقعنا بين يدي الله عز وجل عطاشاً، وأمر بنا إلى النار عطاشاً، أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فأجابوهم بالتخسية فتراجع في قلوبهم الحسرة والندامة فهم فيها يتقلقون لا ينفح وجوههم[3] روح أبداً، ولا يذوقون منها بارداً أبداً ولا يطبقون جفونهم على غمض نوم أبداً، فهم في عذاب دائم وهوان لا ينقطع، فمثل نفسك بهذا الوصف ان لم يعف عنك. فلو رأيت المعذبين في خلقهم وقد أكلت النار لحومهم ومحت محاسن وجوههم واندرس تخطيطهم، فبقيت العظام مواصلة محترقة مسودة وقد قلقوا واضطربوا في قيودهم وأغلالهم وهم ينادون بالويل والثبور، ويصرخون بالبكاء والعويل، اذن لذاب قلبك فزعاً من سوء خلقهم وتضعفت من رائحة نتنهم ولما بقى روحك في بدنك من شدة وهج أبدانهم وحرارة أنفاسهم. فكيف بك أن نظرت الى نفسك فيها وأنت أحدهم، وقد زال من قلبك الأمل والرجاء ولزمه القنوط والاياس وعطفت على بدنك فتقحمت على الحدقتين فسمعت تفضيضهما نتقاماً وبدلاً من نظرك إلى مالا يحب ولا

---

(١) يترد.

(٢) يغانوا.

(٣) وجوهم.

يرضى، ودخلت النار في مسامعك فتسمع لها فيه قصيفاً وجبلة، والتحفت عليك فنفضت منك العظام ودوبت اللحام، واطلعت إلى الجوف فأكلت الكبد والأحشاء فغلبت على قلبك الحسرة[١] والندامة والتأسف.

فتوهم ذلك بعقل فارغ، وقد هاجت منه رحمة لضعفك وارجع عما يكره مولاك[٢] وترضى عسى أن يرضى عنك وأعذ به بعقلك واستقله يقللك عثرانك، وابك من خشيته عسى أن يرحمك ويقيل عثراتك، فان الخطر عظيم وان البدن ضعيف والموت منك قريب، والله جل جلاله مع ذلك مطلع يراك، وناظر لا يخفى[٣] عليه منك سر ولا علانية، فاحذر نظره[٤] بالمقت والبغضة والغضب والقلاء، وأنت لا تشعر فرحاً أو قرير العين، فاحذر الله عز وجل وخفه واستحي منه وأجله، ولا تستخف بنظره ولا تتهاون باطلاعه، وأجل مقامه عليك وعلمه بك وافرقه واخشه قبل أن يأخذك بغتة، ولير أثر مصيبة مخالفتك له ليعلم ما قد بلغ اليك خلافه، فان علم ذلك منك صفح عنك وعفى عنك، فلا تتعرض لله عز وجل فانه لا طاقة لك بغضبه ولا قوة لعذابه، ولا صبر لك على عقابه، ولا صبر عندك عن جواره فتدارك نفسك قبل لقائه، فكأنك بالموت قد نزل بك بغتة، الموت فكأن قد نزل[٥]... فتوهم ما وصفت لك فانما وصفت بعض الجمل، فتوهم ذلك بعقل فارغ موقن عارف بما قد جنيت على نفسك وما استوجبت بجناياتك، وفكر في مصيبتك في دينك، ولير الله عز وجل عليك أثر المصيبة لعله أن يرحمك فيتجاوز عنك لمغفرته وعصمته، فان كنت من أهل العفو والتجاوز فتوهم ان تفضل الله عز وجل عليك بالعفو والتجاوز ممرك على الصراط ونورك معك يسعى بين يديك وعن يمينك وكتابك بيمينك مبيض وجهك

---

(١) الحسرات.
(٢) في الهامش.
(٣) يخفا.
(٤) في الهامش.
(٥) ناقص في الأصل.

وقد فصلت من بين بدي الله عز وجل، وأيقنت برضاه عنك وأنت على الصراط مع زمر العابدين ووفود المتقين، والملائكة تنادي سلم سلم، والوجل مع ذلك لا يفارق قلبك ولا قلوب المؤمنين، تنادي وينادون: ﴿**ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا، انك على كل شيء قدير**﴾[1]، فتدبر حين رأوا المنافقين طفىء نورهم وهاج الوجل في قلوبهم فدعوا بتمام النور والمغفرة.

فتوهم نفسك وأنت تمر خفيفاً مع الوجل، فتوهم ممرك على قدر خفة أوزارك وثقلها، فتوهم نفسك وقد انتهيت إلى آخره فغلب على قلبك النجاة وعلا عليك الشفق، وقد عاينت نعيم الجنان وأنت على الصراط، فحق قلبك على جوار الله عز وجل واشتاق إلى رضا الله حتى اذا صرت إلى آخره خطوت بأحد رجليك إلى العرصة التي بين آخر الجسر وبين باب الجنة فوضعتها على العرصة التي بعد الصراط، وبقيت القدم الأخرى على الصراط، والخوف والرجاء قد اعتليا في قلبك وغلبا عليك، ثم ثنيت بالأخرى فجزت الصراط كله واستقرت قدماك على تلك العرصة، وزلت عن الجسر ببدنك، وخلفته وراء ظهرك، وجهنم تضطرب من تحت من يمر عليها، وتثب على من زل عنه مغتاظة تزفر عليه وتشهق اليه، ثم التفت إلى الجسر فنظرت اليه باضطرابه ونظرت إلى الخلائق من فوقه وإلى جهنم من تحته تثب وتزفر على الذين زلزلوا عن الصراط لها في رؤوسهم[2] وأنجاثهم قصيف، فطار قلبك فرحاً اذ رأيت عظيم ما نجاك الله منه، فحمدت الله وازددت له شكراً اذ نجوت بضعفك من النار وخلفت النار وجسرها من وراء ظهرك متوجهاً إلى جوار ربك، ثم خطوات آمناً إلى باب الجنة قد امتلأ قلبك[3] سروراً وفرحاً، فلا تزال في ممرك بالفرح والسرور حتى توافي أبوابها[4]، فاذا وافيت بابها[4] استقبلك بحسنه فنظرت إلى حسنه ونوره وحسن

---

(١) التحريم: ٨.

(٢) روسهم.

(٣) ناقص في الأصل.

(٤ ـ ٤) في الهامش.

صورة الجنة وجدرانها، وقلبك مستطير فرح مسرور متعلق بدخول الجنة حين وافيت بابها أنت وأولياء الرحمن. فتوهم نفسك في ذلك الموكب وهم أهل كرامة الله ورضوانه مبيضة وجوههم مشرقة برضا الله مسرورون فرحون مستبشرون، وقد وافيت باب الجنة بغبار قبرك، وحر المقام ووهج تعب[1] ما مر بك، فنظرت إلى العين التي[2] أعدها الله لأوليائه والى حسن مائها، فانغمست فيها مسروراً لما وجدت من برد مائها وطيبه، فوجدت له برداً وطيباً، فذهب عنك بحزن المقام وطهرك من كل دنس وغبار وأنت مسرور لما وجدت من طيب مائها لما باشرته وقد أفلت من وهج الصراط وحره لأنه قد يوافي بابها من أحرقت النار بعض جسده بلفحها وقد بلغت منه، فما ظنك وقد انفلت من حر المقام ووهج أنفاس الخلائق، ومن شدة توهج حر الصراط فوافيت باب الجنة بذلك، فلما نظرت إلى العين قذفت بنفسك فيها، فتوهم فرحة فؤادك لما باشر برد مائها بدنك بعد حر الصراط ووهج القيامة وأنت فرح لمعرفتك أنك إنما تغتسل لتتطهر لدخول الجنة والخلود فيها فأنت تغتسل منها دائباً ولونك[3] متغير حسناً وجسدك يزداد نضرة وبهجة ونعيماً، ثم تخرج منها في أحسن الصور وأتم النور، فتوهم فرح قلبك حين خرجت منها فنظرت إلى كمال جمالك ونضارة وجهك وحسنه وأنت عالم موقن بأنك تتنظف للدخول إلى جوار ربك. ثم تقصد إلى العين الأخرى فتناول من بعض آنيتها، فتوهم نظرك إلى حسن الاناء وإلى حسن الشراب وأنت مسرور بمعرفتك أنك انما تشرب هذا الشراب لتطهر جوفك من كل غل وجسدك ناعم أبداً، حتى اذا وضعت الإناء على فيك ثم شربته وجدت طعم شراب لم تذق مثله ولم تعود شربه فيسلس من فيك إلى جوفك فطار قلبك سروراً لما وجدت من لذته، ثم نقى جوفك من كل آفة، فوجدت لذة طهارة صدرك من كل طبع كان فيه ينازعه إلى

---

(١) في الهامش.

(٢) الذي.

(٣) ولونك.

الغموم والهموم والحرص والشدة والغضب والغل، فيا برد طهارة صـدرك، ويا روح ذلك على فؤادك، حتى اذا استكملت طهارة القلب والبدن واستكمل أحباء الله عز وجل ذلك معك، والله مطلع يراك ويراهم، أمر مـولاك الجواد المتحنن خزان الجنة من الملائكة الذين لم يزالوا مطيعين خـائفين منه مشفقين وجلين من عقابه اعظاماً له واجلالا وهيبة له وحذرا من نقمة، وأمرهم أن يفتحوا باب جنته لاوليائه فانحدروا من دارها وبادروا من ساحاتها وأتوا باب الجنة فمـدوا أيديهم ليفتحوا أبوابها، وأيقنت بذلك فطار قلبك سروراً وامتلأت فرحاً وسمعت حسن صرير أبوابها فعلاك السرور وغلب على فؤادك، فيا سرور قلوب المفتـوح لهم باب جنة رب العالمين، فلما فتح لهم بابها هاج نسيم طيب الجنان وطيب جرى مائها فنفح وجهك وجميع بدنك وثارت أراييح الجنة العبقة الطيبـة وهاج ريـح مسكها الأذفر وزعفرانها المونع وكافورها الأصفر وعنبرها الاشهب وأرياح طيب ثمارها وأشجارها وما فيها من نسيمها، فتداخلت تلك الأراييح في مشامك حتى وصلت إلى دماغك وصار طيبها في قلبك وفاض من جميع جوارحك، ونظرت بعينك إلى جسن قصورها وتأسيس بنيـانها من طـرائق الجندل الأخضـر[١] من الزمرد والياقوت الأحمر والدر الأبيض قد سطح منه نوره وبهـاؤه وصفاؤه، فقـد أكمله الله في الصفاء والنور ومازجه نور ما[٢] في الجنـان، ونظرت إلى حجب الله وفرح فؤادك لمعرفتك أنك إذا دخلتها فان لك فيها الزيادات والنظر إلى وجه ربك، فاجتمع طيب[٣] أراييح الجنة وحسن بهجة[٤] منظرها وطيب[٤] نسيمهـا وبرد جوها وذلك أول روح وطيب لا تنفيض فيه نفح وجهك.

فتوهم نفسك مسروراً بالدخول لعلمك أنها يفتح بابها لـك والذين معـك أولياء الله وفرحك بما تنظر اليه من حسن بهجتها وما وصل إلى فؤادك من طيب رائحتها وما باشر وجهك وبدنك من طيب جوها وبرد نسيمها. فتوهـم نفسك أن

---

(١) الأحمر.

(٢) نورما.

(٣) في الهامش.

(٤ ـ ٤) منظر طيب.

تفضل الله عليك بهذه الهيئة فلو مت فرحاً لكـان ذلك يحق لـك حتى اذا فتحوا بـابها أقبلوا عليـك ضاحكين في وجهـك ووجـوه أوليـاء الله معـك، ثم رفعـوا أصـواتهم يحلفون بعـزه ما ضحكنـا قط منذ خلقنـا الا اليكم، ونادوكم سـلام عليكم، فتوهم حسن نغماتهم وطيب كلامهم وحسن تسليمهم في كمال صورهم وشدة نورهم، ثم أتبعوا السلام بقولهم: ﴿**طبتم فادخلوها خـلدين**﴾[1]، فأثنـوا عليهم بالطيب والتهذيب من كل دنس ودرن وغـل وغش، وكل آفـة في دين أو دنيا، ثم أذنوا لهم على الله بالدخول في جواره، ثم أخبروهم أنهم باقـون فيها أبداً، فقالوا طبتم فادخلوها خالدين، فلما سمعت الاذن وأولياء الله معك بادرتم الباب بالدخول فكظت الأبواب من الزحام ـ كما قال عتبة بن غزوان وكمـا قال النبي ﷺ: «**لا نقصـاً فهم على باب الجنـة أهم إلى من شفـاعتي**». فكظ من الزحام ـ فما ظنك بباب مسيرة أربعين عاماً كظيظه من زحام أولياء الرحمن فأكرم بهم من مزدحمين مبادرين إلى ما قد عاينوا من حسن القصور من الياقوت والدر. فتوهم نفسك أن عفا[2] الله عنك في تلك الزحمة مبادراً مع مبادرين مسروراً مع مسرورين بأبدان قد طهرت ووجوه قد اشرقت وأنارت فهي كالبدر، قد سطع من أعراضهم كشعاع الشمس، فلما جاوزت بابها وضعت قدميك على تربتها وهي مسـك أذفر ونبت الـزعفران المـونـع والمسـك مصبـوب على أرض من فضـة والزعفران نابت حولها فذلك أول خطوة خطوتها في أرض البقـاء بالأمن من[3] العذاب والموت، فأنت تتخطى في تـرب المسك وريـاض الزعفـران، وعيناك ترمقان حسن بهجة الدر من حسن أشجارها وزينة تصويرها، فبينا أنت تتخطى في عرصات الجنان في رياض الزعفران وكثبـان المسك اذ نـودي في أزواجك وولدانك وخدامك وغلمانك وقهارمتك: «ان فلانا قد أقبل فـأجابـوا واستبشروا لقدومك كما يبشر أهل الغائب في الدنيا بقدومه» ـ كما قال على بن أبي طالب

---

(١) الزمر: ٧٣.

(٢) عفى.

(٣) في الهامش.

رضي الله عنه ـ فبينما أنت تنظر إلى قصورك اذ سمعت جلبتهم وتبشيشهم فاستطرت لذلك فرحاً، فبينما أنت فرق مسرور[1] بغبطتهم لقدومك لما سمعت اجلابهم فرحاً بك اذ ابتدرت القهارمة اليك وقامت الولدان صفوفاً لقدومك، فبينما أتت القهارمة مقبلة[2] اليك اذ استخف أزواجك للعجلة فبعثت كل واحدة منهن بعض خدمها لينظر اليك مقبلاً ويسرع بالرجوع اليها بقدومك لتطمئن اليه فرحاً وتسكن إلى ذلك سروراً فنظر إليك الخدم قبل أن تلقاك قهارمتك، ثم بادر رسول كل واحدة منهن إليها فلما أخبرها بقدومك قالت كل واحدة منهن لرسولها أنت رأيته من شدة فرحها بذلك ثم أرسلت كل واحدة منهن رسولاً آخر فلما جاءت البشارات بقدومك إليهن لم يتمالكن فرحاً فأردن الخروج إليك مبادرات إلى لقائك لولا أن الله كتب القصر لهن في الخيام إلى قدومك كما قال مليكك: ﴿**حور مقصورت في الخيام**﴾[3]، فوضعن أيديهن على عضائد أبوابهن وأذرعن برؤوسهن[4] ينظرن متى تبدو[5] لهن صفحة وجهك فيسكن طول حنينهن وشدة شوقهن اليك وينظرن إلى قرير أعينهن ومعدن راحتهن وأنسهن إلى ولي ربهن وحبيب مولاهن، فبينا أنت ترفل في كثبان المسك ورياض الزعفران وقد رميت ببصرك إلى حسن بهجة قصورك إذ استقبلك قهارمتك بنورهم وبهائهم فاستقبلك أول قهرمان لك فأعظمت شأنه وظننت أنه من ملائكة ربك فقال لك: يا ولي الله انما أنا قهرمانك وكلت بأمرك ولك سبعون ألف قهرمان سواى، ثم تتابعه القهارمة ببهائهم ونورهم كل يعظمك ويسلم عليك بالتعظيم لك.

فتوهم قلبك في الجنان وقد قامت بين يديك قهارمتك معظمين لك ثم الوصفاء والخدام فاستقبلوا كأنهم اللؤلؤ المكنون فسلموا عليك، ثم أقبلوا بين يديك، فتوهم تبخترك في موكب من قهارمتك وخدامك يزفونك زفاً إلى قصورك

---

(١) فرقا مسرورا.
(٢) مقلة.
(٣) الرحمن: ٧٢.
(٤) بروسهن.
(٥) تبدوا.

وما أعد لك مولاك ومليكك، فلما أتيت بـاب قصرك فتحت الحجـاب أبوابـك ورفعت لك الستور وهم قيام على أقدامهم لك معظمين، فتوهم ما عاينت حين فتحت أبواب قصورك ورفعت ستـوره من حسن بهجة مقـاصيره وزينـة أشجاره وحسن رياضه وتلألؤ صحنه ونور ساحاته، فبينـا أنت تنظر إلى ذلـك اذ بادرت البشرى من خدامـك ينادون أزواجـك: هذا فـلان بن فلان قـد دخل من بـاب قصره، فلما سمعن نداء البشراء بقدومك ودخولك توثبن من الفرش على الأسرة في الحجال وعينك ناظرة اليهن في جوف الخيام والقباب فنظرت إلى وثـوبهن مستعجـلات قد استخفهن الفـرح والشـوق إلى رؤيتـك، فتـوهم تلك الأبـدان الرخيمة الرعبوبة الخريدة الناعمة يتوثبن بالتهادي والتبختـر، فتوهم كـل واحدة منهن حين وثبت في حسن حللها وحليتها بصباحة وجهها، وتثني بدنها بنعمته، فتوهم انحدارها مسرعة بكمال بدنها نازلة عن سريرهـا إلى صحن قبتها وقـرار خيمتهـا فوثبن حتى أتين أبـواب خيامهن وقبـابهن، ثم أخذن بـأيديهن عضـائد أبواب خيامهن للقصر الذي ضرب عليهن إلى قدومـك فقمن آخذات بعضـائد أبـوابهن، ثم خـرجن بـرؤوسهن[1] ووجـوهن[2] ينحـدرن من أبـواب قبـابهن متطلعات ينظرن إليك مقبلات قد ملئن منك فرحاً وسروراً.

فتوهم نفسك بسرور قلبك وفرحه وقد رمقتهن ببصرك ووقع ناظـرك على حسن وجـوههن وغنج أعينهن فلمـا قابلت وجـوههن حار طـرفك وهـاج قلبك بالسرور فبقيت كالمبهوت الذاهل من عظيم ما هاج في قلبك من سرور ما رأت عيناك وسكنت اليه نفسك، فبينما أنت ترفل اليهن اذ دنـوت من أبواب الخيـام فأسرعن مبادرات قد استخفهن العشق مسرعات يتثنين من نعيم الأبدان ويتهادون من كمال الأجسام ثم نادتك كل واحدة منهن: يا حبيبي ما أبطأك علينا؟ فأجبتها

---

(١) بروسهن. (٢) ووجوهن.

بأن قلت: يا حبيبة ما زال الله عز وجل يوقفني على ذنب كذا وكذا حتى خشيت أن لا أصل اليكن فمشين نحوك في السندس والحرير يثرن المسك ويحركن نبت الزعفران بأذيال حللهن وخلاخيلهن استعجالاً اليك وشوقاً وعشقاً لك، فأول من تقدمت منهن[1] اليك مدت اليك بنانها ومعصمها وخاتمها كما قال النبي عليه السلام، فتوهم حسن بنان أنشىء من الزعفران والكافور، ونعم في الجنان الألف من الدهور، فتوهمه حين مدته اليك يتلألأ نوراً ويضيء اشراقاً، فلما وضعت بنانها في بنانك وجدت مجسة لينة بنعيمه وكاد أن ينسل من يديك للينه، وكاد[2] عقلك أن يزول فرحاً بما وصل إلى قلبك من طيب مسيس بنانها، ثم مدت يدك إلى جسمها الرخيم الناعم فضمتك إلى نحرها فانثنيت عليها بكفك وساعدك حتى وضعته على قلائدها من حلقها، ثم ضممتها اليك وضمتك اليها، فتوهم نعيم بدنها لما ضمتك اليها كاد أن يداخل بدنك بدنها من لينه ونعيمه، فتوهم ما باشر صدرك من حسن نهودها ولذة معانقتها، ثم شممت طيب عوارضها فذهب قلبك من كل شيء سواها حتى غرق في السرور وامتلأ فرحاً لما وصل إلى روحك من طيب مسيسها ولذة روائح عوارضها، فبينا أنت كذلك إذ تمايعن عليك فانكببن عليك يلثمنك ويعانقنك فملأن وجهك بأفواههن ملتثمات وملأن صدرك بنهودهن فأحدقن بك بحسن وجوههن وغطين بدنك وجللنه بذوائبهن واستجمعت في مشامك أراييح طيب عوارضهن، فتوهم نفسك وهن عليك منكبات بفيك ملتثمات متشممات عليك متثنيات بنعيم أبدانهن، لهن استراحة عند ضمك اليهن لشدة العشق وطول الشوق اليك متشبثات بجسمك ومتنعمات بنسيم أراييح عوارضك، فلما استمكنت خفة السرور من قلبك وعمت لذة الفرح جميع بدنك وموعد الله عز وجل في سرورك فناديت بالحمد لله الذي صدقك الوعد وأنجز لك الموعد، ثم ذكرت طلبك إلى

---

(١) تقدمتهن. (٢) كاد.

ربك اياهن بالدؤوب[١] والتشمير، فأين أنت في عاقبة ذلك العمل الذي استقبلته وأنت تلتثمهن وتشم عوارضهن ﴿لمثل هذا فليعمل العٰملون﴾[٢]، ثم أثنين عليك وأثنيت عليهن، ثم رفعن أصواتهن ليؤمنك بذلك من المعرفة لهن بحوادث الأزمان وتنغيض عيشك بأخلاقهن فنادين جميعاً بأصواتهن نحن الراضيات فلا نسخط أبداً، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً، ونحن الخالدات فلا نبيد أبداً، ونحن الناعمات فلا نبؤس أبداً، طوباك أنت لنا ونحن لك، ثم مضيت معهن فيا حسن منظرك وأنت في موكبك من حورك وولدانك وخدامك، حتى انتهيت إلى بعض خيامك فنظرت إلى خيمة من درة مجوفة مفصصة بالياقوت والزمرد فنظرت إلى حسن أبوابها وبهجة ستورها، ثم رميت ببصرك إلى داخلها فنظرت إلى فرشها ونجدها وزرابيها وحسن تأسيس بنيانها[٣] قد بنيت[٣] طرائق على جنادل الدر والياقوت، ثم نظرت إلى سريرك في ارتفاعه وعليه فرشه، من الحرير والاستبرق بطائنهن، قد علا ظواهرهن من النور المتكثف وعلى أطرافهن من فوق الحرير والديباج وحسن الرفرف الأخضر وهي فصول المجالس، فلما تأملت تلك الفرش بحسنها وفوقها المرافق قد ثنتها حار طرفك فيها، ثم نظرت إلى حجلتها من فوق سريرها قد أحدقت بالعرش من فوقها.

فتوهم حسن الأبواب وحسن الستور وحسن[٤] عرصة القبة بحسن فرشها وحسن السرير وحسن قوائمه وارتفاعه وحسن الفرش فوقه والمرافق فوق فرشه والحجلة المضروبة من فوق ذلك كله فتماثل[٥] ذلك كله ببصرك، فلما دنوت من فرشك تطأمنت مع سريرك فارتفعت الحوراء وارتقيت معها. فتوهم صعودها عليه بعظيم بدنها ونعيمه حتى استوت عليه جالسة، ثم ارتقيت على السرير

---

(١) بالدوب.
(٢) الصافات: ٦١.
(٣ - ٣) في الهامش.
(٤) في الهامش.
(٥) فتمالت.

فاستويت عليه معها فقابلتك وأنت مقابلها، فيا حسن منظرك اليها جالسة في حللها وحليها بصباحة وجهها ونعيم جسمها! الأساور في معاصمها والخواتم في أكفها والخلاخيل في أسواقها والحقاب في حقوقها والوشاح قد تنظر نهديها وجال بخصرها والقلائد في عنقها والشحب على نحرها والأكاليل من الدر والياقوت على قصتها وجبينها والتاج من فوق ذلك على رأسها والذوائب من تحت التاج قد حل من مناكبها وبلغ أردافها وأنعالها، ترى[1] وجهك في نحرها وهي تنظر إلى وجهها في نحرك، وقد أحدق الولدان بقبتك وقد قام الوهط بين يديك ويديها، وقد تدلت[2] الأشجار بثمارها من جوانب حجلتك واطردت الأنهار حول قصرك واستعلى[3] الجداول على خيمتك بالخمر والعسل واللبن والسلسبيل وقد كمل حسنك وحسنها وأنت لابس الحرير والسندس وأساور الذهب واللؤلؤ على كل مفصل من مفاصلك، وتاج الدر والياقوت منتصب فوق رأسك، وأكاليل الدر مفصصة بالنور على جبينك، وقد أضاءت الجنة وجميع قصورك من اشراق بدنك ونور وجهك وأنت تعاين من صفاء قصورك جميع أزواجك وخدمك وجميع أبنية مقاصيرك، وقد تدلت عليك ثمار أشجارك واطردت أنهارك من الخمر واللبن من تحتك والماء والعسل من فوقك وأنت جالس مع زوجاتك على أريكتك، وقد فتحت مصاريع أبوابك وأرخيت عليك حجال خيمتك وحفت[4] الخدام والولدان بقبتك وسمعت زجلهم بالتقديس لربك، وقد اطلعوا على ضمير قلبك فسارعوا إلى كل ما حدثت به نفسك من أنواع كرامتك وسرورك وأمانيك فأتوك بكل أمنيتك، وأنت وزوجك بأكمل الهيئة وأتم النعمة، وقد حار فيها طرفك تنظر اليها متعجباً من جمالها وكمالها طرب قلبك لملاحتها وأنس قلبك بها من حسنها، فهي منادمة لك على أريكتك تنازعك وتعاطيك الخمر

---

(١) ترا.

(٢) تدللت.

(٣) واستعلا.

(٤) وخفت.

والسلسبيل والتنسيم في كأسات الدر وأكاويب قوارير الفضة. فتوهم الكأس من الياقوت والدر في بنانها، وقد قربت اليك ضاحكة بحسن ثغرها فسطع نور بنانها في الشراب مع نور وجهها ونحرها ونور الجنان ونور وجهك وأنت مقابلها، واجتمع في الكأس الذي في بنانها نور الكأس ونور الشراب ونور وجهها ونور نحرها ونور ثغرها، فما ظنك بذوائب شاب أمرد كامل الخلق، أنور الوجه، أبيض الجسم، أنضر الثياب أصفر الحلى من ذهب الجنان يشوبه حمرة الياقوت وبياض الدر وحسن العقيان، فيا لك عروس ويا تلك عروس طفلة أنيسة عربوبة كامل خلقها، ويا جمال وجهها، ويا بياض نهودها وتثنى جسمعها، يكسوها التأنيث ويلينها النعيم تنظر إليك بغنج الحور وتكلمك بملاحة المنطق وتداعبك بالدلائل وتلاعبك بالعشق والطرق، بيدها كأس در لا ظل له أو ياقوت لا شبه له من صفائه ورقة جسمه، قد جملته بحسن كفها وزميرتها ونور خواتهما فيه.

فتوهم حسن الكأس مع بياضه مع بياض الشراب مع بياض كفيها وحسنه، فتوهم كأس الدر والياقوت أو الفضة في صفاء ذلك في بنانها الكامل، وقد اقتربت اليك ضاحكة بحسن ثغرها وسطع نور بنانها في الشراب مع نور وجهها ونحرها وأنت مقابلها فضحكت أيضاً إليها فاجتمع في الكأس الذي في بنانها نورك مع نورها مع نور الكأس ونور الشراب ونور وجهها ونور نحرها ونور ثغرها ونور الجنان، فتوهمه بهذه الأنوار في ضيائه يلمع بصفائه في كفها، وقد مدت به اليك يدها بخواتمها وأساورها في معاصمها فناولتك الكأس بكفها، فيا حسن مناولتها ويا حسنها من يد، ثم تعاطتك[1] كأسات الخمر في دار الأمن واللذات والسرور، فتناولته منها ثم وضعته على فيك ثم سلسلته في فيك، فسار سروره في قلبك وعمت لذته جوارحك فوجدت منه طعماً أطيب طعماً وألذه فشربته والولدان قيام بين يديك. فتوهم ذلك وقد شربت الكأس من يدها، ثم ناولتها من

---

(١) تعاطيتك.

يدك فتناولته بحسن كفها وهي ضاحكة، فيا حسن مضحكها فشربته من يدك حتى اذا تعاطيتها الكأس ودار فيما بينكما وشاع نور الشراب في وجنتيها ورفعتما أصواتكما بالتحميد والتقديس لمولاكما وسيدكما ورفعت الولدان والخدام أصواتهم تسبيحاً وتهليلاً مجاوبة لكما فيا حسن تلك الأصوات بتلك النغمات في تلك القصور وتلك الخيمات.

فبينما أنتما في لذاتكما وسروركما وقد مضت الأحقاب من الدهور وما تشعران من اشتغال قلوبكما بنعيمكما اذ هجمت الملائكة بالسلام عليك وأتتك بالتحف والألطاف من عند ربك حتى اذا انتهت رسل ربك إلى الحجبة الذين دونك والقهارمة الموكلين بك فطلبوا اليهم الاذن عليك ليوصلوا ما أتوا به من عند مولاك اليك فقالت عند ذلك حجبتك لملائكة ربك: ان ولى الله مشغول مع أزواجه وانا لنكره الاذن عليه اعظاماً واجلالاً له، وكذلك يقول الله ربك تبارك وتعالى: وبذلك جاء التفسير ﴿في شغل فكهون﴾[1] فأعظم به من شغل وأعظم بك من ملك تستأذن عليك رسل ربك، ﴿وإذا رأيت وكذلك يقول الرافع قدر أوليائه في جواره تبارك وتعالى: ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾[2] فقيل في التفسير: ان ذلك استئذان الملائكة عليهم فقيل له رسول الله بالباب يا ولي الله لا يدخل عليك[3] الا باذن يا ولي الله فقد نلت من الله الرضا وبلغت غاية الملك والمنى[4].

فتوهم الملائكة وهي قائلة حين أبت حجابك أن تستأذن لهم عليك: انا رسل الله اليه بهدايا وتحف من عند ربه. فوثبت عند ذلك حجابك تستأذن لهم عليك. فتوهم أيدي الحجاب وقد مدوا بها إلى حلق الياقوت المفصص بالدر على صفائح الذهب الأحمر فقرعوا حلق أبواب قصرك، فلما اصطك حلق

---

(١) يس: ٥٥.
(٢) الإنسان: ٢٠.
(٣) عليه.
(٤) والمنا.

الياقوت بأبواب قصرك من الدر والزمرد طنت الحلق على الأبواب بأحسن طنين تلذ بـه الأسماع وتسـر[1] به قلوب المستمعين، فلمـا سمعت الأشجار طنينهـا تمايلت ثمارهـا على بعضها بعضـاً فهبت بذلـك أراييح طيبهـا ونسيمها، ثم[2] أشرقت من قبتك بجمال وجهك واشـراق نورك فبادرت الحجبة اليـك بالقـول مسرعة وهي مع ذلك غاضة أبصارها تعظيماً لك، ولما رمق أبصارهم من اشراق نور وجهك: أن يا ولي الله رسل الله اليك بالباب ومعهم التحف من عند ربك، فرجعت اليهم بالجواب: أن أذنوا لرسل مولاى، ففتحت الحجبة عند اذنك لهم أبواب قصرك وأنت متكىء، فدخلوا على أريكتك والولدان قد صفوا بين يديك فأقبلت الملائكة بحسن صورهم والهدايا تلمع وتسطع نـوراً في أيديهم، فـدخلوا عليك من أبواب متفرقة لينجز لك ربك ما وعـدك من كل بـاب سلام عليـك، فبادروا بالسلام عليكم بحسن نغماتهم من كل أبوابك، ثم أتبعوا تسليمهم: يا ولي الله ان ربك يقول عليك السلام، وقد أرسل اليك بهذه الهدايا والتحف.

فتوهم سرور قلبك بتحف ربك ولطفه[3] اياك، حتى اذا خرجوا من عندك أقبلت على نعمتك مع زوجتك قد حار فيها طرفك واشتد لها سرورك، فبينا أنت معها في غاية السرور والحبور اذ أتى[4] النداء بأحسن نغمة وأحلى[5] كلام من بعض ما أعد الله من أزواجك: يا ولي الله أما لنا منك دولة؟ أما آن لك أن تنظر الينا؟ فلما امتلأت[6] مسامعك من حسن كلامها طار قلبك عشقاً لحسن نغمتها فأجبتها[7]: ومن أنت بارك الله فيك؟ فردت الجواب اليك: أنا من اللواتي قال الله عز وجل: ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين**﴾[8] فتوهم وثوبك من

---

(١) وتشر.
(٢) ناقص في الأصل.
(٣) ولفظه.
(٤) أتا.
(٥) وأحلا.
(٦) امتلت.
(٧) أجبتها.
(٨) السجدة: ١٧.

سـريرك إلى صحن قبتـك، ثم مشيت مع ولـدانك وخـدمك وقـرن[1] ولدانهـا وخدامها يستقبلونك واستقبلوك ومشوا بين يديك حتى أتيت قبة من ياقوتة حمراء في قصر من در وياقوت، فلما دنوت من باب قصرها قامت قهارمتك وخدامـك رافعي ستـور قصرك فـدخلته ممتلئـاً سروراً. فتـوهم باب القصـر وحسن الستر وحسن الحجاب والقهارمة والخدام، ثم دخلت من باب قصرك الذي نادتك منه زوجتـك، فلما دخلت من بـابه وقـع بصـرك على حسن جـدرانـه من الـزمـرد الأخضر، وحسن رياضه، وبهجة بنائه، واشـراق عرصـاته، ونـظرت إلى قبتك التي فيها زوجتك يتلألأ نور القبة نوراً وضـوءاً واشراقـاً بنور وجهـك ونور وجـه زوجتك، فلما نظرت اليك نظرت من فرش الحرير والاستبرق والأرجوان فنزلت عن سريرها مبادرة قد استخفها شـدة الشوق اليـك وأزعجها العشق فاستقبلتك بالترحيب والتبجيل ثم عطفت عليك لمعانقتك ـ وكذلك روى أنس بـن مالـك عن النبي ﷺ ان الحوراء تستقبل ولي الله فتصـافحه ـ فتـوهم مجسة لين كفهـا بحسنها وخواتمها في كفك، وقد شخصت كالمبهـوت تعجباً من حسن وجههـا ونعيم جسمها وتلألؤ[2] النـور من عوارضهـا، ثم وضعت كفها في كفـك حتى أتيتما سريرك مضروبة عليه أريكتك فـارتقيتمـا جميعاً على أريكتـك واستدلت عليك جلال حجلتك وعانقت على فرشها زوجتك فمضت بك الأزمنة الطويلة، ثم أقبلت الولدان[3] بالكاسـات والأكواب فـاصطفت قبـالتكما، ثم أدرتمـا الكأس فيما بينكما، فبينا أنتما قد ملئتما فـرحاً وسـروراً اذ نادتـك أخرى من قصـر من قصورك: يا ولي الله أما لنا منك دولة؟ أما آن لك أن تشتاق الينا؟ فأجبتها: ومن أنت بـارك الله فيك؟ فـرجعت اليك القـول أنا من اللواتي قـال الله عز وجـل: ﴿ولدينا مـزيد﴾[4]، فتحـولت اليها وأنت تنتقـل فيما بين أزواجـك في قصورك

---

(١) وثرن.
(٢) وتلالى.
(٣) في الهامش.
(٤) سورة ق: ٣٥.

وخدامك وولدانك في غاية النعيم وكمال السرور، وقد زحزحت عنك كل آفة، وأزيل عنك كل نقص، وطهرت من كل دنس، وأمنت فيها الفراق، لأن الله تعالى قد قصد قلبك فقال للهموم زولي عنه فلا تخطري له أبداً، وقال للسرور تمكن فيه فلا تزول منه[1] أبداً، وقال للأسقام زولي عن جسمه فلا تعرضي[2] له أبداً، وقال للصحة أقيمي في بدنه فلا تبرحي أبداً، وذبح الموت وأنت تنظر إليه فأمنت الموت فلا تخافه أبداً، ولا زوال ترتقبه ولا سقم يعتريك أبداً، ولا موت يعرض لك أبداً، قد منحت جوار ربك ترفل في أذيالك لا تخاف سخطه أبداً بعد رضاه[3] عنك، فلا تخاف نقمه فيما تنقلب (فيه) من نعيمه، وأنت عالم بأن الله عز وجل محب لك مسرور بك وبما تتقلب فيه من سرورك، فأعظم بدار الله داراً، وأعظم بجوار الله جواراً[4]، فالعرش قد أظلك بظله، والملائكة تختلف اليك بالألطاف من عند ربك في حياة لا يزيلها موت، ونعيم لا تخاف له فوتاً، آمنا من عذاب ربك، قد أيقنت برضاه[5] عنك، ووجدت برد عفوه في قلبك مقيماً دائماً في الخلود مع الأمان[6] لنوائب الدهر وحوادث الأزمان لك[6] ولجميع أوليائه، متحدثاً بجمعهم تحت ظل طوبى[7]، فبينا أولياؤه وأنت فيهم تحت ظل طوبى يتحدثون اذ أمر الله منادياً من ملائكته فنادى[8] أولياءه لينجز لأوليائه ما وعدهم من غاية كرامته وعظيم مسرته بأن يقربهم منه ويناجيهم بترحيبه ويريهم وجهه الكريم ليبلغوا بذلك أشرف المنازل وغاية السرور ومنتهى الرغبة، فلم تشعر الا ونداء الملك: أن يا أهل الجنة ان لكم عند الله لموعداً لم تروه، فيرجعون اليه القول استعظاماً لما أعطوا، فان لا عطية فوق ما أعطوا بعد ذلك، أدخلوا في جواره وأمنوا من عذابه وأنت قائلها معهم: ألم ينظر وجوهنا، ألم يدخلنا الجنة، ألم يزحزحنا عن النار، فناداهم أن

---

(١) منه.
(٢) تعرض.
(٣) رضايه.
(٤) جوار.
(٥) برضايه.
(٦-٦) في الهامش.
(٧) طوبا.
(٨) فنادا.

الله يستزيركم فزوروه، فبينما هم كذلك وقد كادت قلوبهم أن تطير بأرواحهم في أبـدانهم فرحـاً وسروراً، اذ أقبلت المـلائكة يقـودون نجـائب بخت خلقت من اليـاقوت، ثم نفـخ فيها الـروح مزمـومـة بسـلاسـل من ذهب، كـأن وجـوههم المصابيح نضارة وحسنا، لا تروث ولا تبول• ذوات أجنحة، قد علاها خـز من خز الجنة أحمر، ومرعز من مرعزها أبيض مشرق في بياضه، على ظهرها خطان حمرة في بياض على هيئة وتر النجائب في الدنيـا، لم ينظر الخـلائق الى مثله وحسن لونه.

فتوهم حسن تلك النجائب وحسن صورها، نجائب من ياقوت الجنة في حمرته وصفائه واشـراق نوره وتـلألؤه حين يمشي في تحركـه فتوهمهـا بحسنها وحسن وجوه الملائكـة وحسن أزمتها بسـلاسل من ذهب الجنـان وهي تقودهـا وتقبل بها إلى أولياء الله وأنت فيهم معتدلة في خببها بحسن سيرها لأنهـا نجب خلقت على حسن السير من غير تعليم من العباد، فهي نجب من غير رياضة، ذلل بسلاسلها منقادة من غير مهنة، فتوهم اقبال الملائكة بها اليهم حتى اذا دنوا من أوليائه أناخوها، فتوهم بروكها في حسنهـا وهيئة خلقهـا وقلبك عـارف أنك ستركب بعضها إلى ربك منطلقاً في الزائرين[1] له، فلما أنـاخوها فبركت على كثبـان المسك من ريـاض الزعفـران تحت طـوبى ومسـتـراح العـابـدين أقبلت الملائكة على أولياء الله فقالوا بحسن نغماتهم: يا أولياء الـرحمن ان الله ربكم يقـريكم السلام ويسـتزيركم فـزوروه لينـظر اليكم وتنـظروا اليـه، ويكلمكم وتكلموه، ويجيبكـم وتجيبوه[2] ويزيدكم من فضله ورحمته، انه ذو رحمة واسعة وفضل عظيم. فلما سمعها أولياء الله وسمعتها معهم وثبوا مسارعين إلى ركوبها حباً وشوقاً إلى ربهم، فتوهم سرعة توثبهم وأنت معهم بحسن وجوههم ونورها واشراقها سـروراً بقرب ربهم ورؤيـة حبيبهم، فتوهم هيبتهم حين رفعـوا أيمان أرجلهم إلى ركب اليـاقوت والـزمرد والـدر، فتوهم حسن أقـدامهم ونعيمهـا،

---

(١) الزارين. (٢) وتحيوه.

انها[1] أقدام غيرت عن خلقها فأكسيت في الحسن بخلاف ما كانت عليه في دار الدنيا، ثم أكنها الله في جنته من كل آفة فغير خلقتها متخضبة، لها أحقاب الدهور في كثبان المسك ورياض الزعفران، فتوهم حسن نورها وقد رفعها أولياء الله إلى ركب الياقوت والدر، فتوهمها بحسنها في أحسن ركب نجائب الجنان، ثم ثنوا من غير عنف ولا مشقة حتى استووا على رحائل من الدر والياقوت مفضضة بالعبقرى والأرجوان، فيا حسن بياض الدر في حمرة الأرجوان، فلما استووا عليها واستويت على نجيبك معهم أثاروا نجائبهم فثارت، فثار عجاج المسك لوثوبها علا[2] ذلك ثيابهم وجمامهم، ثم استوت النجائب صفاً واحداً معتدلاً فصاروا موكباً معتدلاً لا عوج فيه، ولا يتقدم بعضها بعضاً، فأعظم به من موكب وأعظم به من ركبان، فتوهم امتداد صفهم في اعتداله واصطفاف وجوههم معتدلة في اصطفافها، وعلى جباههم الأكاليل، من فوق رؤوسهم[3] تيجان من الدر والياقوت، فما ظنك باجتماع وجوه أهل الجنان كلها، عليهم الأكاليل والتيجان مصطفة متحاذية، فما ظنك بأكثر من ألف ألف ألف ألف، وما تقدر القلوب على احصاء عدده من تيجان الدر والياقوت مطنطنة على وجوههم نضرة ضاحكة فرحة مستبشرة. فلو توهمت هذا الموكب بنجائبه واعتدال ركبانه واصطفاف تيجانه على وجوه أولياء الله المشرقة الناعمة من تحته، ثم رهقت نفسك اشتياقاً لكنت لذلك حقيقاً، ولكنت به حرياً ان عقلت ذلك شوقاً من قلبك بايقان بانجاز من موعد ربك لذلك لأوليائه، فلما اعتدل الصف واصطفت التيجان تبادروا بينهم: سيروا إلى ربنا.

فتوهم النجائب حين أخذت في السير بأخفاف من الياقوت سيراً واحداً بخط واحد[4] لا يتقدم بعضها بعضاً، تهتز أجسام أولياء الله عليها من نعيمها

---

(1) في الهامش.

(2) على.

(3) روسهم.

(4) بخطا.

وأكتافهم متحاذية في سيرهم وأخفاف رواحلهم وركبها متحاذية في خببها، فانطلقوا كذلك تثير رواحلهم المسك بأخفافها، وتهتز رياض الزعفران بأرجلها، فلما دنوا من أشجار الجنة رمت الأشجار اليهم من ثمارها فصارت الثمار وهم يسيرون في أيديهم. فيا حسن تلك في أكفهم، وتزحزحت وتنحت الأشجار عن طريقهم لما ألهمها مولاها أن لا يتثلم صفهم فيتعوج بعد استوائه، ويختلف بعد اعتداله، ويفرق بين ولي الله ورفيقه لأنهم رفقاء في الجنان لتحابهم في الدنيا في ربهم، فالرفقاء مشهورون كل رفيقين قد شهرا بالمرافقة، وجعل زيهما ولباسهما لوناً واحداً، ولون رواحلهما[1] لوناً واحداً.

فتوهم نفسك اذ من عليك ربك وأنت لاصق برفيقك منكبك بمنكبه، وقد دنوتما من أشجار الجنة فنفضت ثمرها فوقعت الثمار في أيديكما[2] وأيدي أولياء الرحمن، ثم تنحت بأصولها عن طريقهم فهم يسيرون فرحين، وقد شخصت قلوبهم بالتعلق إلى نظر حبيبهم فهم يسيرون بالسرور ويلتفت بعضهم إلى بعض يتحادثون ويضحك بعضهم إلى بعض، يتداعبون في سيرهم، يحمدون ربهم على ما صدقهم على ما أباح لهم من جواره، فبينا هم في سيرهم اذ دنوا من عرش ربهم وعاينوا أحسن حجبه ونوره واستحثوا السير شوقاً وحباً وفرحاً به. فتوهم نجائبهم تطير في سيرها باعتدال موكبهم واشراق وجوههم والملائكة قد أحدقت بالنجائب تزفهم زفاً إلى ربهم حتى انتهوا إلى فحصة عرش مولاهم، فتوهم سعة تلك الفحصة وحسن نورها ببهجتها وزهرتها،وقد وضعت الزرابى والنمارق على كثبان المسك، عرف كل فتى[3] منهم ما أعد له، والكراسي لأهل صفوته من عباده، وأحبائه من خلقه، لما دنوا إلى ما أعد لهم من المنابر والكراسي والزرابي والنمارق، فثنى رجله الحسنة من الركاب إلى منبر أو كرسي أو زربة، فتوهم ثنيهم أرجلهم إلى كراسيهم، حتى استووا عليها،

(١) رواحلهم.

(٢) أيديكم.

(٣) فتا.

فتوهم نعيم تلك الأفخاذ والأوراك المرتفعة على الكراسي بالدر والياقوت فأعظم به من مقعد وأعظم بولي الله متربعاً. فلما أخذ القوم مجالسهم واطمأنوا في مقعدهم والحجب تسطع نورها فيا لذة أعينهم، وقد أصغوا بمسامعهم منتظرين لاستماع الكلام من[1] حبيبهم، فتوهمهم في مقعدهم الصدق الذي وعدهم مولاهم ومليكهم في القرب منه على قدر[2] منازلهم، فهم في القرب منه على قدر[2] مراتبهم، فالمحبون له أقربهم اليه قرباً اذ كانوا له في الدنيا أشد حباً، وأقرب إلى عرشه منهم القائمون بحجته عند خلقه، ثم الأنبياء عليهم السلام ثم الصديقون على قدر ذلك في القرب من العزيز الرحيم، فأعظم به من مزور، وجل وتكبر من مزور.

فتوهم مجلسهم بحسن كرامتهم وجمال وجوههم[3] واشراقها لما رهقها نور عرشه عز وجل واشراق حجبه[4] فلو صح لك عقلك ثم توهمت مجلسهم واشراق كراسيهم ومنابرهم وما ينتظرون من رؤية ربهم، ثم طار روحك شوقاً اليه لكنت بذلك حقيقاً. فلما عظم ذلك عند عاقل عن الله، مشتاق إلى ربه ورؤيته، فتوهم ذلك بعقل فارغ لعل نفسك أن تسخى[5] بقطع كل قاطع يقطعك عنه، وترك كل سبب يشغلك عن التقرب فيه إلى ربك. فلما استوى بهم المجلس واطمأن بهم المقعد وضعت لهم الموائد ليكرم الله عز وجل زواره بالاطعام والتفكيه لهم، ووضعت الموائد لزوار الله عز وجل وأحبائه من خلقه، قامت الملائكة على رؤوسهم[6] معظمين لزوار الرحمن، فوضعت الصحاف من الذهب فيها الأطعمة وطرائف الفاكهة مما لم يحسنوا أن يتمنوا، فقدموا أيديهم مسرورين باكرام ربهم لهم، لأن حقاً على كل مزور أن يكرم زائره فكيف بالمزور الكريم الواحد الجواد الماجد العظيم. فتوهم وهم يأكلون فرحين

---

(١) في الهامش.

(٢، ٢) في الهامش.

(٣) وجوهم.

(٤) في الهامش.

(٥) تسخا.

(٦) روسهم

مستبشرين باكرام مولاهم لهم، حتى اذا فرعوا من أكلهم قال الجليل لملائكته: اسقوهم، فأتتهم الملائكة، لا الخدام والولدان، بأكواب الدر وكؤوس[1] الياقوت، فيها الخمر والعسل والماء والألبان، فتوهم تلك الكأسات وتلك الأكواب بأيدي ملائكة الرحمن، فتناولوها أولياء الله فشربوها، فتنازع حسن الشراب في وجوه الزوار، فلما سقتهم الملائكة ما أمرهم الله به من الأشربة قال الجليل: اكسوا أوليائي، فتوهم الملائكة، وقد جاءت بالحلل التي لم يلبسوا في الجنة مثلها، ثم قاموا على رؤوسهم[2] فألبسوها أهل كرامة الله ورضوانه، فتوهم وقد صيروها[3] من فوق رؤوسهم حتى صارت على أقدامهم فأشرقت بحسنها وجوههم، ثم أمر الجليل تبارك وتعالى أن طيبوهم، فارتفعت السحاب بحسنها وشدة ضيائها ونورها لحمل ألوان الطيب من المسك وجميع طيب الجنان ما لم يجدوا مثل رائحته، فتوهمها تمطر عليهم والطيب يتساقط عليهم مطراً حتى علا جباههم وثيابهم، فلما أكلوا وشربوا وخلعت الملائكة الخلع وطيب[4] مطر السحاب، شخصت أبصارهم وتعلقت قلوبهم ثم رفع الحجب، فبينا هم في ذلك اذ رفعت الحجب فبدأ لهم ربهم بكماله، فلما نظروا اليه والى ما لم يحسنوا أن يتوهموه ولا يحسنون ذلك أبداً لأنه القديم الذي لا يشبهه شيء من خلقه، فلمّا نظروا اليه ناداهم حبيبهم بالترحيب منهم وقال لهم: مرحبا بعبادي، فلما سمعوا كلام الله بجلاله وحسنه غلب على قلوبهم من الفرح والسرور ما لم يجدوا مثله في الدنيا ولا في الجنة، لأنهم يسمعون[5] كلام من لا يشبه شيئاً من الأشياء. فتوهمهم، وقد أطرقوا وأصغوا بمسامعهم لاستماع كلامه، وقد علا وجوههم نور السرور لكلام حبيبهم وقرير أعينهم فلو توهمت نفسك وقد سمعت قول الله لأوليائه مرحبا بهم، ثم طار روحك فرحاً به وحباً له لكان ذلك منه حقيراً وصغيراً عندما توهمته من نفسك عند استماع كلامه،

(١) وكوس.
(٢) روسهم.
(٣) صيرها.
(٤) طيب.
(٥) يسمعوا.

فحياهم بالسلام فردوا عليه أنت السلام ومنك السلام ولك حق الجلال والاكرام. فمرحبا بعبادي وزواري وخيرتي من خلقي الذين رعوا عهدي وحفظوا وصيتي وخافوني في الغيب وقاموا منى على كل حال مشفقين، وقد رأيت الجهد منهم في أبدانهم[1] أثرة لرضاى عنهم، قد رأيت ما صنع بكم أهل زمانكم فلم يمنعكم جفاء الناس عن حقي، تمنوا على ما شئتم. فلو رأيتهم وقد سمعوا ذلك من حبيبهم يذكرهم ما كانوا عليه في دنياهم من رعاية عهده وحفظه ودوام خوفهم منه، وقد استطاروا فرحاً لما شكر لهم رعايتهم حقه، وحفظ منهم خوفهم، ورحب بهم محبة لهم، اذ كانوا بذلك اياه في الدنيا يعبدونه، استطارت قلوبهم فرحاً وسروراً إذ لم يفرطوا في طاعته ولم يقصروا في مخافته، فاغتبطوا لما كانوا به لله في الدنيا يدينون من شدة خوفهم ورعاية حقه وحفظه، فردوا إليه[2] الجواب مع سرور قلوبهم بالقسم لعظمته وجلاله، أنهم قد قصروا عما كان يحق له عليهم اعظاماً له واستكثاراً، إذ أثابهم جنته وأكرمهم بزيارته وقربه واستماع كلامه، فقالوا عند ذلك: وعزتك وجلالك[3] وعظمتك وارتفاع مكانك ما قدرناك حق قدرك، ولا أدينا إليك كل حقك فأذن لنا بالسجود، فقال لهم ربهم: اني قد وضعت عنكم مؤونة العبادة وأرحت لكم أبدانكم فطالما أتعبتم الأبدان وأكنتم لي الوجوه، فالآن أفضتم إلى كرامتي ورحمتي فتمنوا على ما شئتم - وفي بعض الحديث أنهم اذا نظروا اليه خروا فيناديهم بكلامه تبارك[4] وتعالى: ارفعوا رؤوسكم[5]، ليس هذا حين عمل، هذا حين سرور ونظر - فتوهم بعقلك نور وجوههم وما يداخلهم من السرور والفرح حين عاينوا مليكهم، وسمعوا كلام حبيبهم، وأنيس قلوبهم، وقرة أعينهم، ورضا أفئدتهم، وسكن أنفسهم، فرفعوا رؤوسهم[6] من

---

(١) في الهامش.
(٢) في الهامش.
(٣) في الهامش.
(٤) تباك.
(٥) روسكم.
(٦) روسهم.

سجودهم، فنظروا إلى من لا يشبهه شيء بأبصارهم، فبلغوا بذلك غاية الكرامة ومنتهى[1] الرضا والرفعة. فما ظنك بنظرهم إلى العزيز الجليل الذي لا يقع عليه الأوهام ولا يحيط به الأذهان، ولا تكيفه الفكر، ولا تحده الفطن، الذي لا تأويه الأرحام، ولم تنقله الأصلاب، ولا يبدو[2] فيكون مطبوعاً منتقلاً، الأزلي القديم الذي حارث العقول عن ادراكه، فكلت الألسنة عن تمثيله بصفاته، فهو المنفرد بذاته عن شبه الذوات، المتعالى بجلاله على مساواة المخلوقين، فسبحانه لا شيء يعادله، ولا شريك يشاركه، ولا شيء يريده فيستصعب عليه أو يعجزه. انشاؤه، استسلم لعظمته الجبارون، وذل لقضائه الأولون والآخرون، نفذ في الأشياء علمه بما كان وبما لا يكون، وبما لو كان كيف كان يكون، فأحاط بالأشياء علماً، وسمع أصواتها سمعاً وأدرك أشخاصها......[3] ونفذ فيها ارادته، وأمضى[4] فيها مشيئته، فهي مدبرة.....[5] وقربها اختراعاً فكانت عن ارادته، لم يتقدم منها شيء قبل وقته الذي أراد فيه كونه، ولم[6] يتأخر فيه عن نهيه وكيف يستصعب عليه من لم يكن شيئاً مذكوراً حتى كونه سبحانه الواحد القهار.

فلما سر أولياء الله برؤيته وأكرمهم بقربه ونعم قلوبهم بمناجاته، واستماع كلامه، أذن لهم بالانصراف إلى ما أعد لهم من كرامته ونعيمهم ولذاتهم، فانصرفوا على خيل الدر والياقوت على الأسرة فوقها الحجال ترف وتطير في رياض الجنان. فما ظنك بوجوه نظرت إلى الله عز وجل وسمعت كلامه كيف ضاعف حسنها وجمالها، وزاد ذلك في اشراقها ونورها، فلم تزل في مسيرها حتى أشرفت على قصورها، فلما بدت لخدامها وقهارمتها وولدانها بادر كل واحد منهم خدامه وقهارمته وولدانه مستقبلة من أبواب قصوره حتى أحدقوا به

---

(١) ومنتها.
(٢) يبدوا.
(٣) بياض في الأصل.
(٤) وامضا.
(٥) بياض في الأصل.
(٦) لم.

يزفونه إلى قصوره وخيامه، فلما دنا من باب قصره[1] وخيامه قامت الحجاب رافعي ستور أبواب قصره معظمين مجلين له وبادرت اليه أزواجه، فلما نظرت زوجته إلى جمال وجهه قد ضوعف في حسنه واشراقه ونوره، ازدادت له حباً وعشقاً، وأشرقت قصوره وقبابه وخيامه وأزواجه من نور وجهه وجماله، وازدادت أزواجه حسناً وجمالاً ووجاهة وحشمة، ثم نزلوا عن خيولهم إلى صحون قصورهم، ثم اطمأنوا على فرشهم وعادوا إلى نعيمهم واشتاقوا إلى منادمة اخوانهم فركبوا النجائب والخيل عليها يتزاورون، حتى التقوا على أنهار الجنة[2] ففرشت لهم نمارق الجنان[2] وزرابيها على كثبان المسك والكافور، وتقابل الاخوان على السرور والشراب، فقامت الولدان بالكأسات والأباريق والأكواب يغترفون من أنهار الجنة، أنهارهم الخمر والسلسبيل والتسنيم، فلما أخذت الولدان الكأسات واغترفوا ليسقوا أولياء الرحمن، لم يشعروا الا بنداء الله عز وجل: يا أوليائى طالما رأيتكم في الدنيا وقد ذبلت شفاهكم ويبست حلوقكم من العطش، فتعاطوا اليوم الكأس فيما بينكم وعودوا في نعيمكم فـ ﴿**كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية**﴾[3] فلا يقدر الخلائق أن[4] يصفوا سرور قلوبهم حين سمعوا كلام مولاهم يذكر أعمالهم شكراً منه لهم، وغبطة منه لهم، لما ناداهم إلى[5] معاطاة الكأس للمنادمة بينهم بعد معرفتهم في الدنيا. . . .[6] منادمة أهل الدنيا على خمورهم. فلو رأيت وجوههم[7] وقد أشرقت بسرور كلام مولاهم واغتباطه لما ذكرهم أعمالهم الصالحة من صيامهم، وتركهم منادمة أهل الدنيا لمرضاته، وما عوضهم من المنادمة في جواره، وما أيقنوا به من سرورهم بمنادمتهم على الخمر والعسل

---

(١) في الهامش.
(٢ ـ ٢) في الهامش.
(٣) الحاقة: ٢٤.
(٤) ناقص في الأصل.
(٥) من.
(٦) بياض في الأصل.
(٧) وجوهم.

والألبان، فأعظم به من مجلس وأعظم به من جمع، وأعظم به من منادمين في جوار الرحمن الرحيم، فكن إلى ربك مشتاقاً وإليه متحبباً، لما حال بينك وبينه قاطعاً وعنه معرضاً، وابتهل في الطلب إلى الله بفضله واحسانـه، وأن لا يقطع بك عنهم. وبالله التوفيق وإليه المصير، والجنة مثـوى المؤمنين وثواب المتقين وسرور المحزوبين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تم (كتاب التوهم) بحمد الله وصلى الله على محمد النبي

وعلى آله أجمعين اللهم وفق لمن كتبه و. . . .



فهرس تحليلي لكتاب التوهم

الصفحة

الفهارس

١ ـ فهرس الآيات

٢ ـ فهرس الأحاديث والآثار

٣ ـ فهرس الأعلام

الإسم	رقم الصفحة

٤ ـ مراجع التحقيق

١ ـ القرآن الكريم : للمحاسبي .

٢ ـ أعمال القلوب والجوارح :
للقاضي أبي زيد الدبوسي . خط .

٣ ـ الأمد الأقصى : للمحاسبي .

٤ ـ بدء من أناب إلى اللّه : للذهبي .

٥ ـ تذكرة الحفاظ : لابن حجر .

٦ ـ تهذيب التهذيب : للمحاسبي .

٧ ـ التوهم .

٨ ـ حلية الأولياء : لابي نعيم .

٩ ـ الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية :
للدكتور عبد الحميد الحيادي .
دراسة منشورة في عالم الفكر مجلد ١١
عدد ١

١٠ ـ خمرة ألحان : للنابلسي .

١١ ـ الرعايا لحقوق الله : للمحاسبي .

١٢ ـ الزهد : للإمام أحمد بن حنبل .

١٣ ـ سنن أبي داود

١٤ ـ سنن ابن ماجه .

١٥ ـ سنن الترمذي

١٦ ـ سنن الدارقطني .

١٧ ـ سنن الدارمي .

١٨ ـ سنن النسائي .

١٩ ـ السنن الكبرى : للبيهقي .

٢٠ ـ صحيح البخاري .

٢١ ـ صحيح مسلم .

٢٢ ـ الصمت : لابن أبي الدنيا . خط .

٢٣ ـ فهم الصلاة : للمحاسبي .

٢٤ ـ الفيض الرباني : للنابلسي .

٢٥ ـ القصد والرجوع إلى الله : للمحاسبي .

٢٦ ـ مجمع الزوائد : للهيثمي .

٢٧ ـ مدارج السلوك

٢٨ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل

٢٩ ـ المكاسب : للمحاسبي

٣٠ ـ موطأ مالك

٣١ ـ النجوم الزاهرة

٣٢ ـ الوصايا : للمحاسبي

٣٣ ـ وفيات الأعيان : لابن خلكان .

٥ ـ المحتوى

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة